

كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِّدَّبَرُواْ ءَايَاتِهِ ۖ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوْاْ الْأَلْبَابِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير الفاسمي المسيحي

مَحَاسِنُ التَّائِبِينَ

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين الفاسمي

١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ ١٨٦٦ - ١٩١٤ م

الجزء الحادي عشر

وفيه تفسير :

١٨ - سورة الكهف ، و ١٩ - سورة مريم ،
و ٢٠ - سورة طه ، و ٢١ - سورة الأنبياء

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

محمد بن عبد الله بن أبي

عيسى الباني الحلبي وشركاه

obeikandi.com

obeikandi.com

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأمبر شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصي جميع الناشئة
الإسلامية ، التي تريد أن تفهم الشرع
فهماً ترتاح إليه ضمائرهما ، وتنعمد عليه
خصايرهما ، ألا تقدم شيئاً على قراءة
تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمي »
جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣ هـ

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

في مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علامة الشام ، ونادرة الأيام ،
والمجدد لعلوم الإسلام ، محيي السنة
بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب
والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال
بين هدى السلف ، والارتقاء الدني
الذي يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد برهجة البيطار

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »

للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلف زهاء
مائة مصنف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . ونذر جداً أن ترى كتاباً ، في خزائنه
الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول
الخطية الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية في المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل » .

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٨ - سُورَةُ الْكَافِرِ

ويقال لها سورة أصحاب الكهف . قال المهايى : سميت بها لاشتغالها على قصة أصحاب الجامعة فوائد الإيمان بالله ، من الأمن الكلى عن الأعداء ، والإغناء الكلى عن الأشياء ، والكرامات العجيبة ، وهذا من أعظم مقاصد القرآن . وهى مكية ، وقيل ^(١) إلا أولها إلى قوله (جُرُزًا) وقوله ^(٢) (وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ . . .) الآية ^(٣) و (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا) إلى آخر السورة . واختار الدانى أنها مكية كلها . وآيها مائة وعشرة ، وقد روى فى فضلها أحاديث كثيرة ، ساقها الحافظ ابن كثير وغيره .

(١) [١٨ / الكهف / ١-٨] . (٢) [١٨ / الكهف / ٢٨] .

(٣) [١٨ / الكهف / ١٠٧-١١٠] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُوِ عِوَجًا)

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ » قدّمنا أن كثيراً ما تفتح السور وتختتم بالحمد ، إشارة إلى أنه المحمود على كل حال (لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ)^(١) وتعلماً للعباد أدب افتتاح كل أمر ذي بال واختتامه . وذلك بالثناء على الله تبارك وتعالى بنعمه العظمى ومننه الكبرى . وفي إظهار إزال التنزيل من بين سائر نعمته العلية ، تنبيه على أنه أعظم نعمائه . فإنه الهادي إلى ما فيه كمال العباد ، والداعي إلى ما به ينتظم صلاح المعاش والمعاد . ولا شيء في معناه يماثله . وفي ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم بعنوان العبودية ، تنبيه على عظمة المنزل والمنزل عليه . كما تدل عليه الإضافة الاختصاصية ، كما تقدم في سورة الإسراء . وإشعار بأن شأن الرسول أن يكون عبداً للمرسل لا كما زعمت النصارى في حق عيسى عليه السلام . وتعريف الكتاب للعهد . أي الكتاب الكامل الغني عن الوصف بالكمال ، المعروف بذلك من بين الكتب ، الحقيقي باختصاص اسم الكتاب به . وهو عبارة عن جميع القرآن . أو عن جميع المنزل حينئذ . وتأخير عن الجار والمجرور ، مع أن حقه التقديم عليه ، ليمتص به قوله سبحانه « وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُوِ عِوَجًا » أي شيئاً من العوج ، باختلال في نظمه وتناف في معانيه . أو زيغ وانحراف عن الدعوة إلى الحق . بل جعله مزيجاً للعوج ؛ إذ جعله :

(١) [٢٨ / القصص / ٧٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا)
[٣] (مَّا كَثِيرٌ فِيهِ أَبَدًا)

« قَيِّمًا » أى قَيِّمًا بمصالح العباد وما لا بد لهم منه من الشرائع . فهو وصف له بأنه مكمل لهم ، بمد وصفه بأنه كامل فى نفسه . أو قَيِّمًا على الكتب السالفة ، مهيمناً عليها . أو متناهيًا فى الاستقامة والاعتدال . فيكون تأكيداً لما دل عليه نفي العوج . مع إفادة كون ذلك من صفاته الذاتية اللازمة له ، حسبما تنبى عنه الصيغة . وانتصابه بمضمر تقديره (جعله) كما ذكرنا . على أنه جملة مستأنفة . وفيه وجوه آخر .

تنبيه :

ذهب القاشانى أن الضمير فى (لَهُ) وما بعده لقوله (عَبْدِهِ) قال : أى لم يجعل لعبده زيفاً وميلاً . وجعله قَيِّمًا ، يعنى مستقيماً ، كما أمرَ بقوله ^(١) (فَاسْتَقِيمْ كَمَا أُمِرْتَ) أو قَيِّمًا بأمر العباد وهدايتهم ، إذ التكميل يترتب على السكال . لأنه ، عليه الصلاة والسلام ، لما فرغ من تقويم نفسه وتركيتها ، أقيمت نفوس أمته مقام نفسه . فأمرَ بتقويمها وتركيتها . ولهذا المعنى سمي إبراهيم ، صلوات الله عليه ، أمة . وهذه القِيَمَةُ أى القيام بهداية الناس ، داخلة فى الاستقامة المأمور هو بها فى الحقيقة ، انتهى .
والأظهر الوجه الأول .

وقوله تعالى « لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ » أى لينذر من خالفه ولم يؤمن به ، عذاباً شديداً عاجلاً أو آجلاً . و (البأس) : القهر والعذاب ، وخصصه بقوله (مِّن لَّدُنْهُ) إشارة إلى زيادة هوله . ولذلك عظمه بالتنكير . متملق بـ (أُنْزِلَ) أو بعامل (قَيِّمًا) « وَيُبَشِّرَ

(١) [١١ / هود / ١١٢] .

الْمُؤْمِنِينَ « أَيْ بِهِ . وَقَالَ الْفَاشَانِيُّ : أَيْ الْمُوحِدِينَ ، لِسُكُونِهِمْ فِي مَقَابِلَةِ الْمُشْرِكِينَ ، الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا . وَقَوْلُهُ تَعَالَى « الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ » أَيْ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالْفَضَائِلِ « أَنْ لَهُمْ » أَيْ بَأْنِ لَهُمْ ، بِمَقَابِلَةِ إِيمَانِهِمْ وَأَعْمَالِهِمُ الْمَذْكُورَةِ « أَجْرًا حَسَنًا » وَهُوَ الْجَنَّةُ « مُسْكِنِينَ فِيهِ أَبَدًا » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا)

« وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا » وهم مشركو العرب في قولهم (الملائكة بنات الله) والنصارى في (دعواهم المسيح ابن الله) وخصمهم بالذكر ، وكرر الإنذار متعلّقاً بهم ، استعظاماً لكفرهم . وترك إجراء الموصول على الموصوف كما فعل في قوله تعالى (وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ) للإيذان بكفاية ما في حيز الصلة ، في الكفر على أقبح الوجوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ،
إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا)

« مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ » أَيْ مَا لَهُمْ بِالْوُلْدِ ، أَوْ بِاتِّخَاذِهِ ، أَوْ بِالْقَوْلِ ، مِنْ عِلْمٍ . بَلْ إِنَّمَا يَصْدُرُ عَنْ جَهْلٍ مَفْرُطٍ ، وَتَوْهَمٍ كَاذِبٍ ، وَتَقْلِيدٍ لِلْآبَاءِ . لَاعَنِ عِلْمَ يَقِينٍ ، وَيَقِينٍ . وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ « كَبُرَتْ كَلِمَةً » أَيْ مَا كَبُرَ هِيَ كَلِمَةُ « تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ » وَذَلِكَ لِأَنَّ الْوُلْدَ مُسْتَحِيلٌ لِمَعْنَى لَهُ . إِذَا الْعِلْمُ الْيَقِينِيُّ يَشْهَدُ أَنَّ الْوُجُودَ الْوَاجِبِيَّ أَحَدِيّ الذَّاتِ ، لَا يَمَّاثِلُهُ الْوُجُودُ الْمُمْكِنُ . وَالْوُلْدُ هُوَ الْمَائِلُ لَوَالِدِهِ فِي النُّوعِ ، الْمُسَافِيُّ لَهُ فِي الْقُوَّةِ . وَجَمَلُهُ (تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) صِفَةٌ لِـ (كَلِمَةً) تَفِيدُ اسْتِعْظَامَ اجْتِرَائِهِمْ عَلَى إِخْرَاجِهَا مِنْ أَفْوَاهِهِمْ . قَالَ الشَّهَابُ : لِأَنَّ الْمَعْنَى : كَبُرَ خُرُوجُهَا . أَيْ عَظُمَتْ بِشَاعَتِهِ وَقَبَاحَتِهِ ، بِمَجْرَدِ التَّفَوُّهِ . فَمَا بِأَنَّكَ بِاعْتِقَادِهِ « إِنْ

يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا « أَى قَوْلًا كَذِبًا لَا يَكَادُ يَدْخُلُ تَحْتَ إِمْكَانِ الصَّدَقِ أَصْلًا . وَذَلِكَ لَتَطَابِقَ الدَّلِيلَ الْقَطْعِيَّ ، وَالوُجْدَانَ الذَّوْقِيَّ عَلَى إِحَالَتِهِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (فَلَعَلَّكَ بِخَيْغِ نَفْسِكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا)
 « فَلَعَلَّكَ بَخِيعٌ » أى مهلكٌ « نَفْسِكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ »
 يعنى القرآن « أَسَفًا » أى للتأسف على توليهم وإعراضهم عنه . أو متأسفًا عليهم . و(الأسف)
 فرط الحزن والغضب . وفى (العناية) : لعل للترجى . وهو الطمع فى الوقوع أو الإشفاق منه .
 وهى هنا استعارة . أى وصلت إلى حالة يتوقع منك الناس ذلك . لما يشاهد من تأسفك
 على عدم إيمانهم . وفى النظم الكريم استعارة تمثيلية بتشبيه حاله معهم ، وقد تولوا ، وهو
 أسف من عدم هدايتهم ، بحال من فارقتهم أحبته . فهم يقتل نفسه . أو كاد يهلك وجداً
 عليهم وتحسرا على آثارهم . وسر ذلك - كما قال القاشانى - أن الشفقة على خلق الله والرحمة
 عليهم من لوازم محبة الله ونتائجها . ولما كان ﷺ حبيب الله ، ومن لوازم محبوبيته محبته لله
 لقوله ^(١) (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) وكلما كانت محبته للحق أقوى ، كانت شفقه ورحمته على خلقه
 أكثر . لكون الشفقة عليهم ظل محبته لله ، وأشد تعطفه عليهم . فإنهم كأولاده وأقاربه .
 بل كأعضائه وجوارحه فى الشهود الحقيقى . فلذلك بالغ فى التأسف عليهم ، حتى كاد يهلك
 نفسه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)
 « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ » أى من الحيوان والنبات والمعادن « زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ
 أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » أى ليظهر أيهم أقهر لشهواتها ودواعيها ، وأعصى لهواها فى رضى ،
 وأقدر على مخالفتها لموافقتى .

(١) [٥ / المائدة / ٥٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا)

« وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا » أى تراباً مستويًا لانبثاق فيه . بعد ما كان يبهج النظر ، لا شئ فيه يختلف ، رُبِّي ووهادًا . أى نفثها وما عليها ولا نبأى . وفى الآية تسليية له صلوات الله عليه . كأنه قيل لا تحزن عليهم فإنه لا عليك أن يهلكوا جميعاً . لأننا نخرج جميع الأسباب من العدم إلى الوجود للابتلاء . ثم نفثها ، ولا حيف ولا نقص . أو لا تحزن فإننا مفنون ذلك ومجازون لهم بحسب أعمالهم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَتِنَا عَجَبًا)

« أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَتِنَا عَجَبًا » أى آية ذات عجب . على حذف مضاف . أو وصفًا بالمصدر مبالغة و (مِنْ ءَايَتِنَا) حال منه و (أَمْ) للاستفهام التقريرى بمعنى الهمزة . أى أنهم من بين آياتنا آية عجيبة . وجعلها منقطعة مقدرة بـ (بل والهمزة ، والاستفهام للإنكار) - أى إنكار حسابهم آية عجيبة بالنسبة إلى آياته الكبرى - فيه بُعد . لأن سياق النظم الكريم ، أعنى سوقها مفصلة منوها بها ، ما هو إلا لتقرير التعجب منها . و (الكهف) الغار الواسع فى الجبل . و (الرقيم) اسم كلهم . وقيل لوح رقم فيه حديثهم ، وجعل على باب الكهف . وقيل الجبل أو الوادى ، أقوال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا

مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا)

« إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ » أى خوفًا من إيذاء الملك على ترك عبادة الأوثان

والذبح لها . وإيثارُ الإظهار على الإضمار لتحقيق حالمهم بتغليبهم جانب الله على جانب أهويتهم في حال شبابهم « فَقَالُوا رَبَّنَا » أى من ربانا بنعمة إيثار جانبه على جانب أنفسنا « ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً » أى من خزانة كبريتك وهى المغفرة والرزق والأمن من الأعداء « وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا » وهو اختيار الكهف لمفارقة الكفار « رَشَدًا » وهو توحيدك وعبادتك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا)

« فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا » أى أنماهم نومة ثقيلة لا ينهمم صفير الخبير ، ولا دعوة الداعي الخير ، فى الكهف سنين ذوات عدد . أى كثيرة أو معدودة . قال الشهاب : (ضربنا) مستعار استعارة تبعية لمعنى أنماهم إنامة لا ينتبه منها بالصياح . لأن النائم ينتبه من جهة سمعه . وهو إما من (ضربت القفل على الباب) أو (ضربت الخباء على ساكنه) شبهه ، لاستغراقه فى نومه حتى لا ينتبه بمنبهه ، بمن كان خلف حجب مانعة من وصول الأصوات إليه . وقيل إنه استعارة تمثيلية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا)

« ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ » أى أيقظناهم إيقاظاً يشبه بعث الموتى « لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا » أى لنعلم واقعاً ما علمنا أنه سيقع . وهو أى الحزبين المختلفين فى مدة لبثهم ، أشد إحصاء ، أى إحاطة وضبطاً لغاية مدة لبثهم فيعلموا قدر ما حفظهم الله بلا طعام ولا شراب ، وأمنهم من العدو ، فيتم لهم رشدهم فى شكره ، وتكون لهم آية تبعهم على عبادته . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ، إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ » شروع في تمام بسط قصتهم وتفصيلها . و (الحق)

الأمر المطابق للواقع « إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ » أى بوحدانيته إيماناً يقينياً علمياً على

طريق الاستدلال ، مع اتفاق قومهم على الشرك « وَزِدْنَاهُمْ هُدًى » أى بترجيح جانب الله على

جانب أنفسهم . قال ابن كثير : الفتية - وهم الشباب - أقبل للحق وأهدى للسبيل ، من

الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل . ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى

ولرسوله ﷺ شباباً . وأما عامة شيوخ قريش فاستمروا على ضلالهم ولم يسلم منهم إلا القليل .

وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً . وقد روى عن هؤلاء الفتية

روايات مضطربة . أوثقها أن هؤلاء ، كان قدم إلى مدينتهم من يدعو إلى الإيمان بالله تعالى ،

وبما جاء به عيسى عليه السلام . ممن كان على قدم الحواريين . فاستجاب لذلك الفتية المنوء

بهم . وخلعوا الوثنية التي عليها قومهم وفرّوا بدينهم خشية أن يقتلهم ملكهم عن دينهم

أو يقتلهم . فاستخفوا عنه في الكهف . واعتزلوا فيه يعبدون الله تعالى وحده . ثم روى أن

الملك طلبهم . فقيل : دخلوا هذا الكهف ، فقال قومهم : لا نريد لهم عقوبة ولا عذاباً

أشد من أن نردم عليهم هذا الكهف ، فبنوه عليهم ثم ردموه . ثم إن الله بعث عليهم ملكاً

على دين عيسى . فرفع ذلك البناء الذي كان ردم عليهم . فقال بعضهم لبعض : كم لبثتم ؟

فقالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم حتى بلغ (فَأَبْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى

الْمَدِينَةِ) وكان ورق ذلك الزمان لدولة أهله . فأرسلوا أحدهم يأتيهم بطعام . فلما ذهب ليخرج

رأى على باب الكهف شيئاً أنكره فأراد أن يرجع . ثم مضى حتى دخل المدينة . فأنكر

ما رأى . ثم أخرج درهما فنظروا إليه فأنكروه وأنكروا الدرهم . وقالوا : من أين لك هذا ؟

هذا من ورق غير هذا الزمان .

واجتمعوا عليه يسألونه . فلم يزالوا به حتى انطلقوا به إلى ملكهم . فأخبره بأمره .
فاستبشروا به وبأصحابه . وقيل له : انطلق فأرنا أصحابك . فانطلق وانطلقوا معه ليريههم .
فدخل قبل القوم فضرب على آذانهم فـ (قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا) هذا ما أورده ابن جرير أولا ، وفيه كفاية عن غيره .

وسند كـر في آخر نبئهم ما عند أهل الكتاب النصارى من شأنهم .
وقد قيل إنهم كانوا في مدينة يقال لها (طرسوس) من أعمال طرابلس الشام . وفيها
من الآثار القديمة العهد ، في جبل بها ، ما يزعم أهلها زعمًا متوارثًا ، أنه لأصحاب الكهف .
والله أعلم .

ثم بين تعالى صبرهم على مخالفة قومهم ، ومدينتهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش
الرغيد ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَن نَّدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ ۚ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا)

« وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أى قويناها بالصبر على المجاهدة . وشجعناها على محاربة
الشیطان والفرار بالدين إلى بعض الغيران . ومخالفة النفس وهجر المألوفات الجسمانية واللذات
الحسية والقيام بكلمة التوحيد . وقيل جسرناهم على القيام بكلمة التوحيد ، وإظهار الدين
القويم ، والدعوة إلى الحق عند ملكهم الجبار . لقوله تعالى : « إِذْ قَامُوا » أى بين يديه غير
مبالين به . و (إذ) ظرف لـ (ربطنا) . قال الشهاب : (الربط) على القلب مجاز عن الربط بمعنى
الشد المعروف . أى استعمارة منه . كما يقال ، رابط الجأش . لأن القاق والخوف ينزعج به
القلب من محله ، كما قال تعالى ^(١) : (وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ) فشبه القلب المطمئن لأمره ،

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١٠] .

بالحيوان المربوط في محلّ . وعدّى (ربط) بـ (على) وهو متمدّ بنفسه ، لتزيله منزلة اللازم « فَقَالُوا رَبَّنَا » الذى نعبد « رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » بحيث يدخل تحت ربوبيته كل معبود سواه « لَنْ نَدْعُوهُ » أى نعبد « مِنْ دُونِهِ » إلهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا » أى ذا بعدٍ عن الحق ، مفرط في الظلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً ، لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمُ

بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)

« هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً » عملوا أو نحتوا لهم آلهة ، فيفيد أنهم عبدوها . وفي الإشارة تحقير لهم « لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمُ » أى على عبادتهم أو إلهيتهم أو تأثيرهم « بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ » أى حجة بينة وبرهان ظاهر . فإن الدين لا يؤخذ إلا به . قال القاشانى : دليل على فساد التقليد ، وتسكيت بأن إقامة الحجة على إلهية غير الله ، وتأثيره ووجوده ، محال . كما قال (١) : (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مِمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) أى أسماء بلا مسميات ، لكونها ليست بشيء « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » أى لا مساوى له في الظلم والكفر . إشارة إلى أنهم لا يأتون ببرهان . فهم ظالمون في حق الله ، لا فرائضهم عليه بأن في رتبته العليا شركاء يساوونه فيها . ثم خاطب بعضهم بعضاً بقولهم :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْدَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ

رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا)

« وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْدَا إِلَى الْكَهْفِ » أى وإذا اعتزلتم القوم،

بترك متابعتهم ، من إفراط ظلمهم ، وهو موجب بغضهم . واعتزلتم معبوداتهم غير الله ، فإنهم كانوا يعبدونهم صريحاً أو في ضمن عبادتهم له ، فألّوا إلى الكهف الذي لا يطمعون عليكم فيه ، فلا يؤذونكم ، ولا تخافوا ، من السكون فيه ، فوات الطعام والشراب . فإنكم إذا التجأتم إلى الله بعد مادعوتكموه بنشر الرحمة وتهيئة الرشد « يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ » أى ما يغنى عن الطعام والشراب ، بالإمدادات المملوكة والتأييدات القدسية « وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ » وهو اختيار جانبه على جانبكم « مَرَقَقًا » أى ما تنتفعون به . قال المهايمى : يرفق بنفوسكم فيعطيه من لذات عبادته ما ينسبها سائر اللذات . على أن لذاتها لم تخل من أذية . وهذه خالصة عن الأذيات كلها . وجزّمهم بذلك لنصوع يقينهم وقوة وثوقهم بفضل الله تعالى .

تنبية :

زعم قوم أن الآية تفيد مشروعية العزلة واستحبابها مطلقاً . وهو خطأ . فإنها تشير إلى التأمى بأهل الكهف في الاعتزال ، إذا اضطرهم المرء في دينه وأريد على الشرك . ومن رد الاحتجاج بهذه الآية على تفضيل العزلة ، الإمام الغزالي حيث قال في (إحيائه) : وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضاً وهم مؤمنون . وإنما اعتزلوا الكفار . أى ولا ريب في مشروعيتها فراراً من الفتن .

فقول السيوطى في (الإكليل) : في الآية مشروعية العزلة والفرار من الظلمة وسكون النيران والجبال عند فساد الزمان - كلام مجمل لا بد من التفصيل فيه . وأى عصر خلا من الفساد ؟ . وسياق الآية في الاضطهاد فحسب ، فافهم ولا تغلّ . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ،

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا)
 « وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ » أى صعدت عند طلوعها « تَزَاوَرُ » أى تميل « عَنْ
 كَهْفِهِمْ » أى بابه « ذَاتَ الْيَمِينِ » أى يمين الكهف « وَإِذَا غَرَبَتْ » أى هبطت للغروب
 « تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ » أى تقطعهم وتعدل عن سمت رؤوسهم إلى جهة الشمال « وَهُمْ
 فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ » أى سعة من الكهف يصل إليهم الهواء من كل جانب دون أذى الشمس .
 وقد دلت الآية على أن باب ذلك الكهف كان مفتوحًا إلى جانب الشمال . فإذا طلعت الشمس
 كانت على يمين الكهف . وإذا غربت كانت على شماله . فيقع شعاعها على جانبيه . يحلل عفونته
 ويعدل هواءه . ولا يقع عليهم فيؤذيهم . قال الشهاب : (تقرضهم) من القرض بمعنى القطع .
 أى قطع الاتصال بهم لثلاث تغبر أبدانهم . وقولُ الفارسيّ إنه من قرض الدراهم ، والمعنى أنها
 تعطيمهم من تسخينها شيئًا ثم يزول بسرعة كالقرض المسترد - مردود ، بأنه لم يسمع له ثلاثي .
 وفى (الروض الآنف) تقرضهم كناية عن تعدل بهم . وقيل : تتجاوزهم شيئًا . من
 (القرض) وهو القطع . أى تقطع ما هنالك من الأرض . وقوله تعالى « ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ
 اللَّهِ » أى إرشادهم إلى هذا الغار الذى جعلهم فيه أحياء ، وشعاع الشمس والريح تدخل عليهم
 فيه ، لتبقى أبدانهم ، آية من آياته الدالة على عنايته وتوفيقه للمخلصين « مَنْ يَهْدِ اللَّهُ » أى
 إلى الحق بالتوفيق له « فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ » أى يخلق فيه الضلال لصرف اختياره إليه
 « فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا » أى ناصرًا إلى أمره فيحفظه من الضلال « مُرْشِدًا » أى يهديه
 إلى ما ذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَتَحْسَبُهُمْ آيَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ ، وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ،
 وَكَلِمَتُهُمْ بَلْسَطٌ عَلَى أَعْيُنِهِمْ بِالْوَصِيدِ ، لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا
 وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا)

« وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ » خطاب لكل أحد . أى تظنهم ، يا مخاطب ، أيقاظًا لا تفتاح أعينهم ، وهم رقاد مستغرقون فى النوم ، بحيث لا ينبههم الصوت . قال ابن كثير : ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم لم تطبق أعينهم لئلا يسرع إليها البلى . فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقي لها . وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عيناً ويفتح عيناً . ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد . كما قال الشاعر :

ينامُ بإحدى مقلتيه وَيَقْبِى
بأخرى الرزايا فهو يَقْظَانُ نائمٌ

و (أَيْقَاظًا) جمع يَقِظُ ويقظان . و (رُقُودٌ) جمع راقد . وما قيل أنه مصدر أطلق على الفاعل واستوى فيه القليل والكثير كركوع وقعود ، لأن فاعلاً لا يجمع على فعول - مردود بما نص عليه النحاة كما صرح به فى (المفصل) و (التسهيل) « وَنَقَلِيَهُمْ » أى فى رقدتهم « ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ » أى لثلاث تناف الأرض أجسادهم « وَكَلَبُهُمْ بِسِطِّ ذِرَاعِيهِ يَا لَوْ صِيدَ » أى بفناء الكهف أو الباب . وقد ثملت برقتهم كلبهم . فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال ، قال ابن كثير : وهذا فائدة صعبة الأختار . فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن . وقد قيل إنه كان كلب صيد لهم ، وهو الأشبه . واختلفوا فى لونه على أقوال لا حاصل لها ولا طائل تحتها ولا دليل عليها ولا حاجة إليها . بل هى مما نهى عنه . فإن مستندها رجم بالغيب . ووجود الكلب على هذه الحالة من العناية بهم . فكما حفظهم بالتقليب عن إهلاك الأرض ، حفظهم عن الأعداء بكلي ، ليهاوهم مع هيبته ذاتية لهم . كما قال تعالى « لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ » أى فنظرت إليهم ، مع غاية قوتك فى مكافحة الحروب « لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِثْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا » أى خوفاً يلاصدرك ، لما ألبسوا من الهيبة . فلا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم وخافهم . وذلك - كما قال ابن كثير - لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لاس ، حتى يبلغ الكتاب أجله وتنقضى رقدتهم التى شاءها تبارك وتعالى فيهم . لما له فى ذلك من الحكمة والحجة البالغة والرحمة الواسعة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ، قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ،
قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا
أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا
فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا)

« وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ » أى وكما أنعمناهم تلك القومة ، بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم
وأبشارهم ، لم يفقدوا من هيأتهم وأحوالهم شيئاً ، أذكراً بقدرته على الإنامة والبعث جميعاً .
قال ابن كثير : وذلك بعد ثلثمائة سنة وتسع سنين . وقوله تعالى « لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ » أى
ليسأل بعضهم بعضاً ويعرفوا حالهم وما صنع الله بهم ، فيعتبروا ، ويستدلوا على عظم قدرة الله
تعالى ، ويزدادوا يقيناً ، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم وكرّموا به . أفاده الزمخشري .
وبه يتبين أن البعث علة للتساؤل . ومن جعل اللام للعاقبة ، لحظ أن الغرض من فعله
تعالى إظهار كمال قدرته « قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ » أى رقدتم . اعترافاً بجهل نفسه
أو طلباً للعلم من غيره ، وإن لم يظهر كونه على اليقين « قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ »
قال ابن كثير : كأنه كان دخولهم إلى الكهف فى أول نهار ، واستيقاظهم كان فى آخر نهار .
ولهذا قالوا : أو بعض يوم . وقال المهايى : فمن نظر إلى أنهم دخلوا غدوة وانتبهوا عشية ،
ظن أنهم لبثوا يوماً ، ومن نظر إلى أنه قد بقيت من النهار بقية ، ظن أنهم لبثوا بعض يوم .
فهم مع ما أعطوا من الكرامات يتكلمون بالظن . فالولى يجوز أن يتكلم بالظن فيما ليس
من الأصول ، ويجوز أن يخطئ . وقال الزمخشري : جواب مبنى على غالب الظن . وفيه
دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب . وأنه لا يكون كذباً . وإن جاز أن يكون
خطأً .

« قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ » إنكار عليهم من بعضهم ، وأن الله أعلم بدة لبثهم .

كَانَ هَؤُلَاءِ قَدْ عَلِمُوا بِالْأَدْلَةِ ، أَوْ بِالْهَامِ مِنْ اللَّهِ ، أَنَّ الْمُدَّةَ مَتَّاعَةٌ ، وَأَنَّ مَقْدَارَهَا مَبْهُمٌ .
فَأَحَالُوا تَعْيِينَهَا عَلَى رَبِّهِمْ . « فَأُبْغِثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ » أَيْ الْمَأْخُذَةُ لِلتَّرُودِ .
و (الْوَرِقِ) الْفِضَّةُ « إِلَى الْمَدِينَةِ » أَيْ الَّتِي فَرَّسْتُمْ عَنْهَا « فَلْيَنْظُرُوا أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا »
أَيْ أَطْيَبَ . « فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ » أَيْ فِي الْمُبَايَعَةِ وَاخْتِيَارِ الطَّعَامِ . أَوْفَى
أَمْرِهِ بِالْتَّخَفِي ، حَتَّى لَا يَشْعَرَ بِحَالِكُمْ وَدِينِكُمْ « وَلَا يُشْعِرَنَّ بَكُمْ أَحَدًا » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا

إِذَا أَبَدَا)

« إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ » يَطْلَعُوا عَلَى مَكَانِكُمْ « يَرْجُمُوكُمْ » أَيْ يَقْتُلُوكُمْ بِالْحِجَارَةِ .
« أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ » أَيْ يَدْخُلُوكُمْ فِيهَا بِالْإِكْرَاهِ الْعَنِيفِ « وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدَا »
أَيْ إِذَا صَرَّحُوا إِلَى مِلَّتِهِمْ . قَالَ الْقَاسِمَانِي : ظَهَرَ الْعَوَامُ ، وَاسْتِيلَاءُ الْمَقْلَدَةِ وَالْحَشْوِيَّةِ الْمَحْجُوبِينَ ،
وَأَهْلُ الْبَاطِلِ الْمَطْبُوعِينَ ، وَرَجَمَهُمْ أَهْلُ الْحَقِّ ، وَدَعَوْتَهُمْ إِيَّاهُمْ إِلَى مِلَّتِهِمْ - ظَاهِرٌ . كَمَا كَانَ
فِي أَوَائِلِ الْبُعْثَةِ النَّبَوِيَّةِ .

لطائف :

الأولى - قَالَ الزُّخْمَرِيُّ : فَإِنْ قُلْتُ : كَيْفَ وَصَلُوا قَوْلَهُمْ (فَأُبْغِثُوا) بِتَذَاكَرِ حَدِيثِ
الْمُدَّةِ ؟ قُلْتُ : كَأَنَّهُمْ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِذَلِكَ . لَا طَرِيقَ لَكُمْ فِي عِلْمِهِ . تَخَذُوا فِي شَيْءٍ آخَرَ
مِمَّا بِهِمْكُمْ . انْتَهَى .

ورَأَى الْمُهَاجِمِيُّ أَنَّ قَوْلَهُمْ (فَأُبْغِثُوا) مِنْ تَتَمُّةِ حَدِيثِ الْمُدَّةِ . قَصَدَ بِهِ تَفْحِصَهَا . كَأَنَّهُمْ
لَمَّا أَحَالُوا تَعْيِينَهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِقَوْلِهِمْ (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ) قَالُوا هَذِهِ الْإِحَالَةُ لَا تَنْفَعُ مِنْ
طَلَبِ الْعِلْمِ بِالْمُدَّةِ . وَلَوْ فِي ضَمَنِ أَمْرٍ آخَرَ ، فَاطْلُبُوهُ فِي ضَمَنِ حَاجَةٍ لَنَا . وَهِيَ أَنْ تَبْغِثُوا أَحَدَكُمْ

بورقكم هذه لثلاث نحوج إلى السؤال عن المدة. لاسيما في مكان يمنع من الإجابة إلى المسؤول به، فيفيض إلى الهلاك .

الثانية - قال في (الإكليل) : قوله تعالى (فَاَبْمُتُوا) الآية ، أصل في الوكالة والنيابة. قال ابن العربي : وهي أقوى آية في ذلك .

قال السكيا : وفيها دليل على جواز خلط دراهم الجماعة والشراء بها والأكل من الطعام بينهم بالشركة ، وإن تفاوتوا في الأكل .

الثالثة - دلّ قوله تعالى عنهم (فَلْيَنْظُرُ آيَهُمَا أَزْكَى طَعَامًا) على مشروعية استجادة الطعام واستطابته بأقصى ما يمكن ، لصيغة التفضيل . فإن الغذاء الأزكى المتوفر فيه الشروط الصحية يفيد الجسم ولا يتعبه ولا يكدره . ولذلك يجب طباً الاعتناء بجودته وتركته ، كما فصل في قوانين الصحة .

الرابعة - قال الرازي : (الرجم) بمعنى القتل ، كثير في التزويل كقوله ^(١) (وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ) وقوله ^(٢) (أَنْ تَرَجُمُونَ) وأصله الرمي ، أى بالرجم وهي الحجارة . ولا يبعد إرادة الحقيقة في مواده كلها ، زيادة في التسهيل . فإن الرجم أخبث أنواع القتل . وقوله تعالى : القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ ، فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ، قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا) « وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ » أى كما أنعمناهم وبعمناهم لما في ذلك من الحكمة ، أطلعنا عليهم أهل المدينة حتى دخلها من بعثوه للطعام ، وأخرج ورقهم المتقدمة العهد « لِيَعْلَمُوا »

(١) [١١ / هود / ٩١] . (٢) [٤٤ / الدخان / ٢٠] .

أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ « أَيْ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أَطَاعْنَاهُمْ عَلَى حَالِهِمْ ، أَنْ وَعَدَ اللَّهُ بِالْبَعْثِ حَقٌّ . لَأَنْ حَالَهُمْ فِي نَوْمِهِمْ وَانْتِبَاهَتِهِمْ بَعْدَهَا كَحَالِ مَنْ يَمُوتُ ثُمَّ يَبْعَثُ « وَأَنَّ السَّاعَةَ » أَيْ الْمَوْعُودِ فِيهَا بِالْبَعْثِ « لَا رَيْبَ فِيهَا » إِذْ لَا بَدَّ مِنَ الْجَزَاءِ بِمَقْتَضَى الْحِكْمَةِ . ثُمَّ أَشَارَ تَعَالَى إِلَى مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ بَعْدَ وَفَاتِهِمْ ، وَعَنَايَةِ قَوْمِهِمْ بِحِفْظِ أَجْدَادِهِمْ ، بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ « إِذْ يَنْفَرُ عَنْهُمْ يَنْفَرُهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا أَبْنَاؤُا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا » أَيْ عَلَى بَابِ كَهْفِهِمْ بَنِيَانًا عَظِيمًا . كَالْحَائِقَاتِ وَالْمُشَاهِدِ وَالْمَزَارَاتِ الْمَبْنِيَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ وَ (إِذْ) عَلَى مَا يَظْهَرُ لِي ، ظَرْفٌ لـ (إِذْ كَر) مُقَدَّرًا . وَالْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ لِبَيَانِ خَتْمِ نَبِيِّهِمْ بِمَا جَرَى بَعْدَ مَمَاتِهِمْ ، إِثْرَ مَا أَوْجَزَ مِنْ نَبِيِّهِمْ بَعْدَ بَعْثِهِمْ وَالْإِثَارَ عَلَيْهِمْ . وَجَعَلَهُ ظَرْفًا لـ (أَغْثَرْنَا) أَوْ لَغَيْرِهِ مِمَّا ذَكَرُوا - لَيْسَ فِيهِ قُوَّةُ ارْتِبَاطٍ وَلَا دَقَّةُ مَعْنَى وَقَوْلُهُ تَعَالَى (فَقَالُوا) تَفْسِيرٌ لِلْمُتَنَازِعِ فِيهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى ، « رَبَّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ » جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ . إِمَّا مِنْ اللَّهِ ، رَدًّا عَلَى الْخَائِضِينَ فِي حَدِيثِهِمْ مِنْ أَوْلَئِكَ الْمُتَنَازِعِينَ فِيهِمْ عَلَى عَهْدِهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، أَوْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ كَلَامِ الْمُتَنَازِعِينَ فِي عَهْدِهِمْ . كَأَنَّهُمْ تَذَاكُرُوا أَمْرَهُمُ الْعَجِيبَ وَتَحَاوَرُوا فِي أَحْوَالِهِمْ وَمُدَّةِ لَبْسِهِمْ . فَلَمَّا لَمْ يَهْتَدُوا أَحَالُوا حَقِيقَةَ نَبِيِّهِمْ إِلَيْهِ تَعَالَى « قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ » أَيْ مِنَ الْمُتَنَازِعِينَ ، وَهُمْ أَرْبَابُ الْغَلْبَةِ وَتَقْوُذِ الْكَلِمَةِ « لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا » أَيْ نَصْلِي فِيهِ ، تَبْرَكَابِهِمْ وَبِعْكَابِهِمْ .

تنبيه :

قال ابن كثير : حكى في القائلين ذلك قولان (أحدهما) أنهم المسلمون منهم (والثاني) أنهم المشركون . والظاهر أنهم هم أصحاب النفوذ . ولكن هل هم محمودون أم لا ؟ فيه نظر . لأن النبي ﷺ قال ^(١) : (لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) يحذر ما فعلوا . انتهى .

(١) أخرجه البخاري في : ٨ - كتاب الصلاة ، ٥٥ - باب حدثنا أبو اليمان ، حديث

٢٨٥ ، ٢٨٦ ، عن عائشة وعبد الله بن عباس .

وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٩ و ٢٢ (طبعقتنا) .

وعجيب من تردده في كونهم غير محمودين ، مع إirاده الحديث الصحيح بعده ، المسجل بلعن فاعل ذلك . وهو أعظم ما عنون به على الغضب الإلهي والمقت الرباني . والسبب في ذلك أن البناء على قبر النبي والولي مدعاة للإقبال عليه والتضرع إليه . ففيه فتح لباب الشرك وتوسل إليه بأقرب وسيلة . وهل أصل عبادة الأصنام إلا ذلك ؟ كما قال ابن عباس في قوله تعالى (١) (وَقَالُوا لَا تَنْدَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَنْدَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) قال : هؤلاء كانوا قومًا صالحين في قومهم . فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم . فلما طال عليهم الأمد عبدوهم . فهؤلاء لما قصدوا الانتفاع بالموتى ، قادم ذلك إلى عبادة الأصنام . قال الإمام محمد بن عبد الهادي عليه الرحمة ، في كتابه (الصارم المنكي) بعد إirاده ما تقدم : يوضحه أن الذين تكلموا في زيارة الموتى من أهل الشرك ، صرّحوا بأن القصد هو انتفاع الزائر بالمزور . وقالوا : من تمام الزيارة أن يعلق همته وروحه بالميت وقبره . فإذا فاض على روح الميت من العلويات الأنوار ، فاض منها على روح الزائر بواسطة ذلك التعلق والتوجه إلى الميت . كما ينعكس النور على الجسم المقابل للجسم الشفاف ، بواسطة مقابلته .

وهذا المعنى بعينه ، ذكره عباد الأصنام في زيارة القبور . وتلقاه عنهم من تلقاه ممن لم يحط علماً بالشرك وأسبابه ووسائله . ومن هاهنا يظهر سر مقصود النبي ﷺ بنهيهم عن تعظيم القبور واتخاذ المساجد عليها والسرّج . ولعنه فاعل ذلك وإخباره بشدة غضب الله عليه . ونهيهم عن الصلاة إليها ، ونهيهم عن اتخاذ قبره عيداً . وسؤاله ربّه تعالى أن لا يجعل قبره وثناً يعبد . فهذا نهيه عن تعظيم القبور . وذلك تعليمه وإرشاده للزائر أن يقصد تقع الميت والدعاء والإحسان إليه ، لا الدعاء به ولا الدعاء عنده .

(١) [٧١ / نوح / ٢٣] .

ثم قال عليه الرحمة : ومن ظن أن ذلك تعظيم لهم فهو غلط جاهل . فإن تعظيمهم إنما هو بطاعتهم واتباع أمرهم ومحبتهم وإجلالهم . فمن عظمهم بما هو عاص لهم به ، لم يكن ذلك تعظيماً . بل هو ضد التعظيم . فإنه متضمن مخالفتهم ومعصيتهم . فلو سجد العبد لهم أو دعاهم من دون الله أو سبّحهم أو طاف بقبورهم واتخذ عليها المساجد والسرر ، وأثبت لهم خصائص الربوبية ، وزههم عن لوازم العبودية ، وادعى أن ذلك تعظيم لهم - كان من أجهل الناس وأضلهم . وهو من جنس تعظيم النصارى للمسيح حتى أخرجوه من العبودية . وكل من عظم مخلوقاً بما يكرهه ذلك المعظم ويغضه ، ويعت فاعله ، فلم يعظمه في الحقيقة ، بل عامله بضد تعظيمه . فمعظم الرسول ﷺ أن تطاع أوامره وتصدق أخباره ولا يُقدّم على ما جاء به غيره . فالتعظيم نوعان : أحدهما ما يحبه المعظم ويرضاه ويأمر به ويثنى على فاعله ، فهذا هو التعظيم في الحقيقة . والثاني ما يكرهه ويغضه ويذم فاعله ، فهذا ليس بتعظيم بل هو غلوّ مناف للتعظيم . ولهذا لم يكن الرافضة معظمين لعلّ ، بدعواهم الإلهية والنبوة أو العصمة ونحو ذلك . ولم يكن النصارى معظمين للمسيح بدعواهم فيه ما ادعوا . والنبي ﷺ . قد أنكر على من عظمه بما لم يشرعه . فأنكر على معاذ سجوده له وهو محض التعظيم . وفي المسند^(١) بإسناد صحيح على شرط مسلم عن أنس بن مالك أن رجلاً قال : يا محمد! يا سيدنا! وابن سيدنا! وخيرنا! وابن خيرنا! فقال رسول الله ﷺ (عليكم ببقواكم ، ولا يستهويكم الشيطان . أنا محمد بن عبد الله ، عبد الله ورسوله . ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عزّ وجلّ) . وقال ﷺ^(٢) : (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم . فإنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله) وكان يكره من أصحابه أن يقوموا له إذا رأوه . ونهاهم أن يصلوا خلفه قياماً وهو مريض . وقال^(٣) : (إن كدتم آتفا لتفعلون فعل فارس والروم .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ١٥٣ من الجزء الثالث .

(٢) أخرجه البخاري في : ٨٦ - كتاب الحدود ، ٣١ - باب رجم الجبلي في الزنى إذا أحصنت ، حديث رقم ١٢١٤ ، عن عمر بن الخطاب ، من خطبته الطويلة في آخر حجة حجها .

(٣) أخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ٨٤ (طبعنا) .

يقومون على ملوكهم) وكل هذا من التعظيم الذى يبغضه ويكرهه . ولقد غلا بعض الناس فى تعظيم القبور حتى قال : إن البلاء يندفع عن أهل البلد أو الإقليم ، بمن هو مدفون عندهم من الأنبياء والصالحين . وهو غلوٌ مخالف لدين المسلمين ، مخالف للكتاب والسنة والإجماع . والبحث تنمة مهمة فانظروا . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْبُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ، قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ، فَلَا تُحَارِبْ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرَ ، وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا)

« سَيَقُولُونَ » أى الخائضون فى قصتهم على عهد النبي ﷺ من أهل الكتاب الذين لا علم لهم بالحقيقة « ثَلَاثَةٌ رَأَيْبُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ » أى بعض آخر منهم « خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ » أى رمياً وتلفظاً بالذى غاب عنهم . يعنى ظناً خالياً عن اليقين . قال ابن كثير : كالذى يرى إلى مكان لا يعرفه ، فإنه لا يكاد يصيب ، وإن أصاب فبلا قصد « وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ » حكاية لقول فريق آخر كان يرى عدتهم هذه « قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ » أى ممن أطلعه الله عليه « فَلَا تُحَارِبْ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرَ » أى لا تجادل أهل الكتاب فى شأن أصحاب الكهف ، إلا جدالاً ظاهراً ليناً غير متعمق فيه . وذلك على قدر ما تعرض له التنزيل الكريم من وصفهم بالرجم بالغيب وعدم العلم على الوجه الإجمالى ، وتقويض العلم إلى الله سبحانه ، من غير تجهيل لهم ، ولا تمنيف بهم ، فى الرد عليهم كما قال ^(١) (وَجَدِلُهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) فإن الأمر

(١) [١٦ / النحل / ١٢٥] .

في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة . قيل : المهاراة المجادلة . وقيل بالفرق . فالمجادلة الحاجة مطلقاً . والمهاراة الحاجة فيما فيه مزية أى تردد ، لأنها من (مريت الناقة) إذا مسحت ضرعها للحليب « وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا » أى لا تسأل أحداً منهم عن نبئهم . لأن السؤال إما للاسترشاد ، أو للتعنت والمحاورة . ولا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه رجماً بالغيب . من غير استناد إلى كلام معصوم . والتعنت للرد على الخصم وتزييف ما عنده ، ينافى مكارم الأخلاق . والمعنى : جاءك الحق الذى لا مزية فيه ، فهو المقدم الحاكم على ما تقدمه من الكتب والأقوال .

تنبيهات :

الأول - ذهب أكثر المفسرين إلى أن قول الخائضين الأخير ، وهو أنهم سبعة وثامنهم كلهم ، هو الحق . لأنه لم يوصف بكونه رجماً بالغيب كما وصف الأولان . ولتخصيصه بالواو في قوله (وَثَامِنُهُمْ) وهى الواو الداخلة على الجملة الواقعة صفة للنكرة ، لإفادة تأكيد لصوق الصفة بالموصوف . والدلالة على أن انصافه بها أمر ثابت مستقر . وأنه لا عدد وراءه . كما قال ابن عباس : حين وقعت الواو انقطعت العدة . وأقول : لا يخفى ضعف التمسك بهذين الوجهين لتقوية القول الأخير . فإن عدم وصفه بالرجم بالغيب إنما هو لدلالة ما قبله عليه . وفى إعادته إخلال بالبلاغة . ومسألة الواو أوهى من بيت العنكبوت . فإن مثل هذا النزاع لا يكتفى بحسمه بمثل هذا الإيماء الدقيق القريب من الإلغاز . كما لا يخفى على من تتبع مواقع حسم الشبه في الكتاب والسنة وكلام البلغاء . لاسيما والواو من المحكى لامن الحكاية . فيدل على ثبوته عند القائل لا عند الله ، فلا يكون من الإيماء فى شىء . وجواب بعضهم بأنه تعالى لما حكى قولهم قبل أن يقولوه هكذا ، لقنهم أن يقولوه إذا أخبروا عنه بهذه العبارة ، وبأنه لا مانع أن تكون من الحكاية - بعيد غاية البعد ، وتسكف ظاهر ، وإغراب فى القول . ثم قيل : إن هذه الجملة لاتتمين للوصفية . لجواز كونها حالاً من النكرة ، لأن اقترانها بالواو مسوغ . ويجوز أن يكون خبراً عن المبتدأ المحذوف . لأنه يجوز فى مثله إيراد الواو

وتركها . على أنه إنما يتم ما ذكرناه لو لم يتبع قولهم بقوله تعالى (قُلْ رَبِّىَّ أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ) فإن في تأثره للأقوال المتقدمة كلها ، برهاناً ظاهراً على أنهم لم يهتدوا لعدتهم ، وإرشاداً إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام ، رد العلم إليه تعالى . وإشارة إلى أنه لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم بين وبرهان نير . وإنه إذا أوقفنا على الفاصل قلنا به ، وإلا وقفنا . وقد تأكد هذا بقوله سبحانه بعده (مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) فإن فيه (دلالة على أنه يعلمهم البعض ممن لم يشأ الحق تعيينه . وهو إمام نبي ، أو من كان في مدتهم ، أو من نقب عن نبئهم بأثارة صحيحة أو تلقى عن المعصوم . وفيه إعلام بأنه لم يضرب على الناس بسد من جهالة شأنهم .

وبالجملة ، فالنظم الكريم ، بأسلوبه هذا ، لا يدل على أن الأخير هو الحق كما علمت . وأما ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من قوله : أنا من القليل الذى استثنى الله عز وجل . كانوا سبعة - فهو من الموقوف عليه . ولو رفع إلى النبي ﷺ وصح سنده لقلنا به على أنه اختلف على ابن عباس في عدتهم . فروى عنه أنهم ثمانية ، حكاه ابن إسحق عن مجاهد عنه . وروى عنه سبعة . وهو حكاية قتادة وعكرمة عنه . ثم رأيت الرازى نقل عن القاضى أنه قال : إن كان - ابن عباس - قد عرفه ببيان الرسول ، صح . وإن كان قد تعلق بحرف الواو فضعيف . انتهى . هذا ما ظهر لى الآن .

وبعد كتابتى لما تقدم بمدة ، وقفت على نبئهم في (طبقات الشهداء المسيحيين) وأن عدتهم سبعة عندهم كما استراه في آخر الآيات فيهم . فسنح لى أن ابن عباس إنما جزم بما جزم به ، مما قوى عنده من إشارة الآية ، كما ذكره أولئك الكثرون ، ومن تواتر عدتهم من قومهم ومن أثر عنهم . ثم حققه وصدقه عدم النكير فيه . وكذلك جزم بمثله الإمام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله ، حيث قال في (قاعدة له في التفسير) : اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام - مقام حكاية الأقوال وتعليم ما ينبغى في مثل هذا . فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة

أقوال، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث . فدل على صحته . إذ لو كان باطلا لرده كما ردها . ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته . فيقال في مثل هذا (قُلْ رَّبِّيَ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ) فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه . فبهذا قال (فَلَا تَعْمُرْ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءَ ظَهْرٍ) أى لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ، ولا تسألهم عن ذلك . فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب . فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام وأن ينبه على الصحيح منها ويبطل الباطل . ويذكر فائدة الخلاف وثمرته ، لثلايق النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته ، فيشتغل به عن الأهم . فأما من حكى خلافاً في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها ، فهو ناقص . إذ قد يكون الصواب في الذى تركه . أو يحكى الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال ، فهو ناقص أيضاً . انتهى كلامه رحمه الله ، وهو الفصل في هذ المقام .

الثانى - قال الرازى : ذكروا في فائدة الواو في قوله (وَثَامِنُهُمْ) وجوهاً :

الأول - ما ذكره أنه يدل على أن هذا القول أولى من سائر الأقوال . وقد عرفت ما فيه .

وثانيها - أن السبعة عند العرب أصل في المبالغة في العدد . وإذا كان كذلك ، فإذا وصلوا إلى الثمانية ذكروا لفظاً يدل على الاستئناف ، فقالوا : وثمانية . فجاء هذا الكلام على هذا القانون . قالوا : ويدل عليه نظيره في ثلاث آيات ، وهى قوله ^(١) : (وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ) لأن هذا هو العدد الثامن من الأعداد المتقدمة . وقوله ^(٢) : (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَقُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) لأن أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة . وقوله ^(٣) : (تَبَيَّنَتْ وَأَبْكَرًا) لأن قوله : (وَأَبْكَرًا) هو العدد الثامن مما تقدم . والناس يسمون هذه الواو . (وَوَالثَّمَانِيَةَ) ومعناه ما ذكرناه .

(١) [٩ / التوبة / ١١٢] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٧٣] . (٣) [٦٦ / التحريم / ٥] .

قال القفال: وهذا ليس بشيء والدليل عليه قوله تعالى^(١): (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ) ولم يذكر الواو في النعت الثامن . انتهى .

وقال في (الانتصاف): الصواب في الواو ما تقدم من كونها لتأكيد اللصوق . لا كمن يقول إنها واو الثمانية . فإن ذلك أمر لا يستقر لمثبته قدم . ويعدون مع هذه الواو في قوله في الجنة (وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) قالوا لأن أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة وهب أن في اللغة واو تصحب الثمانية فتختص بها ، فأين ذكر العدد في أبواب الجنة حتى ينتهي إلى الثامن فتصحبه الواو؟ وربما عدوا من ذلك (وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ) وهو الثامن من قوله (التَّائِبُونَ) وهذا أيضاً مردود بأن الواو إنما اقترنت بهذه الصفة لتربط بينها وبين الأولى التي هي (الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ) لما بينهما من التناسب والربط . ألا ترى اقترانهما في جميع مصادرها ومواردها؟ كقوله^(٢) (يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) وكقوله^(٣) (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ) وربما عد بعضهم من ذلك ، الواو في قوله: (تَيَبَّتْ وَأَبْكَارًا) لأنه وجدها مع الثامن . وهذا غلط فاحش . فإن هذه واو التقسيم . ولو ذهبت تحذفها فتقول (تَيَبَّتْ أَبْكَارًا) لم يستدالكلام . فقد وضح أن الواو في جميع هذه المواضع المدودة ، واردة لغير ما زعمه هؤلاء . والله الموفق . . انتهى .

الثالث: حكى في (الإكليل عن مجاهد في قوله تعالى: (فَلَا تَعَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرَ)) إلا بما أظهرنا لك . ومثله قول السدّي: إلا بما أوحى إليك . وإن فيه تحريم الجدل بغير علم وبلا حجة ظاهرة . وقوله تعالى :

(١) [٥٩ / الحشر / ٢٣] . (٢) [٩ / التوبة / ٧١] .

(٣) [٣١ / لقمان / ١٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنْنِي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا)

[٢٤] (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، وَأَذْكُرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ، وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا)

« وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنْنِي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَأَذْكُرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ » في هذه الآية وجوه من المعاني . منها أن المعنى لا تقولن إلا وقت أن يشاء الله بأن يأذن لك في القول ، فتكون قائلاً بمشيئته ، فالمشيئة على هذا بمعنى الإذن . لأن وقت مشيئة الله لشيء لا تعلم إلا بإذنه فيه أى إعلامه به . ومنها لا تقولن لما عزمتم عليه من فعل ، إني فاعل ذلك غداً إلا قائلاً معه إن شاء الله تبرؤاً من لزوم التحكم على الله ، ومن الفعل بإرادتك بل بإرادة الله ، فتكون فاعلاً بمشيئته . ولئلا يلزم الكذب لو لم يشأه الله تعالى . ومنها أن المعنى لا تقولن ذلك قاطعاً بفعله وباتأله . لأنه ^(١) (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا) فلا ينبغي الجزم والبت على فعل أمر مستقبل مجهول كونه . وقوله تعالى (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) أى أن تقول ذلك القول البات نسياناً فحينئذ ارجع إلى ربك بذكره . ولذا قال : (وَأَذْكُرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) وعلى هذه الوجوه كلها فد (لَا تَقُولَنَّ) نهى معطوف على النهيين قبله . قال الجاحظ في كتاب (الحيوان) : إنما أُلْزِمَ جل وعلا عبده أن يقول : إن شاء الله ، ليمبق عادة المتألى ، ولئلا يكون كلامه ولفظه يشبه لفظ المستبد والمستغنى ، وعلى أن يكون عبده ذا كراً لله . لأنه عبد مدبر ، ومقلب ميسر ، ومصرف مستخر . وبقي وجه آخر . وهو أن المعنى لا تقولن ذلك إلا أن يشاء الله أن تقول هذا القول . والجملة خبرية قصد بها الإخبار عن سبق مشيئته تعالى لسكل ما يعزم عليه ويقول . كقوله تعالى ^(٢)

(١) [٣١ / لقمان / ٣٤] . (٢) [٧٦ / الإنسان / ٣٠] .

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) وهذا المعنى هو الظاهر ببادئ الرأي كما قاله في (الانتصاف) وفي هذا المعنى تلويح بأنه صلوات الله عليه كان همّ بأمرٍ ما في نبأ هؤلاء الفتية، وعزم على أمر في غد المحاورة به. ولعله الاستفتاء عنهم. فلما نهى عنه أخبر بأن كل شيء كائن بمشيئته تعالى، ليدخل فيه ما كان قاله دخولاً أولياً. أى ما قلته وعزمت على فعله كان بمشيئة الله، إذ شاء الله أن تقوله. فالآية بمثابة العناية به والتلطيف بالخطاب، إثر ما يوصى إليه النهي إليها من رقيق العتاب ولذلك اعترضت بين سابق النهي عن استفتاءهم، ولا حق الأمر بذكره تعالى إذا نسي، أى نسي ما وصّى به. وبما ذكرنا يعلم أن هذا المعنى له وجه وجيه.

فدعوى الناصر في (الانتصاف) أنه ليس هو الغرض، وأن الغرض النهي عن هذا القول إلا مقروناً بمشيئته تعالى - قصر للآية على أحد معانيها، وذهاب إلى ما هو المشهور في تأويلها، وعدم تعمّن في مثل هذا المعنى الدقيق، بل وفي بقية المعاني الأخر التي اللفظ الكريم يحتملها. وقد ظهر قوة المعنى الأخير لموافقة الآية (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) والقرآن يفسر بعضه بعضاً. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى «وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا» أى خيراً ومنفعة. والإشارة، للنبا المتجاوز فيه.

تنبيهات :

الأول - روى أنه صلوات الله عليه سئل عن أصحاب الكهف والروح وذى القرنين، فقال : أجيئكم عنها غداً ولم يستثن. فاحتبس الوحي خمسة عشر يوماً، ثم نزلت (وَلَا تَقُولَنَّ) الآية. وقد زيف هذه الرواية القاضي - كما حكاه الرازي - من أوجه. والحق له. لأنها من مرويات ابن إسحاق عن شيخ مجهول. كما ساقه عنه ابن كثير وغيره، والله أعلم.

الثاني - يشير قوله تعالى «وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي» الآية، إلى أن هذا النبا ليس مما تنبى العناية بتحقيقه وتدقيق أطرافه، وابتغاء الرشاد فيه، حتى يتكاف لفتوى أهل

الكتاب فيه . والعزم على فعل شيء مما يلابسه في المستقبل ، لأنه من الأمور الغابرة التي حق الخائض فيها أن ينظر منها إلى وجه العبرة والفوائد التي حوتها، كما أحكمته آيات التنزيل في شأنها .

الثالث - اعترضت هذه الآداب أعنى من قوله تعالى (فَلَا تُمَارِ) إلى هنا قبل تميم نبهم ، مبادرة إلى الاهتمام بهذه الآداب والاحتفاظ بها ، لتتمكن فضل تمكن ، وترسخ في النفس أشد رسوخ . والله أعلم .

الرابع - روى عن ابن عباس في قوله تعالى : (وَأُذْكَرُ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ) : إذا نسيت الاستثناء بالمشيئة ثم ذكرت فاستثنى ، وذلك (كما قال القرطبي) لتدارك التبرك والتخلص عن الإثم .

وقال في (الانتصاف) : أما ظاهر الآية فمقتضاه الأمر بتدارك المشيئة ، متى ذكرت ولو بعد الطول . وأما حيلها لليمين حينئذ فلا دليل عليه منها . انتهى .

ودعوى أنه الظاهر هو على أحد الوجوه فيها ، مفرعاً على أن المشيئة في الآية قبلها ، مشيئة القول ، وهو أحد معاني الآية . وقد حكى عن ابن عباس جواز الاستثناء وإن طال الزمان . ثم اختلف عنه . ف قيل إلى شهر وقيل إلى سنة وقيل أبداً . وفي (حصول المأمول) : ومن قال بأن هذه المقالة لم تصح عن ابن عباس ، لعله لم يعلم بأنها ثابتة في (مستدرك الحاكم) وقال : صحيح على شرط الشيخين بلفظ : (إذا حلف الرجل على يمين فله أن يستثنى إلى سنة) ومثله عند أبي موسى المديني وسعيد بن منصور وغيرهما من طرق . وبالجمله فالرواية عنه رضي الله عنه قد صحت ، لكن الصواب خلاف ما قاله .

قال ابن القيم في (مدارج السالكين) إن مراده أنه إذا قال شيئاً ولم يستثن ، فله أن يستثنى عند الذكر . وقد غلط عليه من لم يفهم كلامه . انتهى .

وهذا التأويل يدفعه ما تقدم عنه . والاستثناء بعد الفصل اليسير وعند التذكير ، قد دلت

عليه الأدلة الصحيحة . منها حديث أبي داود^(١) وغيره (والله ! لأغزون قريشاً) ثم سكت ثم قال (إن شاء الله) . ومنها حديث^(٢) (ولا يمضد شجرها ولا يختلي خلاها) فقال العباس (إلا الإذخر) . وهو في الصحيح . ومنها قوله^(٣) ﷺ في صلح الحديبية (إلا سهل ابن بيضاء) انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا)
 [٢٦] (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ، لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَبْصِرْ بِهِ ،
 وَأَسْمِعْ ، مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)
 « وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا »
 حكاية لقول أهل الكتاب في عهده ﷺ ، في مدة لبثهم نائمين في كهفهم الذي التجأوا إليه ،
 ليتفرغوا لذكر الله وعبادته . وقد رد عليهم بقوله سبحانه (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا)
 وإليه ذهب قتادة ومطرف بن عبد الله . وأيده قتادة بقراءة ابن مسعود رضي الله عنه
 (وَقَالُوا وَلَبِثُوا) قيل : وعليه فيكون ضمير (وَازْدَادُوا) لأهل الكتاب . وإنه يظهر فيه
 وجه العدول عن المتبادر وهو ثلثمائة وتسع سنين . مع أنه أخصر وأظهر . وذلك لأن بعضهم

- (١) أخرجه أبو داود في : ٢١ - كتاب الإيمان والنذور ، ١٧ - باب الاستثناء في اليمين
 بعد السكوت ، حديث رقم ٣٢٨٥ . (٢) أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجناز ،
 ٧٧ - باب الإذخر والحشيش في القبر ، حديث رقم ٧١٠ ، عن ابن عباس .
 وأخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ٤٤٥ (طبعنا) .
 (٣) لم أقف على هذا الحديث .

قال : ثلاثمائة . وبعضهم قال أزيد بتسعة . ولا يخفى ركازة ما ذكر ، فإن الضمير للفتية . ووجه العدول موافقة رؤوس الآي المقطوعة بالحرف المنسوب . ودعوى الأخصرية تدقيق نحوي لا تنهض بمثله البلاغة . وأما الأظهرية فيأبأها ذوق الجملتين ذوقاً سليماً . فإن الوجدان العربي يجد بينهما في الطلاوة بعد المشرقين . ودعوى أن فيها إشارة إلى أنها ثلاثمائة بحساب أهل الكتاب بالأيام ، واعتبار السنة الشمسية ، وثلاثمائة وتسع بحساب العرب ، واعتبار القمرية ، بياناً للتفاوت بينهما ، إذ التفاوت بينهما في كل مائة سنة ثلاث سنين - دعوى يتوقف تصحيحها على ثبوت أن أهل الكتاب ازدادوا بالسنة الشمسية وأنه قص علينا ما أرادوه بالسنة الهلالية ، فلذلك قال : (وَأَزْدَادُوا تِسْعًا) لنقف على تحديد ماعنوه ، ومن أين يثبت ذلك ؟ وما الداعي لهذا التعمق المشوش ؟ والآية جلية بنفسها في دعواهم مدة لبثهم . وقد يريدون السنة الشمسية أو الهلالية ، وبأي منها قالوا : فقد رد عليهم بقوله : (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا) أي بمقدار لبثهم . فلا تقفوا ما ليس لكم به علم ، وما هو غيب يرد إليه سبحانه ، كما قال « لَهُ وَغَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أي ما غاب فيهما وخفي من أحوال أهلها ، أي أنه هو وحده العالم به « أَبْصِرْ بِهِ وَاسْمِعْ » أي ما أبصره لكل موجود ! وأسمعه لكل مسموع لا يخفى عليه شيء ولا يحجب بصره وسمعه شيء .

قال الزمخشري : جاء بمبادل على التعجب من إدراكه المسموعات والمبصرات ، للدلالة على أن أمره في الإدراك خارج عن حد ما عليه إدراك السامعين والمبصرين ، لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصغرها ، كما يدرك أكبرها حجماً وأكثفها جرماً ، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر .

لطيفة

قال في (الإكليل) : استدلل بقوله تعالى (أَبْصِرْ بِهِ وَاسْمِعْ) المنتخب على جواز إطلاق صيغة التعجب في صفات الله تعالى ، كقولك : ما أعظم الله وما أجله . انتهى . يعني

أن يشتق من الصفات السمعية صيغة التعجب قياساً على ما في الآية . وقد يقال بالوقف .
ينبغي التأمل .

وقوله تعالى « مَا لَهُمْ » أى أهل السموات والأرض في خلقه « مَن دُونِهِ » مِن وَلِيٍّ
أى يقول أمورهم « وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ » أى قضائه « أَحَدًا » أى من مكوناته العلوية
والسفلية . بل هو المنفرد بالحكم والقضاء فيهم ، وتديرهم وتصريفهم ، فيما شاء وأحب .
قال المهايى : فيه إشارة إلى أن علمهم بهم إما من قبيل الغيب ، فهو مختص بالله . أو من
قبيل المسموع ، فهو أسمع . أو من قبيل البصر ، فهو أبصر . انتهى . وهو لطيف جداً . وقوله تعالى :
القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَأَنزَلْنَا مَا أَوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ
وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا)

« وَأَنزَلْنَا مَا أَوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ » أى بتبليغ ما فيه . ومنه ما أوحى إليك
من نبا الفتية ، فإنه الحق الذى لا يحتاج معه إلى استفتاء فيه .

قال القاشانى : يجوز أن تكون (من) لابتداء الغاية . و (الكتاب) هو اللوح الأول
المشتمل على كل العلوم الذى منه أوحى إلى من أوحى إليه ، وأن تكون بياناً لما أوحى
« لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ » أى لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل .

قال القاشانى : (كلماته) التى هى أصول التوحيد والعدل وأنواعهما .

وقصده دفع ما يرد من وقوع نسخ بعض الشرائع السابقة باللاحقة وتبديلها بها .
فأشار إلى أن النسخ إنما هو في الفروع لا الأصول .

والأظهر في معنى الآية ؛ أنه لا أحد سواه يبدل حكمه كقوله ^(١) (لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)
وأما هو سبحانه فهو فعال لما يريد « وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا » أى ملجأ .

(١) [١٣ / الرعد / ٤١] .

وزهب ابن جرير^(١) في تفسير هذه الآية مذهباً دقيقاً قال : يقول تعالى لنبيه واتبع ما أنزل إليك من كتاب ربك هذا ، ولا تتركن تلاوته واتباع ما فيه من أمر الله ونهيه والعمل بحلاله وحرامه ، فتكون من الهالكين . وذلك أن مصير من خالفه وترك اتباعه يوم القيامة ، إلى جهنم (لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ) يقول لامغير لما أوعد بكلماته التي أنزلها عليك ، أهل معاصيه والعاملين بخلاف هذا الكتاب الذي أوحيناها إليك . وقوله (وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً) يقول وإن أنت لم تقل ما أوحى إليك من كتاب ربك فتبعه وتأتم به ، فنالك وعيد الله الذي أوعد فيه المخالفين حدوده ، لن تجد من دون الله مؤثلاً تثل إليه ، ومعدلاً تعدل عنه إليه . لأن قدرة الله محيطه بك وبجميع خلقه ، لا يقدر أحد منهم على الهرب من أمرٍ أراد به . انتهى .

تنبيه :

لهؤلاء الفتية أصحاب الكهف ذكر في تواريخ المسيحيين ، وعيد سنوي يقام تذكراً لهم ، في اليوم السابع والعشرين من شهر تموز . لكونهم اضطهدوا من قبل الأمراء اليونانيين ، لإيمانهم بالله تعالى وحده ودخولهم في الملة المسيحية ورفضهم الوثنية التي كانت عليها اليونان . وقد رأيت في كتاب (الكنز الثمين في أخبار القديسين) ترجمة عن أحوالهم واسعة تحت عنوان (فيما يخص السبعة القديسين الشهداء الذين من أفسس) تقتطف منها ما يأتي ، دحضاً لدعوى من يفترى أن نبأهم لا يعرف أصلاً ، كما قرأته في بعض كتب الملحدين .

قال صاحب الترجمة : هؤلاء الشهداء السبعة كانوا إخوة بالجسد . وأسمائهم : مكسيميانوس ومارخوس . ومرتينيانوس . وديونيسيوس . ويوحنا . وسارابيون . ثم قسطنطين . هؤلاء الشبان قربوا حياتهم ضحية من أجل الإيمان بالمسيح ، بالقرب من مدينة أفسس ، نحو سنة (٢٥٢) مسيحية . في زمن الاضطهاد القاسي الذي صنعه ضد المسيحيين ، الملك داكيوس .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٣ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وقد أجّلهم المسيحيون كشهداء حقيقيين . فيقام لهم في الكنائس مدائح تشر فيها صفاتهم الفاضلة يوم استشهدوا ثمّة ، في اليوم الرابع من شهر آب ، المختص بتذكّار الأنجوبة التي بواسطتها قد ظهرت أجسادهم المقدسة في المغارة القريبة من مدينة أفسس .

ثم قال : وأما نوع استشهداؤهم فليس بمعروف . لأن أعمالهم الجهادية في سبيل الإيمان لم توجد مدوّنة في التواريخ الكنائسية الدقيقة . بل إن المؤكّد عنهم أن استشهدوا كان في زمن الملك داكْيوس ، حذاء مدينة أفسس . حيث وجدت فيما بعد أجسادهم في مغارة ليست بعيدة من أهل هذه المدينة .

ثم قال : فالبعض من الكتبة الكنائسيين يرتوون بأنه لما اختفى هؤلاء الفتية في تلك المغارة هرباً من الاضطهاد ، عرف أمرهم فأغلق عليهم باب المغارة بصخور عظيمة . وهكذا ماتوا فيها . وغيرهم يروون أنهم قتلوا من أجل الإيمان في مدينة أفسس . وبعد موتهم نقلت أجسادهم ودفنت في المغارة المذكورة . وآخرون يظنون أنهم حبسوا أنفسهم أحياء باختبائهم في المغارة المذكورة ، ليموتوا برضاؤهم ، هرباً من خطر أنواع العذاب القاسية التي كان يتكبدها المسيحيون في ذاك الاضطهاد الوحشيّ .

ثم قال : فكيفما كان نوع استشهد هؤلاء السبعة ، فقد تحقّق أن الله أراد أن يكرمهم بإظهار أجسادهم بواسطة رؤيا سماوية . وذلك في ٤ آب سنة ٤٤٧ في زمن ولاية الملك (ثاؤوسيوش الصغير) .

ثم قال : ودرج على أفواه الشعوب ؛ أن هؤلاء الفتية ، بعد أن أغلق عليهم باب المغارة بأمر داكْيوس الملك ، لم يموتوا ضمنها ، لاموتاً طبيعياً ولا قسريّاً . بل رقدوا رقاد النوم مدة ، نحو مائتي سنة . ثم نهضوا من نومهم الطبيعيّ سنة (٤٤٧) .

ثم قال : وقد ذهب بعض المؤرخين إلى تأويل ما روى من رقادهم الطويل ، بأنه لما ظهرت أجسادهم سالمة من البلى ، بعد أن دفنوا في ذلك الغار أحياء أو أمواتاً ، بواسطة خارقة ما ،

وتقلت من مدفهم الذى كانوا فيه ، اعتبرت تلك الأجساد كأنها صودفت مستيقظة من نوم لذيذ كانت راقدة فيه . إلا أن الذى يبطل هذا التأويل ما نقله بعدُ عن القنداق ، من أنهم نهضوا بعد أن رقدوا عدة من السنين وانتصروا على ضلال أولئك الوثنيين . وبظهورهم كذلك أيدوا حقية إيمانهم ووطدوا المؤمنين فى رجاء القيامة فى الحياة الأبدية .

هذا ما اقتطفناه من كتاب (الكنز الثمين) وبه تعلم ما لدى أهل الكتاب المسيحيين من الاختلاف فيهم ، الذى أشار له القرآن الكريم . وقد جاء فى (تاريخ الكنيسة) : إن أقوال وأعمال الشهداء فى المسيحية لم ينقل منها إلا القليل . لأن أكثرها أحرق بالنار مدة مدة العشر سنوات . من سنة (٢٩٣ إلى ٣٠٣) وإن من القرن الثامن فصاعداً ، اعتنى الروم واللاتيون بجمع حياة الشهداء الأولين . غير أن الأكثر حذاقة ، حتى الذين فى حضن الكنيسة الرومانية ، يسلمون الآن بأن أكثر الأخبار أحاديث ملفقة ، غراماً بالبلاغة . وجداول القديسين المسماة (أقوال الشهداء) ليست بأكثر ثقة . التى ألفها أناس جهلاء غير قادرين ، أو دخلها منذئذ كاذب . فهذا القسم من تاريخ الكنيسة إذ ذاك مظلم خال من النور . انتهى كلامه بالحرف .

وفيه ميل إلى النصفة من عدم الثقة بما لديهم من هذا الخلاف الذى حسم مادته ، واقتلمه من جذوره ، القرآن الكريم .

قال الحافظ ابن كثير عند قوله تعالى^(١) (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ) الآية الآتية ، معتذراً عما نقله ، ما مثاله : روى فى هذا آثار كثيرة عن السلف . وغالبها من الإسرائيليات التى تنقل لينظر فيها . والله أعلم بحال كثير منها . ومنها ما قد يقطع بكذبه ، لمخالفته للحق الذى بأيدينا . وفى القرآن غنية عن كل ما عدها من الأخبار المتقدمة . لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة وتقصان . وقد وضع فيها أشياء كثيرة . وليس لهم من الحفاظ المتقين الذين ينفون عنها

(١) [١٨ / الكهف / ٥٠] .

تحريف الغالين وانتحال المبطلين . كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء ، والسادة والأتقياء ،
والجهابذة النقاد ، والحفاظ الذى دونوا الحديث وحرروه ، وبَيَّنوا صحيحه من حسنه ومنكره
وموضوعه ومتروكه . وعرفوا الوضّاعين والكذابين والمجهولين من أصناف الرجال . كل ذلك
صيانة للجناب النبوى والمقام الحمدى خاتم الرسل وسيد البشر ، أن ينسب إليه كذب
أو يحدث عنه بما ليس منه . فرضى الله عنهم وأرضاهم . وجعل جنات الفردوس مأواهم .
وقد فعل . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُمْ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ
مَنْ أَغْفَلَنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

« وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ » أى احبسها وثبتها « مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ »
أى مع أصحابك الذين يذكرونه سبحانه طرفى النهار ، بملازمة الصلاة فيهما « يُرِيدُونَ
وَجْهَهُمْ » أى ذاته طلباً لمرضاته وطاعته ، لا عرضاً من أعراض الدنيا « وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ
عَنْهُمْ » أى لا تجاوز نظرك إلى غيرهم بالإعراض عنهم « تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا »
أى تطلب مجالسة الأشراف والأغنياء تألفاً لقلوبهم « وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلَنا قَلْبَهُ عَنْ
ذِكْرِنَا » أى جعلناه غافلاً لبطلان استعداده للذكر بالمرة . أو وجدناه غافلاً عنه . وذلك
لثلاث يؤدبك إلى الغفلة عنه « وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا » أى متروكا متهاونا به
مضيئاً . أو ندماً أو سرفاً . وفى التعبير عن المأمور بالصبر معهم والمنهى عن إطاعتهم ،
بالموصول ، للإيدان بعملية ما فى حيز الصلة .

قال ابن جرير ^(١) : إن قوماً من أشراف المشركين رأوا النبي ﷺ جالساً مع خباب

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٥ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وصهيب وبلال . فسألوه أن يُقيمهم عنه إذا حضروا . وفي رواية ابن زيد^(١) : أنهم قالوا له صلوات الله عليه : إنا نستحي أن نجالس فلاناً وفلاناً وفلاناً ، فجانبهم وجالس أشراف العرب ، فنزلت الآية (وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ) . وروى مسلم^(٢) عن سعد بن أبي وقاص قال : كنا مع النبي ﷺ ستة نفر . فقال المشركون للنبي ﷺ : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا . قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان (نسيت اسميهما) فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع . فحدث نفسه . فأنزل الله عز وجل (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) الآية .

قال ابن كثير : انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِنْ يَسْتَعِثُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ، بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا)

« وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ » أى جاء الحق وهو ما أوحى إلى الله تعالى « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ » إمّا من تمام القول المأمور به ، والفاء لترتب ما بعدها على ما قبلها ، بطريق التهديد . أى عقيب تحقق أن ما أوحى إلى حق لا ريب فيه ، وأن ذلك الحق من جهة ربكم . فمن شاء أن يؤمن به ، فليؤمن من كسائر المؤمنين . ولا يتعلل بما لا يكاد يصلح للتعلل . ومن شاء أن يكفر به فليكفر . وفيه من التهديد وإظهار الاستغناء عن متابعتهم ، وعدم المبالاة بهم وبياعانهم ، وجوداً وعدماً - ما لا يخفى . وإمّا تهديد من جهة الله تعالى ،

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٤ من الجزء الخامس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٤٦٥ و ٤٦٠ (طبعتنا) .

والفاء لترتيب ما بعدها من التهديد على الأمر . والمعنى : قل لهم ذلك . وبعد ذلك من شاء أن يؤمن به أو أن يصدقك فيه فليؤمن . ومن شاء أن يكفر به أو يكذبك فيه فليعمل . أفاده أبو السعود . وفي (العناية) : الأمر والتخيير ليس على حقيقته . فهو مجاز عن عدم المبالاة والاعتناء به . والأمر بالكفر غير مراد . فهو استعارة للخذلان والتخلية ، بتشبيه حال من هو كذلك بحال المأمور بالمخالفة . ووجه الشبه عدم المبالاة والاعتناء به فيهما . وهذا كقوله ^(١) (أَسِئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةً) وهذا رد عليهم في دعائهم إلى طرد الفقراء المؤمنين ليجالسوه ويتبعوه . فقيل لهم : إيمانكم إنما يعود نفعه عليكم ، فلا نبالي به حتى نطردكم لذلك ، بعد ما تبين الحق وظهر . وقوله تعالى : « إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا » وعيد شديد ، وتأكيده للتهديد وتعليل لما يفيد من الزجر عن الكفر . أو لما يفهم من ظاهر التخيير ، من عدم المبالاة بكفرهم وقلة الاهتمام بزجرهم عنه . فإن إعداد جزائه من دواعي الإملاء والإمهال . وعلى الوجه الأول ، هو تعليل للأمر بما ذكر من التخيير التهديدي . أي قل لهم ذلك (إنا أعتدنا للظالمين) أي هيأنا للكافرين بالحق ، بعد ما جاء من الله سبحانه . والتعبير عنهم (الظالمين) للتنبيه على أن مشيئة الكفر واختياره ، تجاوز عن الحد ووضع للشئ في غير موضعه . أفاده أبو السعود . وقوله تعالى « أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا » أي فسطاطها . وهي الخيمة . شبه به ما يحيط بهم من النار . فإن انتشار لهب النار في الجهات شبيه بالسرادق . ويطلق السرادق على الحظيرة حول الفسطاط لمنع من الوصول إليه . شبه ما يحيط بهم من جهنم ، بها . يقال بيت مسردق ، ذو سرادق « وَإِنْ يَسْتَفْهِمُوا » أي من الظلمة لا حترق أفتدتهم « يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَأَلْمُهْلٍ » أي كالحديد المذاب وكعكر الزيت ، وقال القاشاني : من جنس الفساق والغسلين ، أي المياه المتعفنة التي تسيل من أبدان أهل النار ، مسودة يغاثون بها . أو غسالاتهم القذرة . ويؤيده قوله تعالى ^(٢) (وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ) « يَشْوَى أَلْوُجُوهَ » أي إذا قدم إليه ليشرب ، من فرط حرارته .

(١) البيت لكثير عزة . وعجزه : لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنَّ تَقَلَّتْ (٢) [١٤/إبراهيم/١٧]

« وَسَاءَتْ » أى النار « مُرْتَفَقًا » أى متكأً . وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد . وذكره لمشاكلة قوله (وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا) وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا اتكاء . وقد يكون تهكماً ، كقوله (١) .

إِنِّي أَرِقتُ فَبْتُ اللَّيْلَ مُرْتَفَقًا كَانَ عَيْنِي فِيهَا صَابٌ مَذْبُوحٌ
والصاب : شجر مرمر يحرق ماؤه العين . ومذبوح : مشقوق . وفى كتاب (تنزيل الآيات) فى الصحاح : بات فلان مرتفقاً ، أى متكئاً على مرفق يده . وهو هيئة التحزين المتحسرين . فعلى هذا لا يكون من المشاكلة ولالتهمك ، بل هو على حقيقته . كما يكون للتنعم يكون للتحزن . وتعقبه فى (العناية) فقال : وأما وضع اليد تحت الخد للتحزن والتحسر ، فالظاهر أن العذاب يشغلهم عنه . فلا يتأتى منهم حتى يكون هذا حقيقة لا مشاكلة ، فلذا لم يعرجوا عليه . ثم علل الحث على الإيمان المفهوم من التخيير المتقدم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (إِنِّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا)

[٣١] (أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ

مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ، نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا)

« إِنِّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ

(١) البيت لأبى هذيل الهذلى . وهو فى اللسان فى مادة (ص و ب) .

وروايته هناك (مشتجراً) بدل (مرتفقاً) .

وفى الديوان ١/ ١٠٤ (نام الخلى) عوضاً عن (إِنِّي أَرِقتُ) .

ثِيَابًا خُضْرًا مِّنْ سُنْدُسٍ « وهو ما رَقَّ من الديباج » وَإِسْتَبْرَقٍ « وهو ما كَثَفَ منه » مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ « أى السرر على هيئة المتنعمين » نِعْمَ الثَّوَابُ « أى الجنات المذكورة » وَحَسَنَتْ مَرْفَقًا « أى متسكاً . وقيل المرتفق المنزل والمستقر ، لآية (١) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » وآية (٢) حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَخَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا)

« وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا » أى للمؤمن والكافر « رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَخَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ » وهى أعز ما يؤثـره أولئك فى تأزير كرومهم بالأشجار « وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا » أى بين الجنتين ، أو بين النخيل والأعناب « زَرْعًا » أى فـصل بينهما الفواكه والأقوات ، فكانتا منشأ الثروة والجاه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْهُمَا كَلِمَاتُ الْأَكْثَرِ ، فَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا)
« كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْهُمَا كَلِمَاتُ الْأَكْثَرِ » أى ثمرها كلمة « وَلَمْ تَظْلِمِ » أى لم تنقص « مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا » أى يسقى الأشجار والزرع ، ويزيد فى بهجة مراحها ، تـتمـيـاً لحسنهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا)
وَأَعَزُّ نَفَرًا)

« وَكَانَ لَهُ » أى لصاحب الجنتين « ثَمَرٌ » أى أنواع من المال غير الجنتين . من

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٦] . (٢) [٢٥ / الفرقان / ٧٦] .

(ثَمَرَ مَالِهِ) إِذَا كَثُرَ « فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ » أَيْ يَرَاجِعُهُ الْكَلَامَ، تَعْيِيرًا لَهُ بِالْفَقْرِ ، وَنَفَرًا عَلَيْهِ بِالْمَالِ وَالْجَاهِ « أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا » أَيْ أَنْصَارًا وَحُشْمًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا)

« وَدَخَلَ جَنَّتَهُ » أَيْ بِصَاحِبِهِ يَطُوفُ بِهِ فِيهَا وَيُفَاخِرُ بِهَا . كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ وَمَحَاوِرَتُهُ لَهُ . وَإِفْرَادُ الْجَنَّةِ هُنَا مَعَ أَنْ لَهُ جَنَّتَيْنِ كَمَا مَرَّ ، إِمَّا لِعَدَمِ تَعَلُّقِ الْغُرُضِ بِتَعَدُّدِهَا ، وَإِمَّا لِاتِّصَالِ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى ، وَإِمَّا لِأَنَّ الدَّخُولَ يَكُونُ فِي وَاحِدَةٍ فَوَاحِدَةٍ . وَقِيلَ : الْإِضَافَةُ تَأْتِي لِمَعْنَى اللَّامِ . فَالْمُرَادُ بِهَا الْعُمُومُ وَالِاسْتِفْرَاقُ . أَيْ كُلُّ مَا هُوَ جَنَّةٌ لَهُ يَتَمَتَّعُ بِهَا . فَيُفِيدُ مَا أَفَادَتِهِ التَّثْنِيَّةُ مَعَ زِيَادَةٍ . وَهِيَ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّهُ لَا جَنَّةَ لَهُ غَيْرَ هَذِهِ « وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ » أَيْ بِمَا يُوْجِبُ سَلْبَ النِّعْمَةِ ، وَهُوَ الْكُفْرُ وَالْعِجْبُ . وَفِي (الْعِنَايَةِ) ظَلُمُهُ لَهَا إِمَّا بِمَعْنَى تَنْقِصِهَا وَضَرَرِهَا ، لَتَعْرِيزِ نِعْمَتِهِ لِلزَّوَالِ وَنَفْسِهِ لِلْهَلَاكِ ، أَوْ بِمَعْنَى وَضْعِ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ . لِأَنَّ مَقْتَضَى مَا شَاهَدَهُ التَّوَاضُّعَ الْمُسْكِي ، لَا الْعِجْبُ بِهَا وَظَنُّهَا أَنَّهَا لَا تَبِيدُ أَبَدًا . وَالْكَفْرُ بِإِنْكَارِ الْبَعْثِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ « قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ » أَيْ تَهْلِكَ وَتَفْنَى « هَذِهِ » أَيْ الْجَنَّةُ « أَبَدًا » لِعَقْدَانِهِ أَبَدِيَةِ الدَّهْرِ ، وَأَنْ لَا كُونَ سِوَى مَا تَقَعُ عَلَيْهِ مَشَاعِرُهُ . وَلِذَا قَالَ :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا)

« وََمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً » أَيْ كَائِنَةُ آتِيَةٍ ، وَقَوْلُهُ « وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا » إِقْسَامٌ مِنْهُ عَلَى أَنَّهُ ، إِنْ رَدَّ إِلَىٰ رَبِّهِ ، عَلَى سَبِيلِ الْفَرَضِ وَالتَّقْدِيرِ ، كَمَا يَزْعُمُ صَاحِبُهُ ، لَيَجِدَنَّ فِي الْآخِرَةِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِهِ فِي الدُّنْيَا ، تَطْمَعًا وَتَمَنِيًّا عَلَى اللَّهِ ، وَادْعَاءَ لِكِرَامَتِهِ عَلَيْهِ وَمَكَانَتِهِ عِنْدَهُ . وَإِنَّهُ مَا أَوْلَاهُ الْجَنَّتَيْنِ إِلَّا لِاسْتِحْقَاقِهِ وَاسْتِثْنَائِهِ .

وأن معه هذا الاستحقاق أينما توجه . كقوله ^(١) : (إِنَّ لِي عِنْدَهُوَّ لِلْحُسْنَىٰ) ^(٢)) (لَا وَتَيْنَ مَالًا وَوَلَدًا) و (مُنْقَلَبًا) أى مرجعاً وعاقبة . أفاده الزمخشري .

قال المهايى : فكفر بالقول بقدوم العالم ونفى حشر الأجساد واعتقد عكس الجزاء إذ قال (لَا جِدْنَ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) والقول بقدوم العالم ينفي اختيار الصانع وإرادته . ويإنكار حشر الأجساد ينفي قدرته على الإعادة . وبعكس الجزاء ينفي الحكمة الإلهية . ثم بين تعالى ماأجابه به صاحبه المؤمن ، واعظاً له ، وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاعتزاز ، بقوله :
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (قَالَ لَهُوَّ صَاحِبُهُوَّ وَهُوَ يُحَاوِرُهُوَّ أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا)

« قَالَ لَهُوَّ صَاحِبُهُوَّ » أى الذى عيّره بالفقر ، تعبيراً له على كفره « وَهُوَ يُحَاوِرُهُوَّ » أى يراجعه كلام التعبير على الكفر ، محاورته كلام التعبير على الفقر ، فى ضمن النكر عليه « أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ » أى يجعل التراب نباتاً ثم جعله غذاء يقول منه النطفة « ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا » أى عدّك وملكك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال . قال أبو السعود : والتعبير عنه تعالى بالموصول ، للإشعار بعليّة ما فى حيز الصلة ، لإنكار الكفر . والتلويح بدليل البعث الذى نطق به قوله تعالى عز من قائل ^(٣) : (يَسْأَلُهَا النَّاسُ)
إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ (الآية ، وكما قال تعالى ^(٤))
(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ) الآية . قال ابن كثير : أى كيف تبحدون ربكم ، ودلالته عليكم ظاهرة جليلة ، كل أحد يعلمها من نفسه . فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوماً ثم وجد . وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شيء

(١) [٥١ / فصلت / ٥٠] . (٢) [١٩ / مريم / ٧٧] .

(٣) [٢٢ / الحج / ٥] . (٤) [٢ / البقرة / ٢٨] .

من المخلوقات ، لأنه بمثابة . فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه ، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء . .
ولهذا قال صاحبه المؤمن :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا)

« لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا » أى لكن أنا لا أقول بمقاتك ، بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية . ولا أشرك به أحداً معه من العلويات والسفليات . وقد قرأ ابن عامر (لَكِنَّا) بإثبات الألف وصلًا ووقفًا . والباقون بحذفها وصلًا ، وإثباتها وقفًا . فالوقف وفاق . وأصله لكن أنا . وقرئ كذلك فحذفت الهمزة ثم أُدغمت النون في مثلها فصار (لكن) ثم الحق الألف إجراء للوصل مجرى الوقف . لأن الوقف على (أنا) بالألف ، ولأن الألف تدل على أن الأصل (لكن أنا) وبغيرها يلزم الإلباس بينه وبين (لكن) المشددة . قال الزمخشري : ونحوه قول القائل ^(١) :

وَتَرَمِينِي بِالطَّرَفِ أَيْ أَنْتَ مُذْنِبٌ وتقليدني لكنَّ إِيَّاكَ لَا أَقْلِي

أى لكن أنا لا أقليك . ويقرب منه قول الآخر ^(٢) :

وَلَوْ كُنْتَ ضَبِيًّا عَرَفْتَ قَرَابَتِي ولكنَّ زَنْجِيًّا عَظِيمُ الْمَشَافِرِ

أى ولكنك . وقوله تعالى :

(١) الأضداد لابن الأنباري ص ١٦٣ والخزانة ٤/ ٤٩٠ وقال « لم أقف على تتمته

وقائله ، مع أنه مشهور ، قلما خلا منه كتاب نحوي . والله أعلم . »

الحاشية رقم ٣ بالصفحة رقم ١٢٥ من الجزء الأول من تفسير الطبري (طبعة المعارف) .

(٢) أنشد سيبويه في كتابه ٢٨٢/١ .

وقائله الفرزدق .

وأنشد في اللسان في مادة (ش ف ر) وهو هناك : ولكنَّ زَنْجِيًّا ، وحينئذ فلا شاهد فيه .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٣٩] (وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا)

[٤٠] (فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا)

[٤١] (أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُوَ طَلَبًا)

« وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ » أى هلا قلت عند دخولها ذلك . قال الزمخشري . يجوز أن تكون (ما) موصولة مرفوعة المحل ، على أنها خبر مبتدأ محذوف . تقديره (الأمر ما شاء الله) أو شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف بمعنى (أى شئ شاء الله كان) ونظيرها في حذف الجواب (لو) في قوله ^(١) (وَلَوْ أَنَّ قُرْءَنَا سِيرَتْ بِهِ الْجِبَالُ) والمعنى : هلا قلت عند دخولها ، والنظر إلى ما رزقك الله منها ، الأمر ما شاء الله ، اعترافاً بأنها وكل خير فيها ، إنما حصل بمشيئة الله وفضله . وأن أمرها بيده . إن شاء تركها عامرة ، وإن شاء خربها . وقلت « لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » إقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتدير أمرها ، إنما هو بمعونته وتأنيده . إذ لا يقوى أحد في بدنه ولا في ملك يده ، إلا بالله تعالى . والقصد من الجملتين التبرؤ من الحول والقوة ، وإسناد ما أوتيه إلى مشيئة الله وقوته وحده . ثم أشار له صاحبه بأن تعييره إياه بالفقر ، لا يبعد أن ينعكس فيه الأمر ، بقوله « إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا » أى مقداراً قدره الله وحسبه ، وهو الحكم بتدميرها من صواعق وآفات علوية « مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا » أى تراباً أملس لا تثبت فيها قدم ، للاستسها

(١) [١٣ / الرد / ٣١] .

« أَوْ » يهلكها بآفة سفلية من جهة الأرض بأن « يُصْبِحَ مَآوُهَا غَوْرًا » أى غائرًا فى الأرض « فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ وَطَلَبًا » أى حيلة تدرك بها ، بالحفر أو بغيره .

تنبيه :

كل من قوله تعالى (إِنْ تَرَنْ) وقوله (أَنْ يُؤْتَيْنِ) رسم بدون ياء . لأنها من ياءات الزوائد . وأما فى النطق ، فبعض السبعة يشبها وبعضهم يحذفها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ۚ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَىٰ مَا أَتَقَقَّ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا)

« وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ۚ » أى يهلكه فلم يبق له فيها ثمرة . قال الزخشرى : (أحيط به) عبارة عن إهلاكه . وأصله من (من أحاط به العدو) لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه . ثم استعمل فى كل إهلاك ومنه قوله تعالى ^(١) (إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ) .

ومثله قولهم : (أتى عليه) إذا أهلكه . من (أتى عليهم العدو) إذا جاءهم مستعليا عليهم . يعنى إنه استعارة تمثيلية . شبه إهلاك جنتيه بما فيهما ، يهلك قوم بجيش عدو أحاط بهم وأوقع بهم بحيث لم ينج أحد منهم . كما أن (أتى عليهم) بمعنى أهلكهم ، استعارة أيضا ، من إتيان عدو غالب مستعل عليهم بالقهر « فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَىٰ مَا أَتَقَقَّ فِيهَا » أى فعير نفسه أكثر من تعيره صاحبه وتعير صاحبه إياه . قال الزخشرى : تقلب الكفين كناية عن الندم والتحسر . لأن النادم يقلب كفيه ظهراً لبطن . كما كنى عن ذلك بعض الكف ، والسقوط فى اليد . ولأنه فى معنى الندم ، عدى تعديته بـ (على) كأنه قيل فأصبح يندم على ما أتقَّقَ فيها ، أى فى عمارتها . فيكون ظرفاً لغواً . ويجوز كونه ظرفاً مستقراً متعلقه خاص ، وهو حال . أى متحسراً . والتحسر الحزن . وهو أخص من الندم . لأنه

(١) [١٢ / يوسف / ٦٦] .

- كما قال الراغب - الغم على مافات « وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا » أى ساقطة عليها .
و (العروش) جمع عرش وهو ما يصنع ليوضع عليه شئ . فإذا سقط سقط ما عليه . يعنى
أن كرومها المعروشة ، سقطت عروشها على الأرض وسقطت فوقها الكروم ، بحيث قاربت
أن تصير صعيداً زلقاً « وَيَقُولُ » عطف على (يقاب) « يَلْتَمِتْنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا »
أى من الأوثان . وذلك أنه تذكر موعظة أخيه فلم أنه أتى من جهة شركه وطغيانه .
فتمنى لو لم يكن مشركا حتى لا يهلك الله بستانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَلَمْ تَكُنْ لَهُ وَفِيَّةً يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا)
« وَلَمْ تَكُنْ لَهُ وَفِيَّةً » أى منعة وقوم « يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أى يقدر
على نصرته من دون الله ، كما افتخر بهم واستعز على صاحبه « وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا » أى
ممتنعاً بنفسه وقوته عن انتقام الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ، هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا)
« هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ » أى فى ذلك المقام وتلك الحال التى وقع فيها الإهلاك .
(الولاية) بفتح الواو ، أى النصرة لله وحده ، لا يقدر عليها أحد غيره . فالجمله مقرر
ومؤكد لقوله (وَلَمْ تَكُنْ لَهُ وَفِيَّةً يَنْصُرُونَهُ) لأنها بمعناها . أو ينصر فيها أوليائه
المؤمنين على المشركين وينتقم لهم ويشقى صدورهم من أعدائهم ، كما نصر على الكافر صاحبه
المؤمن ، وصدق قوله : (فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا
مِّنَ السَّمَاءِ) ويعضده قوله تعالى : « هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا » أى لأوليائه .
فلا ينقص لمؤمن درجة ، لدنائه فى الدنيا ، ولا يترك لكافر عقوبة لشرفه ، بل يعاقبه بذنبه
ويظهر فضل المؤمن عليه . وقرئ (الولاية) بكسر الواو بمعنى السلطان والملك . أى هنالك

السلطان له والملك . لا يغلب ولا يمتنع منه . أوفى مثل تلك الحال الشديدة يتولى الله ويؤمن به كل مضطر . يعنى أن^(١) (يَلْمِزْنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا) كلمة ألقى إليها فقلها ، جزعاً مما دهاه من شؤم كفره . ولولا ذلك لم يقلها . كقوله تعالى^(٢) : (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ) .

وكقوله إخباراً عن فرعون^(٣) « حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * ءَأَلْسَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) أو (هنالك) إشارة إلى الآخرة . أى فى تلك الدار الولاية لله . كقوله^(٤) : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) ويناسبه قوله^(٥) : (هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا) . و (هنالك) على الأوجه المتقدمة ، خبر مقدم و (الولاية) مبتدأ مؤخر . والوقف على (منتصراً) . وجوز بعضهم كون (هنالك) معمولاً لـ (منتصراً) وإن الوقف عليه . أى على (هنالك) وإن (الولاية لله) جملة من مبتدأ وخبر مستأنفة . أى وما كان منتصراً فى ذلك الوطن الزى حل به عذاب الله . فلم يكن منقذ له منه .

وأقول : هذا الثانى ركيك جداً ، مفكك لرؤوس الآى فى السورة . فإنها قطعت كلها بالاسم المنصوب . وشبهة قائله جوازه عربية . وما كل جازع عربية رقيق الحواشى بلاغة . ولذلك لم يعول عليه الزمخشري ومن تابعه . و (الحق) قرى بالرفع صفة (للولاية) وبالنصب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة المنصوب بمامل مقدر . وبالجر صفة للفظ الجلالة . (عقبا) قرى بسكون القاف وضمها . وهما العاقبة كالمشر والمشر .

تنبيه :

يذكر كثير من المفسرين هنا وجهها فى هذا المثل . وهو أن الرجلين المذكورين فيه

(١) [١٨ / الكهف / ٤٢] . (٢) [٤٠ / غافر / ٨٤] . (٣) [١٠ / يونس / ٩١ و ٩٠] .

(٤) [٤٠ / غافر / ١٦] . (٥) [١٨ / الكهف / ٤٤] .

كانا موجودين ولهما قصة . ولا دليل في ذلك ولا اتجاه . فإن التمثيل بشيء لا يقتضى وجوده . وجوز في هذا المثل أن يكون من باب الاستعارة التمثيلية والتشبيه . وأن يكون المثل مستعاراً للحال الغريبة ، بتقدير (اضرب) مثلاً ، مثل رجلين ، من غير تشبيه واستعارة . وقد عني بأحد الرجلين في التمثيل ، مشركو مكة ، وما كانوا عليه من الفخر بأموالهم والبذخ بخولهم ، وغمط المستضعفين من المؤمنين . وما آل إليه أمر الفريقين ، مما طابق المثل الممثل ، مطابقة طبقت الآفاق . مصداقاً لوعده تعالى ، سيكون الأمر في الآخرة أعلى^(١) (وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) .

ثم أشار تعالى إلى سرعة فناء ما يتمتعون به من الدنيا ، ويختالون به بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَأُضْرِبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا) « وَأُضْرِبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى اذكر لهم ما تشبهه في زهرتها وسرعة زوالها « كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ » أى فالتف بسبيله وتكاثف ، حتى خالط بعضه بعضاً ، فشبّ وحسن وعلاه الزهر والنور والنضرة « فَأَصْبَحَ » أى بعد ذلك الزهو « هَشِيمًا » أى جافاً يابساً مكسوراً « تَذْرُوهُ الرِّيحُ » أى تفرقه وتنسفه ذات اليمين وذات الشمال كأن لم يكن ، وهكذا حال الدنيا وحال مجرميها ، فإن ما نالهم من شرف الحياة كالذى حصل للنبات من شرف النمو . ثم يزولون زوال النبات « وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا » أى على كل من الإنشاء والإفناء كامل القدرة . ولما كان هذا المثل للحياة الدنيا من أبهج المثل وأبدعها ، ضرب كثيراً في التنزيل ، كقوله تعالى في سورة

(١) [١٧ / الإسماء / ٢١] .

يونس^(١) : (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْ مِنْ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ...) الآية . وفي الزمر^(٢) (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ وَجَنَابِ الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ...) الآية . وفي الحديد^(٣) : (أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ مِّنْ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ...) الآية .

ثم بين تعالى شأن ما كانوا يفتخرون من محسنات الدنيا ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا)

« الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وذلك لإعانتها فيها ، ووجود الشرف بهما . ثم أشار إلى أنهما ليسا من أسباب الشرف الأخروي ، إذ لا يحتاج فيها إليهما ، بقوله : « وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » أى والأعمال التى تبقى ثمراتها الأخروية ، من الاعتقادات والأخلاق والعبادات الكاملات ، خير عند ربك من المال والبنين ، فى الجزاء والفائدة . وخير مما يتعلق بهما من الأمل . فإن ما ينال بهما من الآمال الدنيوية ، أمرها إلى الزوال . وما ينال بالباقيات الصالحات من منازل القرب الربانى والنعيم الأبدى ، لا يزول ولا يحول .

لطائف :

(١) تقديم (المال) على (البنين) لعراقته فيما ينيط به من الزينة والإمداد . ولكون الحاجة إليه أمس . ولأنه زينة بدونهم ، من غير عكس .

(١) [١٠ / يونس / ٢٤] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٢١] . (٣) [٥٧ / الحديد / ٢٠] .

(٢) إفراد (الزينة) مع أنها مسندة إلى الاثنين ، لما أنها مصدر في الأصل . أطلق على المفعول مبالغة . كأنها نفس الزينة . وإضافتها إلى الحياة اختصاصية ، لأن زينتها مختصة بها .
(٣) إخراج بقاء الأعمال وصلاحتها ، مخرج الصفات المفروغ عنها ، مع أن حقهما أن يكونا مقصودى الإفادة ، لاسيما في مقابلة إثبات الفناء لما يقابلهما من المال والبنين على طريقة (١)
(مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ) - للإيدان بأن بقاءها أمر محقق لا حاجة إلى بيانه . بل لفظ (الباقيات) اسم لها لا وصف . ولذلك لم يذكر الموصوف . وإنما الذى يحتاج إلى التمرض له خير يتقها .

(٤) تكرير (خير) للإشعار باختلاف حيثيتي الخيرية والمبالغة . كذا يستفاد من أبى السعود ، مع زيادة .

(٥) وقع فى كلام السلف تفسير (الباقيات الصالحات) بالصلوات وأعمال الحج والصدقات والصوم والجهاد والعق و قول (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) والكلام الطيب ، وبغيرها ، مما روى مرفوعاً وموقوفاً . والمرفوع من ذلك كله لم يخرج فى الصحيحين . وكله على طريق التمثيل . وإن اللفظ الكريم يتناولها لكونها من أفراد . ثم أشار تعالى إلى تحذير المشركين من أهوال القيامة ، التى هى الوعد الحق والفيصل الصدق ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا)

« وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ » أى اذ كر يوم نقلعها من أماكنها ونسيّرها فى الجو . كما

يُنْبِئُ عَنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى ^(١) : (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَمْدًا وَهِيَ تَمْرٌ مَرٌّ السَّحَابِ) أَوْ نَسِيرَ أَجْزَاءِهَا بَعْدَ أَنْ نَجْعَلَهَا هَبَاءً مُنْبَثًا « وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً » لِبُرُوزِ مَا تَحْتَ الْجِبَالِ ، أَيْ ظُهُورِهِ ، بِنَسْفِهَا وَبُرُوزِ مَا عِندَ زَوَالِ الْجِبَالِ وَالْكَثْبِ . حَتَّى تَبْدُو لِلْعَيَانِ سَطْحًا مُسْتَوِيًّا ، لَا بِنَاءَ وَلَا شَجَرَ وَلَا مَعْلَمَ وَلَا مَاسُومَ ذَلِكَ « وَحَشَرَ نَفْسُهُمْ » أَيْ جَمَعْنَاهُمْ إِلَى مَوْقِفِ الْحِسَابِ « فَلَمْ نُغَادِرْ » أَيْ تَرَكْ « مِنْهُمْ أَحَدًا » أَيْ لَا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا . كَمَا قَالَ ^(٢) (قُلْ إِنْ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) وَقَالَ ^(٣) (ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَعَرِضْنَا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لِّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا)

« وَعَرِضْنَا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا » أَيْ مُصْطَفَيْنَ مُتَرَتِّبِينَ فِي الْمَوَاقِفِ ، لَا يَحْجُبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، كُلٌّ فِي رَتَبَتِهِ ، قَالَهُ الْقَاسَانِيُّ .

وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ : (صَفًّا) أَيْ غَيْرَ مُتَفَرِّقِينَ وَلَا مُخْتَلَطِينَ . فَلَا تَعْرِضُ فِيهِ لَوْحْدَةِ الصَّفِّ وَتَعَدُّدِهِ .

قَالَ الزَّخَّشِيُّ : شَبَّهَتْ حَالَهُمْ بِحَالِ الْجُنْدِ الْمَعْرُوضِينَ عَلَى السُّلْطَانِ ، مُصْطَفِينَ ظَاهِرِينَ . يَرَى جَمَاعَتَهُمْ كَمَا يَرَى كُلُّ وَاحِدٍ . لَا يَحْجُبُ أَحَدٌ أَحَدًا « لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » أَيْ بِلَا مَالٍ وَلَا بَنِينَ . أَوْ لَقَدْ بَعَثْنَاكُمْ كَمَا أَنْشَأْنَاكُمْ . وَالْكَلَامُ عَلَى إِضْمَارِ الْقَوْلِ . أَيْ وَقَلْنَا . تَقْرِيبًا لِلْمُفَكِّرِينَ لِلْعَمَادِ ، وَتَوْبِيخًا لَهُمْ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ « بَلْ زَعَمْتُمْ » أَيْ يَنْكَارُكُمْ الْبَعْثَ « أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا » أَيْ وَقْتًا لِإِنْجَازِ مَا وَعَدْنَاكُمْ مِنَ الْبَعْثِ

(١) [٢٧ / النمل / ٨٨] . (٢) [٥٦ / الواقعة / ٥٩ و ٥٠] . (٣) [١١ / هود / ١٠٣] .

والنشور والحساب والجزاء . فلم يعملوا لذلك أصلاً ، بل عملوا مايزدادون به افتضاحاً . و (بل) للخروج من قصة إلى أخرى . فالإضراب انتقالي ، لا إبطالي .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)

« وَوُضِعَ الْكِتَابُ » أى صحائف الأعمال بين يدى الله بحضرة الخلائق « فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ » أى خائفين أن يفتضحوا « مِمَّا فِيهِ » أى من أعمالهم السيئة المسطرة « وَيَقُولُونَ يُوَيْلَتَنَا » أى هلكتنا وحسرتنا على ما فرطنا في أعمارنا . قال القاشاني : يدعون الهلكة التى هلكوا بها ، من أثر العقيدة الفاسدة والأعمال السيئة « مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا » أى أى شأن حصل له ، فلا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً إلا ضبطه وحفظه . والاستفهام مجاز عن التعجب في إحصائه كل المعاصي ، وعدة مقاديرها وأوصافها ، وعدم تسامحه في شيء منها .

قال البقاعي عليه الرحمة : إن لام الجر رسمت مفصولة (يعنى في الرسم العثماني) ، إشارة إلى أنهم لشدة الكرب يقفون على بعض الكلمة . وهذا من لطائفه رحمه الله . « وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا » أى مكتوباً في الصحف تفصيلاً ، من خير وشر . كما قال تعالى^(١) (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا) الآية . وقال^(٢) (يُنَبِّئُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَ يُدْعَى بِمَا قَدَّمَ وَآخَرَ) .

« وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » أى فيكتب عليه ما لم يعمله ، أو يزيد في عقابه . ثم أشار

(١) [٣ / آل عمران / ٣٠] . (٢) [٧٥ / القيامة / ١٣] .

تعالى إلى أن الكفر والعصيان مصدره طاعة الشيطان ، وإيثاره على الرحمن . والشيطان أعدى الأعداء وأفسق الفساق . فلا يتولاه إلا من سفه نفسه ، وحاد عن جادة الصواب ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ، بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا)

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ »
 أى العتاة المردة الشياطين « فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » أى خرج عن طاعته « أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ » أى فستبدلونهم بى فتطيعونهم بدل طاعتي ، وهم لكم عدو ييغون بكم الفوائل ويوردونكم المهالك ؟ وهذا تقريع وتوبيخ لمن آثر اتباعه وإطاعته . ولهذا قال تعالى « بئسَ للظَّالِمِينَ » أى الواضعين الشئىء فى غير موضعه « بَدَلًا » بئس البديل من الله إبليس ، لمن استبدله فأطاعه بدل طاعته . قال ابن كثير : وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومصير كل من الفريقين ، السعداء والأشقياء ، فى سورة يس^(١) (وَأَمَّا يَوْمَ يَأْتِيهَا الْمَاجِرُمُونَ) إلى قوله (أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (مَا أَشْهَدُكُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا)

« مَا أَشْهَدُكُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » استئناف مسوق لبيان عدم استحقاق

إبليس وذريته ، للاتخاذ المذكور في أنفسهم ، بعد بيان الصوارف عن ذلك ، من خبائه المحمّد والفسق والعداوة . أى ما أحضرت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ، حين خلقتهما « وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ » أى وما أثمرت بعضهم أيضاً خلق بعض منهم . ونفى الإثهاد كناية عن نفي الاعتصاف بهم والاستعانة على خلق ما ذكر - أبلغ . إذ من لم يشهد فأنى يستعان به ؟ فأنى يصح جعله شريكاً ؟ ولذلك قال سبحانه « وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضْداً » أى وما كنت متخذهم أعواناً لخلق ما ذكر ، بل تفردت بخلق جميع ذلك بغير معين ولا ظهير أى وإذا لم يكونوا عضداً فى الخلق ، فما لكم تتخذونهم شركاء فى العبادة ؟ واستحقاق العبادة من توابع الخالقية . والاشتراك فيه يستلزم الاشتراك فيها . والخالقية منفية عن غيره تعالى ، فينتفى لازمها وهو استحقاق عبادة ذلك الغير ، وهم المصلون ، فلا يكونون أرباباً . وإنما وضع (المضلين) موضع الضمير ، ذمّاً لهم وتسجيلاً عليهم بالإضلال ، وتأكيداً لما سبق من إنكار اتخاذهم أولياء . ونحو هذه الآية قوله تعالى (٢) « قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمْ مِنْ شَرِكٍ وَمَالَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ » الآية . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَوْبِقاً)

« وَيَوْمَ يَقُولُ » أى الحق تعالى « نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ » أى فى دار الدنيا ، أنهم شركاء ليعقذك مما أنتم فيه . يقال لهم ذلك على رؤوس الأشهاد تقريباً وتوبيخاً لهم « فَدَعَوْهُمْ » أى فنادوهم للإعانة ، لبقاء اعتقاد شركهم « فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ » أى فلم

يعينونهم ، لمجزهم عن الجواب ، فضلاً عن الإعانة . وفي إرادته ، مع ظهوره ، تهكم بهم وإيدان بأنهم في الحماقة بحيث لا يفهمونه إلا بالتصريح به « وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ » أى بين الكفار وأهلهم « مَوْبِقًا » أى مهاكاً يشتركون فيه ، وهو النار . أو عداوة هى فى الشدة نفس الهلاك . كقول عمر رضى الله عنه (لا يكن حبك كلفاً ، ولا بغضك تلفاً) ويؤيد هذا قوله تعالى (١) (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَسْكُنُوا لَهُمْ عَزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) قال ابن كثير : وأما إن جعل الضمير فى قوله (بَيْنَهُمْ) عائداً إلى المؤمنين والكافرين كما قال عبد الله بن عمرو (إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به) - فهو كقوله تعالى (٢) (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِنُونَ بِمَا كَفَرُوا) وقال (٣) (يَوْمَئِذٍ يَصَّدَعُونَ) وقال تعالى (٤) (وَأُمْتَرُوا أَلْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) وقال تعالى (٥) (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ ، فزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ) إلى قوله (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا)

« وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ » أى جهنم المحيطة بأنواع الهلاك ووضع المظهر مقام المضمّر تصريحاً بإجرامهم ، وذمّاً لهم بذلك « فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا » أى أيقنوا بأنهم واقعون فيها « وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا » أى معدلاً ينصرفون إليه . إشارة إلى ما يعاجلهم من الهم والحزن ، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه ، عذاب ناجز .

(١) [١٩ / مريم / ٨١ و ٨٢] (٢) [٣٠ / الروم / ١٤] .

(٣) [٣٠ / الروم / ٤٣] . (٤) [٣٦ / يس / ٥٩] .

(٥) [١٠ / يونس / ٢٨ - ٣٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ، وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ » أى نوعنا فى هذا القرآن ، الجامع للمهمات وأنواع السعادات ، لمصلحة الناس ومنفعتهم ، من كل مثل ، ينبه على مراقب السعادات ومهاوى الضلالات لينذروا به « وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا » أى مجادلة وخاصة ومعارضة للحق بالباطل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا)

« وَمَا مَنَعَ النَّاسَ » أى أهل مكة الذين حكيت أباطيلهم وكل من شا كلهم « أَنْ يُؤْمِنُوا » أى من أن يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا الشرك « إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ » أى القرآن والحق الواضح النير « وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ » أى عن الماضى السالفة « إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ » أى طلب إتيانها ، أو انتظار إتيانها ، وهى عذاب الاستئصال « أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا » أى يرونه عياناً ومواجهةً ، وهو عذاب الآخرة . أو أعم . و (القبل) يضمّتين بمعنى العيان كما فى قراءة (قبلا) بكسر القاف وفتح الباء . أو (قبلاً) بمعنى : أنواعاً متنوعة جمع (قبيل) وقرئ بفتحّتين أى مستقبلاً . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، وَيُحْدِثُ الَّذِينَ كَفَرُوا

بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ، وَاتَّخَذُوا ءَايَتِي وَمَا أَنْذَرُوا هُزُوعًا
 « وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ » أى وما نرسلهم ، قبل إنزال
 العذاب ، إلا لتبشّر من آمن بالزنى والكرامة ، وإنذار من كفر بأن تأتية سنة من مضى
 « وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ » كاقتراح الآيات « لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ » أى
 ليزيلوا بالجدال ، الحقّ الثابت عن مقره . وليس ذلك بحاصل لهم . وأصل (الإدحاض)
 إزلاق القدم وإزالتها عن موطئها . فاستعير من زلل القدم المحسوس ، لإزالة الحق المعقول .
 قال الشهاب : ولك أن تقول : فيه تشبيه كلامهم بالوحد المستكره .
 ثم أنشد لنفسه :

أَنَا بَوَحْلٍ لِإِنْكَارِهِ إِنْزِلْ لِقَ أقدامَ هَذِي الْحُجَجِ
 « وَاتَّخَذُوا ءَايَتِي وَمَا أَنْذَرُوا » أى وإنذارهم . أو والذي أنذروا به من العقاب
 « هُزُوعًا » أى استهزاء وسخرية وهو أشدّ التكذيب . وصف بالمصدر مبالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَلَنِيَ مَا قَدَّمَتْ
 يَدَاهُ ، إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ،
 وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا » كناية عن عدم تدبرها
 والاتعاظ بها ، بأبلغ أسلوب « وَلَنِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ » أى ما عمله من الكفر والمعاصى ،
 وصرف ما أنعم به ، إلى غير ما خلقت له ، فلم يتفكر فى عاقبة ذلك « إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ
 أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ » أى جعلنا عليها حجباً وأغطية كثيرة ، كراهة أن يفقهوه ، أى يفقوا
 على كنه ما خلقت النعم من أجله « وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا » أى وجعلنا فيها ثقلاً يمنهم من

استماعه . والجملة تعليل لإعراضهم ونسيانهم ، بأنهم مطبوع على قلوبهم . وذلك لإيثارهم الضلال على الهدى كما قال تعالى^(١) : (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) .
« وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا » أى فلا يكون منهم اعتداء ،
البتة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ،

بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا)

« وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ،
بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا » .

الآيات فى هذا المعنى كثيرة . كقوله تعالى^(٢) : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ » وقوله^(٣) : (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ)
و (رَبُّكَ) مبتدأ و (الْغَفُورُ) خبره وتقديم الوصف بالمغفرة على الرحمة ، لأنه أهم بحسب الحال . إذ المقام مقام بيان تأخير العقوبة عنهم ، بعد استيجابهم لها . كما يعرب عنه قوله عز وجل (لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا) والموعود المذكور هو يوم بدر . أو الفتح المشار إليه فى كثير من الآيات . أو يوم القيامة . والسكل لاحق بهم . و (الموثل) الملبأ والمنجى .
أى ليس لهم عنه محيص ولا مفر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا)

« وَتِلْكَ الْقُرَىٰ » أى قرى عاد وثمود وأضرابهم « أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا »

(١) [٦١ / الصف / ٥] . (٢) [٣٥ / فاطر / ٤٥] . (٣) [١٣ / الرعد / ٦] .

بالكفر والطغيان « وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا » أى وقتاً معيناً لا محيد لهم عنه . وهذا استشهاد على ما فعل بقریش من تعيين الموعد ، ليتنبهوا لذلك ، ولا يقتروا بتأخر العذاب . ثم أشار تعالى إلى نبأ موسى مع الخضر عليهما السلام ، ذلك النبأ الذى تضمن من الفوائد والحكم وأعلام النبوة ، ما لا يحفى على متبصر . كما ستقف على شذرات من ذلك .
فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا)

«وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا» أى اذكر وقت قول موسى لفتاه ، لا أبرح ، أى لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين . أى المكان الذى فيه ملتقى البحرين . فأجد فيه الخضر . أو أسير زماناً طويلاً إن لم أجده ثمة ، فأتيقن فوات المطلب .

قال المہاجمى أى اذكر للذين إن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً ، لتكبرهم عليك ، إنكم لستم بأعلم من موسى ولا أرشد منه . ولست أقل من الخضر فى الهداية بل أعظم . لأنها هداية فى الظاهر والباطن . وهداية الخضر إنما هى فى الباطن ، ولا تحتاجون فى تحصيله إلى تحمل المشاق ، واحتاج إليه موسى . و(الفتى) الشاب . قال الشهاب : العرب تسمى الخادم فتى ، لأن الغالب استخدام من هو فى سن الفتوة . وكان يوشع خادم موسى عليه السلام ومجباله ، وذا غيره على كرامته . ولذلك اختصه موسى رفيقاً له وخادماً . وصار خليفة من بعده على بنى إسرائيل . وفتح عليه تعالى بيت المقدس ونصره على الجبارين .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا)
« فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا » أى البحرين « نَسِيَا حُوتَهُمَا » أى خبر حوتهما ، وتفقدا أمره ، وكانا تزوداه .

« فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ » أى طريقه « فِي الْبَحْرِ سَرَبًا » أى مثل السرب فى الأرض ، واضح المسلك ، معجزة جعلت علامة للمطلوب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنِّي جَدَّ آءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا)
« فَلَمَّا جَاوَزَا » أى جمع بينهما ، وهو المكان الذى نسيا فيه الحوت « قَالَ لِفَتَاهُ إِنِّي جَدَّ آءَنَا » أى ما نتغدى به ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا » أى تعباً ومشقة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا)

« قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ » أى خبر الحوت . وإسناد النسيان إليهما ، أولاً ، إما بمعنى نسيان طلبه ، والذهول عن تفقده ، لعدم الحاجة إليه . وإماللتغليب ، بناءً على أن الناسى إنما كان يوشع وحده . فإنه نسى أن يخبر موسى بشأنه العجيب ، فيكون كقوله تعالى (١) : « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » وإنما يخرج من المالح « وَمَا أَنسِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ » أى لك . و (أن أذكركه) بدل من الهاء فى (أنسانيه) أى وما أنساني ذكره إلا الشيطان . وقد قرأ حفص بضم الهاء من غير صلة وصل ،

والباقون بكسرها « وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا » أى أمراً عَجَبِيًّا ، إذ صار الماء عليه سرباً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ ، فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا)

« قَالَ » أى موسى « ذَلِكَ » أى المكان الذى اتخذه سبيله هرباً « مَا كُنَّا نَبْغُ » أى نطلب فيه الخضر . لأنه أماره المطلوب . وقرئ فى السبع بإثبات الياء بعد الغين ، وصلا لا وقفاً . وإثباتها فى الحالين . وبخذفها كذلك « فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا » أى رجعا ماشيين على آثار أقدامهما يتبعانها « قَصَصًا » أى اتباعاً لثلاثي فوتهما الموضع ثانياً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا)

فوجدَا « أى فأتيا الموضع المنسب فيه الحوت ، فوجدا « عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا » التنكير للتفخيم ، والإضافة فيه للتشريف . والجمهور على أنه الخضر . وسنتكلم على جملة من نبئه ، بعونه تعالى ، بعد تمام القصة « ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا » أى آتيناه رحمة لدنية ، اختصاصنا بها « وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا » أى علماً جليلاً آثرناه . وهو علم لدنى يكون بتأييد ربانى . وسند كره إن شاء الله تعالى حقيقة العلم اللدنى فى آخر هذا النبأ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا)

« قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ » أى أحبك « عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ » أى من لدن ربك « رُشْدًا » أى علماً ذا رشد . أى هدى وإصابة خير .

قال القاضى : وقد راعى فى ذلك غاية التواضع والأدب . فاستجمل نفسه ، واستأذن

أن يكون تابعاً له ، وسأل منه أن يرشده وينعم عليه ، بتعليم بعض ما أنعم الله عليه . أى وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)

[٦٨] (وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا)

« قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا » أى بوجه من الوجوه . ثم علل ممتدراً بقوله « وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا » أى من أمور سترها ، إن صحبتنى ، ظواهرها منا كبر وبواطنها لم يحيط بها خبرك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا)

« قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا » أى لأخالفك فى شىء . قال الزمخشري : رجا موسى عليه السلام ، لحرصه على العلم وازدياده ، أن يستطيع معه صبراً ، بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر . فوعده بالصبر معلقاً بمشيئة الله . علماً منه بشدة الأمر وصعوبته ، وإن الحمية التى تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شىء لا يطاق . هذا مع علمه أن النبى المعصوم ، الذى أمره الله بالمسافرة إليه واتباعه واقتباسه العلم منه ، برىء من أن يباشر ما فيه غمزة فى الدين . وأنه لابد ، لما يستسمع ظاهره ، من باطن حسن جميل . فكيف إذا لم يعلم ؟ انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (قَالَ فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا)

« قَالَ فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا » أى لا تفاتحنى بالسؤال عن شيء أنكرته منى ، ولم تعلم وجه صحته ، حتى أبتدئك ببيانه . وهذا من آداب المتعلم مع العالم والمتبوع مع التابع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكَبَا فِي الْسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا

لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا)

« فَأَنْطَلَقَا » أى على ساحل البحر يطلبان سفينة « حَتَّىٰ إِذَا رَكَبَا فِي الْسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا » أى عظيمًا من إتلاف السفينة وقتل الجماعة الكثيرة بغير ذنب ، وكفران نعمة الحمل بغير نول .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)

« قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا » ذكره الخضر بما تقدم من الشرط . يعنى هذا الصنيع فعلته قصدًا . وهو من الأمور التى اشترطت معك أن لا تنكر على فيها . لأنك لم تحط بها خبرا . إذ لها سر لا تعلمه أنت .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (قَالَ لَا تَأْخِذْ بِيَإِذَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا)

« قَالَ » أى موسى « لَا تَأْخِذْ بِيَإِذَا نَسِيتُ » من الشرط . فإن المؤاخذه به تفضى

إلى العسر . والمراد التماس عدم المؤاخذه لقيام المانع وهو النسيان « وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا » أى لا تحمل علىّ من أمرى ، فى تحصيل العلم منك ، عسراً ، لئلا يلجئنى إلى تركه .
أى لا تعسرّ علىّ متابعتك ، بل يسرها علىّ ، بالإغضاء وترك المناقشة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكَرًا)

« فَأَنْطَلَقَا » أى بعد أن خرجا من السفينة إلى الساحل « حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ » قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ « أى أنها لم تقتل نفساً فتقتل . بل هى زكية طاهرة من موجبات القتل « لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكَرًا » أى منكراً . أو أنكر من الأول . لأن ذلك كان خرقاً يمكن تداركه بالسدّ ، وهذا لا سبيل إلى تداركه بوجه ما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)

« قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا » تأكيد فى التذكّار بالشرط الأول . ونكتة زيادة (لَكَ) هو - كما قال الزمخشري - زيادة المكافأة بالعتاب على رفض الوصية ، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية . كما لو أتى إنسان بما نهىته عنه ، فلمته وعنفته ، ثم أتى به مرة أخرى فإنك تزيد فى تعنيفه . قال فى (المثل السائر) : وهذا موضع تدق عن العثور عليه مبادرة النظر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي ، قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا)

« قَالَ » أى موسى « إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا » أى بعد هذه المرة « فَلَا تُصَحِّبْنِي »

قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا « أى وجدت من جهتي عذراً . إذ أعذرت إلى مرة بعد مرة ،
نخالفتك ثلاث مرات ، بتمتضي طبع الاستعجال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَيْتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا)
« فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَيْتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ » اختلف في تسميتها .

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : الخلاف فيها كالخلاف في مجمع البحرين . ولا يوثق بشيء منه « اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا » أى امتنعوا من أن يطعموها الطعام الذى هو أحق ضيافتهما عليهم . وقرئ (يُضَيِّفُوهُمَا) من الإضافة . يقال : ضافه إذا نزل به ، وأضافه وضيَّفه : أنزله ليطعمه في منزله ، على وجه الإكرام « فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ » أى ينهدم بقرب . من (انقض الطائر) إذا أسرع سقوطه . والإرادة مستعارة للمدانة والمشاركة . لما فيهما من الميل . استعارة تصريحية أو مكنية وتخييلية ، أو هي مجاز لغوى مرسل بعلاقة سبب الإرادة ، لقرب الوقوع .

وقد أوسع الزمخشري ، عليه الرحمة من الشواهد على مثل هذا المجاز . فانظره « فَأَقَامَهُ » أى عمره وأصلحه . « قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا » أى لو طلبت على عملك جملاً حتى تنتمش به . ففيه لوم على ترك الأجرة ، مع مسيس الحاجة إليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ، سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)
« قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ » الإشارة إلى الفراق الموعود بقوله (فَلَا تُصَاحِبْنِي)
أو إلى الاعتراض الثالث . أو إلى الوقت الحاضر . « سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ

صَبْرًا « أى بآل ما لم تصبر على ظاهره ، وبماقبتة . وهو خلاص السفينة من اليد العادية ، وخلاص أبوى الغلام من شره ، مع الفوز بالبدل الأحسن ، واستخراج اليتيمين للكنز . قال أبو السعود : وفى جعل صلة الموصول عدم استطاعة موسى عليه الصلاة والسلام للصبر ، دون أن يقال (بتأويل ما فعلت) أو (بتأويل ما رأيت) ونحوها ، نوع تعريض به عليه السلام وعتاب . ثم أخذ الخضر فى تفسير ما أشكل أمره على موسى ، وما كان أنكر ظاهره . وقد أظهر الله الخضر ، عليه السلام ، على باطنه . فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا)

« أَمَّا السَّفِينَةُ » أى التى خرقتها « فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ » أى لفقراء يحترفون بالعمل فى البحر ، لنقل الناس من ساحل إلى آخر « فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا » أى إنما خرقتها لأعيبها . لأنهم كانوا يبرون بها على ملك من الظلمة ، يأخذ كل سفينة سليمة جيدة ، غصبًا . فأردت أن أعيبها لأرده عنها ، لعيبها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَأَمَّا الْفُلُومُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا)

[٨١] (فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا)

« وَأَمَّا الْفُلُومُ » أى الذى قتلته « فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا » أى لو تركناه « أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا » أى ينزل بهما طغيانه وكفره ويلحقه بهما . لكونه طبع على ذلك . فيخشى أن يعديهما بدائه « فَأَرَدْنَا » أى بقتله « أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً » أى طهارة عن الكفر والطغيان « وَأَقْرَبَ رُحْمًا » أى رحمة بأبويه ، وبرًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ، ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)
 « وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا » أى قوتهما بالعقل وكمال الرأى « وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا » ليتصرفا فيه « رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ » أى تفضل بها عليهما .
 و (رحمة) مفعول له . أو مصدر مؤكد لـ (أراد) فإن إرادة الخير رحمة « وَمَا فَعَلْتُهُ » أى ما رأيت منى « عَنْ أَمْرِي » أى عن اجتهدى ورأى ، وإنما فعلته بأمر الله تعالى « ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا » أى من الأمور التى رأيتها . أى مآله وعاقبته . قال أبو السعود (ذَلِكَ) إشارة إلى العواقب المنظومة فى سلك البيان . وما فيه من معنى البعد للإيدان يبعد درجتها فى الفخامة . و (تَسْطِعْ) مخفف (تستطع) بحذف التاء .

تنبيهات

فى بعض ما اشتمل عليه هذا النبأ من الأحكام واللطائف والفوائد الساميات :
 الأول - قال السيوطى فى (الإكليل) : فى هذه الآيات أنه لا بأس بالاستخدام واتخاذ الرفيق والخادم فى السفر . واستحباب الرحلة فى طلب العلم . واستزادة العالم من العلم واتخاذ الزاد للسفر ، وأنه لا ينافى التوكل . ونسبة النسيان ، ونحوه من الأمور المكروهة ، إلى الشيطان ، مجازاً وتاديباً عن نسبتها إلى الله تعالى . وتواضع المتعلم لمن يتعلم منه ولو كان دونه فى المرتبة . واعتذار العالم إلى من يريد الأخذ عنه فى عدم تعليمه مما لا يحتمله طبعه . وتقديم الشيئة فى الأمر ، واشتراط المتبوع على التابع . وأنه يلزم الوفاء بالشروط . وأن النسيان غير مؤاخذ به .

وأن (لثلاث) اعتباراً في التكرار ونحوه . وأنه لا بأس بطلب الغريب الطعام والضيافة . وأن صنع الجليل لا يترك ولو مع اللثام . وجواز أخذ الأجر على الأعمال . وأن المسكين لا يخرج عن المسكنة بكونه له سفينة أو آلة يكتسب بها ، أو شيء لا يكتفيه . وأن الغصب حرام . وأنه يجوز إتلاف بمض مال الغير ، أو تعييبه ، لوقاية باقيه ، كمال المودع واليتيم . وإذا تعارض مفسدتان ارتكب الأخف . وأن الولد يحفظ بصلاح أبيه . وأنه تجب عمارة ما يخاف منه ، ويحرم إهمالها إلى أن تخرب . وأنه يجوز دفن المال في الأرض . انتهى .

وقال البيضاوي : ومن فوائد هذه القصة أن لا يعجب المرء بعلمه . ولا يبادر إلى إنكار ما لم يستحسنه ، فاعمل فيه سرّاً لا يعرفه . وأن يداوم على التعلم ، ويتذلل للعلم ، ويراعي الأدب في المقال . وأن ينبه المجرم على جرمه ، ويعفو عنه حتى يتحقق إصراره ، ثم يهاجر عنه . انتهى .

ومن فوائد الآية - كما في (فتح الباري) - استحباب الحرص على لقاء العلماء وتجمّع المشاق في ذلك . وإطلاق (الفتى) على التابع واستخدام الحرّ . وطوعية الخادم لمخدومه . وعذر الناس . وجواز الإخبار بالتعب ، ويلحق به الألم من مرض ونحوه . ومحل ذلك إذا كان على غير سخط من المقدور . ومنها أن المتوجه إلى ربه يعان ، فلا يسرع إليه النصب . وفيها جواز طلب القوت . وطلب الضيافة . وقيام العذر بالمرة الواحدة ، وقيام الحجة بالثانية . وفيها حسن الأدب مع الله وأن لا يضاف إليه ما يستعجن لفظه ، وإن كان الكل بتقديره وخلقه ، لقول الخضر عن السفينة (فأردت أن أعيها) وعن الجدار (فأراد ربك) ومثل هذا قوله ^(١) ﷺ (والخير بيديك والشر ليس إليك) انتهى .

ومن فوائدها إطلاق (القرية) على (المدينة) لقوله : (أَهْلَ قَرْيَةٍ) ثم قوله : (لِنَلْمَنَ يَتَّبِعُنِي فِي الْمَدِينَةِ) .

(١) أخرجه مسلم في ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٢٠١ ، من حديث طويل (طبعنا) .

الثاني - ذكر الناصر في (الانتصاف) : شذرات من لطائف بعض الآي المذكورة .
فناثرها عنه .

قال عليه الرحمة : ورد في الحديث أن موسى عليه السلام لم ينصب ، ولم يقل : لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ، إلا منذ جاوز الموضع الذي حدّه الله تعالى له . فاعمل الحكمة في إنساء يوشع أن يتيقظ موسى عليه السلام ، لئلا يفتن على المسافر في طاعة وطلب علم ، بالتيسير عليه وحمل الأعباء عنه . وتلك سنة الله الجارية في حق من صحت له نية في عبادة من العبادات ، أن ييسرها ، ويحمل عنه مؤنتها ، ويتكفل به مادام على تلك الحالة . وموضع الإيقاظ أنه وجد بين حالة سفره للموعد وحالة مجاوزته ، بونا بيناً ، والله أعلم وإن كان موسى عليه السلام متيقظاً لذلك ، فالمطلوب إيقاظ غيره من أمته ، بل من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، إذا قص عليهم القصة . فإورد الله تعالى قصص أنبيائه ليسمر بها الناس ، ولكن ليسمر الخلق لتدبرها واقتباس أنوارها ومنافعها ، عاجلاً وآجلاً . والله أعلم .

ثم قال عليه الرحمة : وما يدل على أن موسى عليه السلام إنما حمله على المبادرة بالإنكار ، الاتهاب والحمية للحق ، أنه قال حين خرق السفينة (أَخْرَقْتُهَا لِتَغْرُقَ أَهْلَهَا) ، ولم يقل (لتغرقنا) فنسى نفسه واشتغل بغيره ، في الحالة التي كل أحد فيها يقول (نسي نفسي) لا يلوى على مال ولا ولد . وتلك حالة الغرق . فسبحان من جبل أنبياءه وأصفياه على نصيح الخلق والشفقة عليهم والرافة بهم . صلوات الله عليهم أجمعين ، وسلامه .

ثم قال عليه الرحمة على قول الزمخشري (فَإِنْ قُلْتَ قَوْلَهُ : (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) مسبب عن خوف الغضب عليها ، فكان حقه أن يتأخر عن السبب ، فلم قدم عليه ؟) (قلت) النية به التأخير . وإنما قدم للعناية . ولأن خوف الغضب ليس هو السبب وحده ، ولكن مع كونها للمساكين . فكان بمنزلة قولك . (زيد ظني مقيم) .

فقال عليه الرحمة : كأنه جعل السبب في إعابتها كونها لمساكين . ثم بين مناسبة هذا

السبب للمسبب ، بذكر عادة الملك في غضب السفن . وهذا هو حد الترتيب في التعليل أن يرتب الحكم على السبب ، ثم يوضح المناسبة فيما بعد . فلا يحتاج إلى جملة مقدماً ، والنية تأخيرها . والله أعلم .

ثم قال : ولقد تأملت من فصاحة هذه الآي ، والمخالفة بينها في الأسلوب عجبا . ألا تراه في الأولى أسند الفعل إلى ضميره خاصة بقوله : (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) وأسنده في الثانية إلى ضمير الجماعة والمعظم نفسه في قوله : (فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِيَ لَهُمَا رَبُّهُمَا) ، (فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا) ولعل إسناد الأول إلى نفسه خاصة من باب الأدب مع الله تعالى ، لأن المراد (ثم عبت) فتأدب بأن نسب الإغابة إلى نفسه . وأما إسناد الثاني إلى الضمير المذكور فالظاهر أنه من باب قول خواص الملك (أمرنا بكذا أو دبرنا كذا) وإنما يعنون (أمر الملك ودبر) ويدل على ذلك قوله في الثالثة : (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا) فانظر كيف تغايرت هذه الأساليب ، ولم تأت على نمط واحد مكرر ، يحجبها السمع وينبئ عنها ، ثم انطوت هذه المخالفة على رعاية الأسرار المذكورة . فسبحان اللطيف الخبير .

الثالث - قال الخفاجي : في إعادة لفظ (الأهل) هنا ، يعني في قوله تعالى : (اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا) إثر قوله (أَتَيْتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ) سؤال مشهور . وقد نظمها الصلح الصفدي سائلا عنه السبكي في قصيدة منها :

رأيت كتابَ الله أعظم معجزٍ	لأفضل من يهدى به الثقلان
ومن جملة الإعجاز كون اختصاره	بإيجاز ألفاظ وبسط معاني
ولكنني في (الكهف) أبصرت آية	بها الفكر، في طول الزمان عناني
وما هي إلا (استطعما أهلها) فقد	نرى (استطعماهم) مثله ببيان
فما الحكمة الغراء في وضع ظاهر	مكان ضمير ؟ إن ذاك لـِشأن

يعني أنه عدل عن الظاهر بإعادة لفظ (أهل) ولم يقل (استطعماها) لأنه صفة القرية .

أو (استطعمهم) لأنه صفة (أهل) فلا بد له من وجه . وقد أجابوا عنه بأجوبة مطولة نظماً ونثراً . والذي تحرر فيه أنه ذكر (الأهل) أولاً ولم يحذف إيجازاً ، سواء قدر أو تجوز في القرية ، كقوله ^(١) : (وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ) لأن الإتيان ينسب للمكان . نحو (أتيت عرفات) ولمن فيه نحو (أتيت بغداد) فلو لم يذكر كان فيه التباس مغل . فليس ماهنا نظير تلك الآية لأمتناع سؤال نفس القرية ، فلا يستعمل استعملها . وأما (الأهل) الثاني فأعيد لأنه غير الأول . وليست كل معرفة أعيدت عيناً كما بينوه . لأن المراد به بعضهم . إذ سؤالهم فرداً فرداً مستبعد . فلو لم يذكر ، فهم غير المراد . أما لو قيل : (استطعمهم) فظاهر . وأما لو قيل (استطعمها) فإن النسبة إلى محل تفيد الاستيعاب ، كما أثبتوه في محله . وأما إتيان جميع القرية فهو حقيقة في الوصول إلى بعض منها . كما يقال : (زيد في البلد) أو (في الدار) وقيل : إن الأهل أعيد للتأكيد كقوله ^(٢) :

ليت الغراب غداة ينعبُ بيننا كان الغرابُ مقطَّعَ الأوداجِـ

أو لكرهه اجتماع ضميرين متصلين ، لبشاعته واستطالته ، وئمة أجوبة أخرى .

الرابع - أبدى بعضهم سرّاً للتعبير أولاً (بتسطع) ثم أخيراً (بتسطع) بحذف التاء قال : لما أن فسر الخضر لموسى ، وبين له تأويل ما لم يصبر معه ، ووضحه وأزال المشكل ، قال (تسطع) بحذف التاء . وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً . فقال : (سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً) فقابل الأثقل بالأثقل والأخف بالأخف . كما قال ^(٣) : (فَمَا أُسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ) وهو الصعود إلى أعلاه ، (وَمَا أُسْطَعُوا لَهُو نَقَبًا) وهو أشق من ذلك .

(١) [١٢ / يوسف ٨٢] . (٢) قائله جرير . ديوانه ص ٨٩ ، من قصيدة يمدح

الحجاج ، ومطلعها :

هاج الهوى بفؤادك المهتاج فانظر بتوضيح ، باكرُ الأحداجِـ

وفيه هناك (ينعب بالفوى) عوضاً عن (ينعب بيننا) . (٣) [١٨ / الكهف / ٩٧] .

فقابل كلا بما يناسبه لفظاً ومعنى . انتهى .

وقال الشهاب : وإنما خص هذا بالتخفيف لأنه لما تكرر في القصة ناسب تخفيف الأخير منه . وأما كونه للإشارة إلى أنه خف على موسى ﷺ مالم يقه ببيان سببه - فيبعد أنه في الحكاية ، لا المحكي . انتهى .

وما ألفت قول الشهاب في مثله : هذه زهرة لا تحتل هذا الفرق .

الخامس - قال الإمام السبكي رحمه الله : ما فعله الخضر عليه الصلاة والسلام من قتل الغلام لكونه طبع كافراً ، مخصوص به . لأنه أوحى إليه أن يعمل بالباطن ، وخلاف الظاهر الموافق للحكمة . فلا إشكال فيه . وإن علم من الشريعة أنه لا يجوز قتل صغير لاسيما بين أبوين مؤمنين . ولو فرضنا أن الله أطلع بعض أوليائه ، كما أطلع الخضر عليه السلام ، لم يجزله ذلك . وما ورد عن ابن عباس (لما كتب إليه نجدة الحروري : كيف قتله وقد نهى النبي ﷺ عن قتل الولدان ؟ فكتب إليه : إن كنت علمت من حال الولدان ، ما علمه عالم موسى ، فلك أن تقتل) فإنما قصد به ابن عباس المحاجة والإحالة على ما لم يمكن قطعاً ، لطمعه في الاحتجاج بقصة الخضر عليه الصلاة والسلام . وليس مقصوده أنه إن حصل ذلك يجوز . لأنه لا تقتضيه الشريعة . وكيف يقتل بسبب لم يحصل ؟ والمولود لا يوصف بكفر حقيق ولا إيمان حقيق . وقصة الخضر تحمل على أنه كان شرعاً مستقلاً به . وهو نبي . وليس في شريعة موسى أيضاً ، ولذا أنكره . انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : وأما من استدلل به على جواز دفع أغلظ الضررين بأخفهما ، فصحيح . لكن فيما لا يعارض منصوص الشرع . فلا يسوغ الإقدام على قتل النفس ممن يتوقع منه أن يقتل أنفساً كثيرة ، قبل أن يتعاطى شيئاً من ذلك . وإنما فعل الخضر ذلك لإطلاع الله تعالى عليه .

وقال ابن بطال : قول الخضر (وأما الغلام فكان كافراً) هو باعتبار ما يؤول إليه أمره أن لو عاش حتى يبلغ . واستحباب مثل هذا القتل لا يعلمه إلا الله . والله أن يحكم بما يشاء قبل البلوغ وبعده .

أقول : مفاد الآية ، أن إنكار موسى لقتل الغلام لكونه جناية بغير موجب . ولذا قال (بغير نفس) لا لكونه صغيراً لم يبلغ الحنث . لأن الآية لا تفيد . وقد يكون كبيراً . فقد قال اللغويون : الغلام الطائر الشارب ، أو من حين يولد إلى أن يشب ، والكهل أيضاً . ومن الأخير قول موسى في قصة الإسراء عن النبي ^(١) صلى الله عليه وسلم (أبكى لأن غلاماً بعث بعدى) . الخ نعم ربما يشعر بصغره حديث البخاري ^(٢) : وجد غلاماً يلعنون فأخذ غلاماً فذبحه قال موسى : أقتلت نفساً لم تعمل بالحنث . ولكن لانص فيه ، فتأمل .

السادس : أكثر العلماء على أن موسى المذكور في الآية ، هو موسى بن عمران صاحب الآيات الشهيرة وصاحب التوراة . وذهب نوف البكالي - تابعي صدوق ابن امرأة كعب الأبحار أو ابن أخيه - إلى أنه ليس بموسى بن عمران كما في البخاري ^(٣) . ووقع في رواية ابن إسحاق عن سميد بن جبير ، عند (النسائي) قال : كنت عند ابن عباس وعنده قوم من أهل الكتاب ، فقال بعضهم : يا أبا عباس ! إن نوحاً يزعم عن كعب الأبحار أن موسى الذي طلب العلم إنما هو موسى بن منسا . أي ابن إفرائيم بن يوسف عليه السلام . فقال ابن عباس : أسمعت ذلك منه يسميد؟ قلت : نعم . قال : كذب نوف . وفي رواية البخاري : كذب عدو الله . وإنما قال ذلك مبالغة في الإنكار والتنفير من تصديق مقالته .

(١) أخرجه البخاري في : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ٦ - باب ذكر الملائكة ، حديث ١٥١٣ ، عن مالك بن صعصعة . (٢) أخرجه البخاري في : ٣ - كتاب العلم ، ٤٤ - باب ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم ، فيكمل العلم إلى الله ، حديث رقم ٦٤ ، عن أبي بن كعب . (٣) انظر التخريج السابق .

قال الرازي : كان ليوسف ولدان إفرايم . ومنسا . فولد إفرايم نون وولد نون يوشع صاحب موسى وولى عهده بعد وفاته . وأما ولد منسا ، قيل إنه جاءته النبوة قبل موسى بن عمران . ويزعم أهل التوراة أنه هو الذى طلب هذا العلم ليتعلم . والخضر هو الذى خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار ، وموسى بن منسا معه . هذا هو قول جمهور اليهود . واحتج القفال على صحة القول بأنه موسى صاحب التوراة أنه لم يذكر فى القرآن وهو المراد . فإطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف إليه . ولو كان المراد غيره لوجب تعريفه بصفة تميزه وتزيل الاشتباه عنه ، والله أعلم . انتهى .

وأما ابن عباس فكان سنده فى ذلك ، كما فى البخارى^(١) ، ما حدثه به أبى بن كعب ورفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أن موسى سئل هل فى الأرض أحد أعلم منك؟ فقال : لا . أو حدثته نفسه بذلك . فعتب الله عليه . إذ لم يرد العلم إليه . وأراد تعريفه أن من عباده فى الأرض من هو أعلم منه ، لئلا يحتم على ما لا علم له به . وإذا صح أن موسى هو صاحب التوراة ، فيكون المراد بفتاه يوشع . وكان موسى اختصه برفقته لكونه صادقاً فى خدمته ، والغيرة على كرامته ، والحب له . ولذا صار خليفته بعده ، وفتح عليه بيت المقدس ونصر على الجبارين ، كما هو معروف .

السابع : قال الأكثرون : إن صاحب موسى المعبر عنه بقوله تعالى (عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا) هو الخضر . قالوا : سمي بذلك لأنه ما جلس على الأرض إلا اخضرت . وقد صح عن ابن عباس أنه تمارى هو والحمر بن قيس بن حصن الفزارى فى صاحب موسى . فقال ابن عباس : هو خضر ، فرَّ بهما أبى بن كعب . فدعاه ابن عباس فقال : إني تماريت أنا وصاحبى هذا ، فى صاحب موسى الذى سأل السبيل إلى لقيته . فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : بينا موسى فى ملأ من بنى إسرائيل ، إذ جاءه رجل فقال : تعلم مكان أحد أعلم منك؟ قال موسى : لا . فأوحى الله إلى موسى : بلى . عبدنا خضر .

(١) انظر الحاشية رقم ١ بالصفحة السابقة .

فسأل موسى السبيل إلى لقّيه ، فجعل الله له الحوت آية ، وقيل له : إذا فقدت فارجع فإنك ستلقاه . فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر . فقال موسى (ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا) فوجدا خضراً . وكان من شأنهما ما قص الله في كتابه .

الثامن : اختلف أهل العلم في نسب الخضر وفي كونه نبياً وفي طول عمره وبقاء حياته على أقوال كثيرة . فمن قائل بأنه ابن آدم لصلبه أو ابن قاييل أو ابن اليسع ، أو غير ذلك . وكله مما ليس فيه إثارة من علم ، وقد احتج من قال إنه نبي بقوله تعالى (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي) لأن الظاهر من هذا أنه فعله بأمر الله . والأصل عدم الوساطة . وقيل : كان ولياً . وقيل : مقامه دون النبوة وفوق الصّدقيّة فهو مقام برزخي ، له وجه إلى النبوة ووجه إلى الولاية . وقيل : إنه ملك من الملائكة . وأما تعميره فيروى عن ابن عباس أنه أنسى للخضر في أجله حتى يكذب الدجال .

قال النووي في (التهذيب) قال الأكثرون : هو حيّ موجود بين أظهرنا . وذلك متفق عليه بين الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة . وحكاياتهم في رؤيته ، والاجتماع به ، والأخذ عنه ، وسؤاله ، ووجوده في المواضع الشريفة ، أكثر من أن تحصى وأشهر من أن تذكر . وقال البخاري وطائفة من أهل الحديث : إنه مات .

وقال الحافظ أبو الخطاب بن دحية : وأما رواية اجتماعه مع النبي ﷺ وتعزيته لأهل البيت ، فلا يصح من طرقها شيء . ولا يثبت اجتماعه مع أحد من الأنبياء ، إلا مع موسى . وجميع ما ورد في حياته لا يصح منه شيء ، باتفاق أهل النقل . وأما ما جاء من المشايخ فهو مما يتعجب منه . كيف يجوز لعاقل أن يلتقي شيخاً لا يعرفه فيقول له : أنا فلان فيصدقني؟؟ . انتهى كلامه ملخصاً .

وتسك من قال بتعميره بقصة عين الحياة ، واستند إلى ما وقع من ذكرها في صحيح البخاري

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١٨ - سورة الكهف ، ٤ - باب

قوله فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا ، حديث رقم ٦٤ ، عن أبي بن كعب .

وجامع الترمذى . ولكن لم يثبت ذلك مرفوعاً .

وقال أبو حيان فى (تفسيره) : الجمهور على أن الخضر مات . وبه قال ابن أبى الفضل المرسى . لأنه لو كان حيا لزمه الجبى إلى النبى ﷺ والإيمان به واتباعه .

وقد روى عنه ﷺ أنه قال : لو كان موسى حيا ماوسعه إلا اتباعى . وبذلك جزم ابن المناوى وإبراهيم الحربى وأبو طاهر العبادى . ومن جزم بأنه غير موجود الآن ، أبو يعلى الحنبلى وأبو الفضل بن ناصر والقاضى أبو بكر بن العربى ، وأبو بكر بن النقاش وابن الجوزى . واستدل على ذلك بأدلة منها قوله تعالى ^(١) (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ) قال أبو الحسين ابن المناوى : بحثت عن تعمير الخضر ، وهل هو باق أم لا ! فإذا أكثر المغفلين مفترون بأنه باق من أجل ما روى فى ذلك . والأحاديث المرفوعة فى ذلك واهية . والسند إلى أهل الكتاب ساقط لعدم ثقتهم . وخبر مسleme بن مصقلة كالخرافة . وخبر رباح كالرجح . وما عدا ذلك من الأخبار ، كلها واهية الصدر والأعجاز . لا يخلو حالها عن أمرين : إما أن تكون أدخلت على الثقات استغفالا ، أو يكون بعضهم تعمده ذلك . وقد قال تعالى (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ) .

قال صاحب (فتح البيان) : والحق ما ذكرناه عن البخارى وأضرابه فى ذلك . ولا حجة فى قول أحد كائنا من كان إلا الله سبحانه ورسوله ﷺ . ولم يرد فى ذلك نص مقطوع به ، ولا حديث مرفوع إليه ﷺ ، حتى يعتمد عليه ويصار إليه . وظاهر الكتاب والسنة نفي الخلد ، وطول التعمير لأحد من البشر . وهما قاضيان على غيرها ولا يقضى غيرها عليهما . ومن قال إنه نبى أو مرسل أو حتى باق ، لم يأت بحجة نيرة ولا سلطان مبين . وإذا جاء نهر الله بطل نهر مغل ^(٢) . انتهى .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٤] . (٢) منسوب إلى مغل بن يسار بن عبد الله بن معبر

ابن خرق . الخ وهو نهر معروف بالبصرة ، انظر معجم البلدان : المجلد الخامس ص ٣٢٣ (طبعة بيروت) .

وقال تقى الدين بن تيمية عليه الرحمة والرضوان في بعض فتاويه ، في ترى الجن للإنس في بعض البلاد ، مأمثاله : وفيه كثير من الجن وهم رجال الغيب الذين يرون أحياناً في هذه البقاع قال تعالى ^(١) (وَأَنَّهُ وَكَانَ رِجَالًا مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) وكذلك الذين يرون الخضر أحياناً هو جنى^٢ رأوه . وقد رآه غير واحد ممن أعرفه وقال (إننى) وكان ذلك جنياً لبس على المسلمين الذين رأوه . وإلا فالخضر الذى كان مع موسى عليه السلام مات . ولو كان حياً على عهد رسول الله ﷺ ، لوجب عليه أن يأتى إلى النبي ﷺ ويؤمن به ويجاهد معه . فإن الله فرض على كل نبي أدرك محمداً ، أن يؤمن به ويجاهد معه . كما قال الله تعالى ^(٢) (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَا تَبْتُكُمْ مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ وَقَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَأَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) قال ابن عباس رضى الله عنه : لم يبعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق على أمته ؛ لأن بعث محمد^٣ وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه . ولم يذكر أحد من الصحابة أنه رأى الخضر ، ولا أنه أتى إلى النبي ﷺ . فإن الصحابة كانوا أعلم وأجل قدراً ، من أن يلبس الشيطان عليهم . ولكن لبس على كثير من بعدهم . فصار يتمثل لأحدهم في صورة النبي ويقول : أنا الخضر . وإنما هو شيطان . كما أن كثيراً من الناس يرى ميتة خرج ، وجاء إليه ، وكله في أمور ، وقضاء حوائج ، فيظنه الميت نفسه . وإنما هو شيطان . تصور بصور . انتهى .

التاسع - دل قوله تعالى (وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا) ، على أن من العلم علماً غيبياً وهو المسمى بالعلم اللدنى . فالآية أصل فيه . وقد ألف حجة الإسلام الغزالي ، عليه الرحمة ، رسالة في إثبات هذا العلم . رد على من أنكر وجوده . وذكر عليه الرحمة أولاً طرفاً من مراتب العلوم الظاهرية المعروفة . ثم جود الكلام في إثباته . ولا بأس بإيراد شذرة مما قرره فيه . قال

(١) [٧٢ / سورة الجن / ٦] . (٢) [٣ / آل عمران / ٨١] .

قدس سره . أعلم أن العلم الإنسانيّ يحصل من طريقين : أحدهما من التعليم الإنسانيّ والثاني من التعليم الربانيّ . أما الطريق الأول ، وهو التعليم الإنسانيّ ، فطريق معهود مسلوكة محسوس . ويكون على وجهين : أحدهما من خارج وهو التحصيل بالتعلم . والآخر من داخل وهو الاشتغال بالتفكير . والتفكير في الباطن بمنزلة التعلم في الظاهر . فإن التعلم استفادة الشخص من الشخص الجزئيّ . والتفكير استفادة النفس من النفس الكلّيّ . والنفس الكلّيّ أشد تأثيراً وأقوى تعليمياً من جميع العقلاء والعلماء . والعلوم مركوزة في أصل النفوس بالقوة . كالبذر في الأرض والجوهر في قعر البحر ، أو في قلب المعدن . والتعلم هو طلب خروج ذلك الشيء الذي بالقوة إلى الفعل . والتعليم هو إخراجه من القوة إلى الفعل . فنفس المتعلم تتشبه بنفس العالم وتقترب إليه بالنسبة . فالعالم بالإفادة كالزراع . والمتعلم بالاستفادة كالأرض . والعلم الذي هو بالقوة كالبذر . والذي هو بالفعل ، كالنبات . وإذا كملت نفس المتعلم يكون كالشجر المثمر أو كالجوهر الظاهر من قعر البحر . وإذا غلبت القوى البدنية على النفس يحتاج المتعلم إلى زيادة التعلم في طول المدة . ويحمل التعب في طلب الفائدة ، وإذا غلب نور العقل على أوصاف الحسّ يستغنى الطالب بقليل التفكير عن كثير التعلم ، فإن نفس العاقل تجرد من الفوائد بتفكير ساعة ، ما لا تجرد نفس الجاهل بتعلم سنة . فإذا بن بعض الناس يحصلون العلم بالتعلم وبعضهم بالتفكير . ثم قال قدس سره : والطريق الثاني وهو التعليم الربانيّ . وذلك على وجهين : إلقاء الوحي وهو النفس إذا كملت بذاتها تزول عنها دنس الطبيعة ودرن الحرص والأمل . وينفصل نظرها عن شهوات الدنيا وينقطع نسبها عن الأمانات الفانية . وتقبل بوجهها على بارئها ومنشئها . وتمسك بوجود مبدعها . وتعتمد على إفادته وفيض نوره . فالله تعالى بحسن عنايته يقبل على تلك النفس إقبالاً كلياً ، وينظر إليها نظراً إلهياً ، ويتخذ منها لوحاً ، ومن النفس الكلّيّ قلماً وينقش فيها علومه . ويصير العقل الكلّيّ كالعلم والنفس القدسيّ كالمتعلم . فتحصل جميع العلوم لتلك النفس وتنقش فيها جميع الصور

من غير تعلم وتفكر . ومصدق هذا قول الله عز وجل لنبيه ﷺ (١) : (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ) فعلم الأنبياء أشرف مرتبة من جميع علوم الخلائق . لأن محصولة عن الله تعالى بلا واسطة ووسيلة . وبيان هذه الكلمة يوجد في قصة آدم والملائكة عليهم الصلاة والسلام . فإنهم طول عمرهم حصلوا بفنون الطرق كثير العلوم . حتى صاروا أعلم الخلق وأعرف الموجودات . وآدم لما جاء ، ما كان عالماً . لأنه ما تعلم ولا رأى معلماً . فتفادرت الملائكة عليه وتجيروا وتكبروا وقالوا (٢) (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) ونعلم حقائق الأشياء . فرجع آدم إلى باب خالقه وأخرج قلبه عن جملة المكنونات ، وأقبل بالاستعانة على الرب تعالى ، فعلمه الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال (٣) : (أَتُوبُونَ بَأَسْمَاءَ هَؤُلَاءِ) أو صغر حالهم عند آدم وقال علمهم وانكسرت سفينة جبروتهم ، ففرقوا في بحر العجز (٤) : (قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) فقال تعالى (٥) : (يٰٓأَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ) فأنبأهم آدم عن مكنونات العلم ومستترات الأمر . فتقرر الأمر عند العقلاء ؛ أن العلم الغيبي المتولد عن الوحي ، أقوى وأكمل من العلوم المكتسبة . وصار علم الوحي إرث الأنبياء وحق الرسل ، حتى أغلق الله باب الوحي في عهد سيدنا محمد ﷺ . فكان رسول الله خاتم النبيين ، وكان أعلم الناس وأفصح العرب والعجم ، وكان يقول (٦) : (أدبني ربي فأحسن تأديبي) وقال لقومه (٧) : (أنا أعلمكم بالله وأخشاكم لله) وإنما كان علمه أكل وأشرف وأقوى ، لأنه حصل عن التعليم الرباني ، وما اشتغل قط بالتعلم والتعليم الإنساني فقال تعالى (٨) : (عَلَّمَهُ وَشَدِيدُ الْقُوَى) .

- (١) [٤ / النساء / ١١٣] . (٢) [٢ / البقرة / ٣٠] .
 (٣) [٢ / البقرة / ٣١] . (٤) [٢ / البقرة / ٣٢] .
 (٥) [٢ / البقرة / ٣٣] . (٦) قال في (أسنى الطالب) : سنده ضعيف ومعناه صحيح .
 (٧) أخرجه البخاري في : ٦٧ - كتاب النكاح ، ١ - باب الترغيب في النكاح ،
 حديث رقم ٢٠٩٩ ، عن أنس بن مالك . (٨) [٥٣ / النجم / ٥] .

والوجه الثاني - هو الإلهام . والإلهام تنبيه النفس السكلى للنفس الجزئى على قدر صفاته وقبوله وقوته واستعداده . والإلهام أثر الوحي . فإن الوحي هو تصريح الأمر الغيبي . والإلهام هو تعريضه . والعلم الحاصل عن الوحي يسمى علماً نبوياً . والذي عن الإلهام يسمى علماً لدنياً . والعلم الدنى هو الذى لا واسطة فى حصوله بين النفس وبين البارى . وإنما هو كالضوء من سراج الغيب يقع على قلب صاف فارغ لطيف . وذلك أن العلوم كلها محصورة فى جوهر النفس السكلى الأولى الذى هو من الجواهر المفارقة الأولية المحضة ، بالنسبة إلى العقل الأول كنسبة حواء إلى آدم عليهما السلام . وقد تبين أن العقل السكلى أشرف وأكمل وأقوى وأقرب إلى البارى تعالى من النفس السكلى . والنفس السكلى أعز وألطف وأشرف من سائر المخلوقات . فمن إفاضة العقل السكلى يتولد الإلهام . فالوحي حاية الأنبياء ، والإلهام زينة الأولياء . فكما أن النفس دون العقل ، فالوحي دون النبى . وكذلك الإلهام دون الوحي . فهو ضعيف بنسبة الوحي ، قوى بإضافة الرؤيا . والإلهام علم الأنبياء والأولياء . فإن علم الوحي خاص بالرسول موقوف عليهم . كما كان لآدم وموسى وإبراهيم ومحمد وغيرهم من الرسل صلوات الله عليهم . وفرق بين الرسالة والنبوة . فالنبوة هى قبول النفس القدسى حقائق المعلومات والمعقولات عن جوهر العقل الأول . والرسالة تبليغ تلك المعلومات والمعقولات إلى المستفيدين والمتابعين . وربما يتفق القبول لنفس من النفوس ، ولا يتأتى لها التبليغ لعذر من الأعذار وسبب من الأسباب . والعلم الدنى يكون لأهل النبوة والولاية ، كما حصل للخضر عليه السلام حيث أخبر الله تعالى فقال (١) : (وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً) .

ثم قال عليه الرحمة : فإذا أراد الله بعد خيرا رفع الحجاب بين نفسه وبين النفس السكلى الذى هو اللوح . فيظهر فيها أسرار بعض المكنونات . وينتقش فيها معانى تلك المكنونات . فيعبر النفس عنها كما يشاء إلى من يشاء من عباده .

(١) [١٨ الكهف / ٦٥] .

وحقيقة الحكمة تنال من العلم اللدني . وما لم تبلغ النفس هذه الرتبة لا يكون حكيمًا .
لأن الحكمة من مواهب الله تعالى ^(١) : و (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ) من عباده . (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُهُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) وهم الواصلون
مرتبة العلم اللدني ، المستغنون عن كثرة التحصيل وتعب التعلم . فيتعلمون قليلًا ويعلمون
كثيرًا ، ويتعبون يسيرًا ويستريحون طويلًا .

ثم قال عليه الرحمة : اعلم أن العلم اللدني هو سريان نور الإلهام . والإلهام يكون بعد
التسوية . كما قال تعالى ^(٢) : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا) والتسوية تصحيح النفس والرجوع إلى
فطرتها . وهذا الرجوع يكون على ثلاثة أوجه : أحدها - تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ
الأوفر من أكرها . والثاني - الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة . فإن النبي ﷺ أشار
إلى هذه الحقيقة فقال ^(٣) : (من عمل بما علم ، أورثه الله علم ما لم يعلم) . والثالث - التفكير .
فإن النفس ، إذا تعلمت وارتاضت بالعلم والعمل ، ثم أخذت تتفكر بمعلوماتها ، بشرط
التفكير ، يفتح عليه باب الغيب . كالتاجر الذي يتصرف في ماله بشرط التجارة ، يفتح عليه
أبواب الربح . وإذا سلك طريق الخطأ يقع في مهالك الخسران . فالتفكير إذا سلك سبيل
الصواب يصير من ذوى الأبواب ، وتنفتح روزنة من عالم الغيب في قلبه فيصير عالمًا كليلاً
عاقلاً ملهمًا مؤيداً . كما قال ﷺ ^(٤) : (تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة)
انتهى ملخصاً .

وفي خلال كلامه عليه الرحمة ، جمل من إشارات الصوفية وعباراتهم . ولا يأبأها العقل

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٩] . (٢) [٩١ / الشمس / ٧] .

(٣) قال في (كشف الخفاء) رقم ٢٥٤٢ ما نصه : رواه أبو نعيم عن أنس .

(٤) قال في (كشف الخفاء) رقم ١٠٠٤ ما نصه : ذكره : الفاكهاني بلفظ (فكر ساعة)

وقال : إنه من كلام سري السقطي .

السليم ولا قواعد العلم الظاهر . لأنها في هذه المثابة بدرجة الاعتدال والتوسط . كذلك كان مشربه قدس الله سره . وقوله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ ، قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا)

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ » وهو الإسكندر الكبير المقدونيّ وسندكر وجه تلقينه بذلك « قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا » أى نبأً مذكوراً معجزاً ، أنزله الله على .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا)

« إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ » أى بالقوة والرأى والتدبير والسمعة فى المال والاستظهار بالعدد وعظم الصيت وكبر الشهرة . « وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا » ، أى طريقاً موصلاً إليه . والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (فَاتَّبَعَ سَبَبًا)

[٨٦] (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ، قُلْنَا يَذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا)

« فَاتَّبَعَ سَبَبًا » قرئ بقطع الهمزة وسكون التاء . وقرئ بهمزة الوصل وتشديد التاء . ففيلها بمعنى ويتميدان لمفعول واحد . وقيل : (اتَّبَعَ) بالقطع يتمدى لاثنتين . والتقدير : فاتبع سبباً سبباً آخر . أو فاتبع أمره سبباً كقوله ^(١) : (وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً) .

وقال أبو عبيدة : اتبع (بالوصل) في السير وأتبع (بالقطع) معناه اللحاق كقوله ^(١) :
 (فَأَتْبَعَهُ وَشِهَابٌ ثَاقِبٌ) وقال يونس : أتبع (بالقطع) للجد الحثيث في الطلب و (بالوصل)
 مجرد الانتقال . والفاء في قوله : (فَأَتْبَع) فاء الفصيحة . أى فأراد بلوغ المغرب فأتبع سبيلاً
 يوصله ، لقوله « حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ » أى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من
 ناحية المغرب ، وهو مغرب الأرض « وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ » أى ذات حمأة
 وهو الطين الأسود ، وقرئ (حامية) أى حارة . وقد تكون جامعة للوصفين و (وَجَدَ)
 يكون بمعنى (رأى) لما ذكره الراغب « وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا » أى أمة . ثم أشار تعالى
 إلى أنه مكنه منهم ، وأظهره بهم ، وحكمه فيهم ، وجعل له الخيرة في شأنهم ، بقوله :
 « قُلْنَا يَذَّارِقُ الَّذِينَ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ » أى بالقتل وغيره « وَإِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا »
 بالعفو . ثم بين تعالى عدله وإنصافه ، ليحتذى حذوه ، بقوله سبحانه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا)
 « قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ » أى بالبغي والفساد في الأرض بالشرك والضلال والإضلال
 « فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ » أى في الآخرة « فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا »
 أى منكرًا لم يعهد مثله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ ، وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا)
 « وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ » أى في الدارين « جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ » يقرأ بالرفع

والإضافة. وهو مبتدأ ، أو مرفوع بالظرف أى فله جزء الحصلة الحسنى . ويقرأ بالرفع والتنوين و (الْحُسْنَى) بدل أو خبر مبتدأ محذوف . ويقرأ بالنصب والتنوين . أى : فله الحسنى جزء . فهو مصدر فى موضع الحال . أى مجزئاً بها . أو هو مصدر على المعنى . أى يجزئ بها جزء ، أو تميز . ويقرأ بالنصب من غير تنوين . وهو مثل المنون إلا أنه حذف التنوين لا لتقاء الساكنين . أفاده أبو البقاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (ثُمَّ أَتَّبَعَ سَبَبًا)

[٩٠] (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجْدَهَا تَطَلَّعَ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا)

« ثُمَّ أَتَّبَعَ سَبَبًا » أى طريقاً راجعاً من مغرب الشمس ، موصلاً إلى مشرقها « حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجْدَهَا تَطَلَّعَ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا » أى من المباني والجبال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا)

« كَذَٰلِكَ » أى أمر ذى القرنين كما وصفناه فى رفعة المسكان وبسطة الملك . أو أمره فيهم ، كأمره فى أهل المغرب من الحكم المتقدم . أو صفة مصدر محذوف ل (وجد) أى وجدها تطلع وجدانا كوجدانها تغرب فى عين حمئة . أو معمول (بلغ) أى بلغ مغربها كما بلغ مطلعها ، ولا يحيط بما قاساه غير الله . أو صفة (قوم) أى على قوم مثل ذلك القبيل الذى تغرب عليهم الشمس ، فى الكفر والحكم « وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا » أى علماً . نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه . لا يخفى علينا منها شيء ، وإن تفرقت أممهم

وتقطعت بهم الأرض . وفي التذييل بهذا ، إشارة إلى كثرة ما لديه من العدد والعدد ، بحيث لا يحيط بها إلا علمه تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا)

[٩٣] (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَسْكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا)

« ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا » أى طريقاً ثالثاً معترضا بين المشرق والمغرب « حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ » قرئ بفتح السين وضمها . أى بين الجبلين اللذين سد ما بينهما « وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا » أى من ورأيهما أمة من الناس « لَا يَسْكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا » لكون لغتهم غريبة مجهولة ، ولقلة فطنتهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (قَالُوا يَبْذَا الْقَرْيَتَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا)

[٩٥] (قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا) « قَالُوا يَبْذَا الْقَرْيَتَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ » أى فى أرضنا بالقتل والإضرار « فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا » أى جعلاً نخرجه من أموالنا . وقرئ (خراجاً) وهو بمعناه « عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا » أى حاجزاً يمنع خروجهم علينا « قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ » أى ما جعلنى فيه مكيئاً من المال والمالك ، أجل مما تريدون بذله . فلا حاجة بى إليه « فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ » أى بعملة وصناعات وآلات « أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا » أى حاجزاً حصيناً . وأصل معنى الردم سد الثلثة بالحجارة ونحوها .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٩٦] (ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ، حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنفُخُوا ، حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا)
 [٩٧] (فَمَا أُسْطَظَمُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا أُسْتَظَمُوا لَهُ نَبَإًا)
 [٩٨] (قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ، وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا)

« ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ » أى ناولونى قطعه « حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ » أى بين جانبي الجبلين « قَالَ أَنفُخُوا » أى فى الأكوار والحديد « حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ » أى المنفوخ فيه « نَارًا » أى كالنار بالإجماء « قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا » أى نحاساً مذاباً ليلصق بالحديد ، ويتدعم البناء به ويشهد « فَمَا أُسْطَظَمُوا أَن يَظْهَرُوهُ » أى يملوه بالصعود لارتفاعه وملاسته « وَمَا أُسْتَظَمُوا لَهُ نَبَإًا » لثخنه وصلابته « قَالَ هَذَا » أى السد « رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي » على القاطنين عنده . لأنهم من شر من سدّ عليهم به ، ورحمة على غيرهم ، لسد الطريق عليهم « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي » بدحره وخرابه « جَعَلَهُ دَكَّاءَ » بالمد أى أرضاً مستوية ، وقرئ (دَكًّا) أى مذكوكاً مسوًّى بالأرض . « وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا » أى كائناً لا محالة . وهذا آخر حكاية قول ذى القرنين .

تنبيهات :

الأول : قدمنا أنه ليس فى القرآن شىء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار . وإنما هى الآيات والمعبر والأحكام والآداب تجلت فى سياق الوقائع . ولذا يجب صرف العناية إلى وجوه تلك الفوائد والثمرات ، وما يستنبط من تلك الآيات . وقد أشار نبأ ذى القرنين الإسكندر إلى فوائد شتى . نذكر ما فتح علينا منها ، ونسكل ما لم نحط به علماً إلى العليم الخبير .

فَمِنْ قَوَائِدِهَا : الاعتبار برفع الله بعض الناس درجات على بعض . ورزقه من يشاء بغير حساب ملكاً ومالاً . إلهه من خفى الحكم وباهر القدرة . فلا إله سواه .

ومنها : الإشارة إلى القيام بالأسباب ، والجري وراء سنة الله في الكون من الجد والعمل . وأن على قدر بذل الجهد يكون الفوز والظفر فإن ما قص عن الإسكندر من ضربه في الأرض إلى مغرب الشمس ، ومطعمها وشماتها وعدم فتوره ووجدانه اللذة في مواصلة الأسفار وتجشم الأخطار ، وركوب الأوعار والبحار ، ثم إحرازه ذلك الفخار ، الذي لا يشق له غبار ، أكبر عبرة لأولى الأبصار .

ومنها : تنشيط الهمم لرفع العوائق . وأنه ما تسرت الأسباب ، فلا ينبغي أن يعد ركوب البحر ولا اجتياز الفقر ، عذراً في الخمول والرضاء بالدون . بل ينبغي أن ينشط ويمثل في مرارته ، حلاوة عقباه من الراحة والهناء . كما قضى الإسكندر عمره ولم يذق إلا حلاوة الظفر ولذة الانتصار : . إذ لم يكن من الذين تقعدهم المصاعب عن نيل ما يبتغون .

ومنها : وجوب المبادرة لمعالي الأمور من الحداثة . إذ من الخطأ التسويف فيه إلى الالكتمال . فإن الإسكندر لما تبوأ ملك أبيه كان في حدود العشرين من عمره . وأتى ما أتى وهو في ريمان الشباب وقوة الفتاء . فهاجم أعظم ملوك عصره وأكبر جيوشهم . كأنه القضاء المبرم . ولم يقف في وجهه عدد ولا عدد . وخاض غمرات الردى غير هياب ولا وجل . وأضاف كل العالم الشرقي إلى المملكة اليونانية وهو شاب . وقضى وهو في الثالثة والثلاثين من عمره ، كما دونه محققو المؤرخين .

ومنها : أن من قدر على أعدائه وتمسك منهم ، فلا ينبغي له أن تسكره لذة السلطة بسوقهم بمصا الإذلال ، وتجريمهم غصص الاستعباد والنكال . بل يعامل المحسن بإحسانه والمسيء بقدر إساءته . فإن ما حكى عن الإسكندر من قوله ^(١) (قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ) إلى آخره ، نهاية في العدل وغاية الإنصاف .

ومنها : أن على الملك ، إذا اشتكى إليه جور مجاورين ، أن يبذل وسعه في الراحة والأمن ، دفاعاً عن الوطن العزيز ، وصيانة للحرية والتمدن ، من مخالب الوحش والحراب ، قياماً بفريضة دفع المعتدين وإمضاء العدل بين العالمين . كما لبّى الإسكندر دعوة الشاكين في بناء السد . وقد أطبق المؤرخون على أنه بنى عدة حصون وأسوار ، لرد غارات البرابرة ، وصد هجماتهم .

ومنها : أن على الملك التعفف عن أموال رعيته ، والزهد في أخذ أجره ، في مقابلة عمل يأتيه ، ما أغناه الله عنه ، في ذلك حفظ كرامته وزيادة الشغف بحبته . كما تأبى الإسكندر تفضلاً وتكراً .

ومنها : التحدث بنعمة الله تعالى إذا اقتضاه المقام . كقول الإسكندر في مقام تعففه عن أموالهم ، والشفقة عليهم^(١) (مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ) كقول سليمان^(٢) (فَمَاءٌ آتَنِي مِنَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ) وقد قيل : إن دخل الإسكندر من البلاد التي فتحها كان نحو ستين مليون ليرة إنكليزية .

ومنها : تدعيم الأسوار والحصون في الثغور ، وتقويتها بذوب الرصاص وبوضع صفائح النحاس ، خلال الصخور الصم ، صدقاً في العمل ونصحاً فيه . لينتفع به على تطاول الأجيال . فإن البناء غير الرصين لا ثمرة فيه .

ومنها : مشاطرة الملك العمال في الأعمال ومشارفتهم بنفسه إذا اقتضى الحال ، تنشيطاً لهمتهم وتجربة لهم وترويحاً لقلوبهم . وقد كان الإسكندر يقاسم الرجال الأتاعاب ، ويدبر العمل بنفسه ، كما بينه الذكركر الحكيم في قوله^(٣) (ءَاتُونِي أَفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) .

ومنها : تعريف الغير ثمرة العمل المهم ، ليعرفوا قدره فيظهروا شكره . ولذا قال^(٤) (هَذَا رَجْمَةٌ مِّن رَّبِّي) .

(١) [١٨ / الكهف / ٩٥] . (٢) [٢٧ / النمل / ٣٦] . (٣) [١٨ / الكهف / ٩٨] .

ومنها : الإعلام بالدور الأخرى ، وانقضاء هذا الطور الأولى ، لتبقى النفوس طامحة إلى ذلك العالم الباقي والنعيم السرمدي . ولذا قال (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي) .

ومنها : الاعتبار بتخليد جميل الثناء ، وجليل الآثار . فإن من أنعم النظر فيما قص عنه في هذه الآيات الكريمة ، يتضح له جلياً حسن سجاياه وسمو مزاياه . من الشجاعة وعلو الهمة والعفة والعدل . ودأبه على توطيد الأمن وإثابته المحسنين وتأديبه للظالمين . والإحسان إلى النوع البشري ، لاسيما في زمان كان فيه أكثر عوائد وأخلاق الأمم التمدنة وغير التمدنة ، وحشية فاسدة .

ومنها : الاهتمام بتوحيد الكلمة لمن يملك أمماً متباينة . كما كان يرى إليه سعى الإسكندر . فإنه دأب على توحيد الكلمة بين الشعوب ومزج تلك الأمم المختلفة ليربطها بصلات الحب والعوائد . وقد حكى أنه كان يجيش من كل أمة استولى عليها ، جيشاً عرمرماً ، يضيفه إلى جيشه المكدوني اليوناني . ويأمر رجاله أن يتزوجوا من بناتهم ، لتوثيق عرى المحبة والارتباط ، وإزالة البغض والشحناء .

ومنها : الاعتبار بما يبلغه الإنسان ، وما فيه من بليغ الاستعداد . يقضى على المرء أن يعيش أولاً طفلاً مرضعاً . لا يعلم ما حوله ولا يطلب غير ما تحتاج إليه طبيعته الضعيفة ، قياماً بما تقتضيه أسباب الحياة ، وهو ملق إذ ذاك لا إرادة له . وعرضة لأسقام تذيبه الآلام ، وقد تجرعه كأس الحمام قبل أن يرى ويدرك شيئاً من هذا النظام . فإذا استظهرت فيه عوامل الحياة على دواعي المات ، وسرت بجسمه قوى الشبيهة ، وصرف ما أنعم الله عليه ، إلى ما خلق لأجله ، ترعرع إنساناً عظيماً ظافراً بمنتهى أمله .

التنبيه الثاني - في ذى القرنين . اتفق المحققون على أن اسمه الإسكندر بن فيليس ، وقال ابن القيم في (إغاثة اللهفان) في الكلام على الفلاسفة : ومن ملوكهم الإسكندر المقدوني وهو ابن فيلبس وليس بالإسكندر ذى القرنين الذى قص الله تعالى نبأه في القرآن . بل بينهما

قرون كثيرة وبينهما في الدين أعظم تباين . فذو القربين كان رجلاً صالحاً موحداً لله تعالى يؤمن بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وكان يغزو عبادة الأصنام وبلغ مشارق الأرض ومغاربها . وبنى السد بين الناس وبين يأجوج ومأجوج . وأما هذا المقدوني ، فكان مشركاً يعبد الأصنام هو وأهل مملكته . وكان بينه وبين المسيح نحو ألف وستمائة سنة . والنصارى تؤرخ له . وكان أرسطاطاليس وزيره . وكان مشركاً يعبد الأصنام . انتهى كلامه .

وفيه نظر . فإن المرجع في ذلك هم أئمة التاريخ وقد أطبقوا على أنه الإسكندر الأكبر ابن فيليبس باني الإسكندرية بتسعمائة وأربع وخمسين سنة قبل الهجرة ، وثلاثمائة واثنتين وثلاثين سنة قبل ميلاد عيسى عليه السلام . وقد أصبح ذلك من الأوليات عند علماء الجغرافيا . وأما دعوى أنه كان مشركاً يعبد الأصنام ، فقير مسلم ، وإن كان قومه وثنيين ، لأنه كان تلميذاً لأرسطاطاليس . وقد جاء في ترجمته - كما في طبقات الأطباء وغيرها - أنه كان لا يعظم الأصنام التي كانت تعبد في ذلك الوقت وأنه بسبب ذلك نسب إلى الكفر وأريد السعاية به إلى الملك . فلما أحس بذلك شخص عن أثينا . لأنه كره أن يقتل أهلها بمثل ما ابتلوا به سقراطيس معلم أفلاطون . فإنه كان من عبادهم ومتألهيهم . وجاهرهم بمخالفتهم في عبادة الأصنام . وقابل رؤساءهم بالأدلة والحجج على بطلان عبادتها . فتوروا عليه العامة واضطروا الملك إلى قتله . فأودعه السجن ليكفهم عنه . ثم لم يرض المشركون إلا بقتله . فسقاه السم خوفاً من شرهم ، بعد مناظرات طويلة جرت له معهم . كما في (طبقات الأطباء وتراجم الفلاسفة) فالوثنية ، وإن كانت دين اليونانيين واعتقاد شعبهم ، إلا أنه لا ينافي أن يكون الملك وخاصته على اعتقاد آخر يجاهدون به أو يكتمونه . كالنجاشي ملك الحبشة . فإنه جاهر بالإيمان بالنبي ﷺ . وشعبه وأهل مملكته كلهم نصارى . وهكذا كان الإسكندر وأستاده والحكام قبله . فإن الممن في تراجمهم يرى أنهم على توحيد وإيمان بالمعاد . قال القاضي صاعد : كان فيثاغورس - أستاذ

سقراط - يقول ببقاء النفس وكونها، فيما بعد ، في ثواب أو عقاب. على رأى الحكماء الإلهيين .
فتأمل قوله (على رأى الحكماء الإلهيين) يتحقق ما ذكرناه .

وأما قول الفخر الرازى : (إن فى كون الإسكندر ذا القرنين إشكالاً قوياً . وهو أنه كان تلميذ أرسطاطاليس الحكيم وكان على مذهبه ، فتمظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصدق . وذلك مما لا سبيل إليه) فلا يخفى دفع هذا اللزوم . فإن من كان تابماً لمذهب فدح لأمر ما يوجب مدحه لأجله ، فلا يلزم أن يكون المدح لأجل مذهبه ومتبوعه . إذ قد يقوم فيه من الخلال والمزايا ما لا يوجد فى متبوعه . وقد يبدو له من الأنظار الصحيحة ما لا يكون فى مذهبه الذى نشأ عليه مقلداً . أفلا يمكن أن يكون حراً فى فكره ينبذ التقليد الأعمى ويمتنق الحق . ومن آتاه الله من الملك ما آتاه ، أفيمتنع أن يؤتية من تنور الفكر وحرية الضمير وتقوذ البصيرة ما يخالف به متبوعه ؟ هذا على فرض أن متبوعه مذموم . وقد عرفت أن متبوعه (أعنى أرسطاطاليس) ، كان موحداً . وهو معروف فى التاريخ لا ستره فيه . على أنه لو استلزمت الآية مدح مذهب أستاذه لكان ذلك فى الأصول التى هى المقصودة بالذات ، وكفى بها كمالاً . وللرازى فرص يفتنم بها التنويه بالحكماء والتعريف لمذهبهم ، وهذه منها . وإن صبغها - سبحانه الله - فى هذا الأسلوب . عرف ذلك من عرف .

التنبية الثالث : اختلف فى سبب تلقيبه بذى القرنين . فقيل لأنه طاف قرنى الدنيا .
يعنى جانبها شرقياً وغربياً . أولاً لأنه كان له قرنان أى صغيرتان . أو لأنه ملك الروم وفارس .
قال الزمخشري : ويجوز أن يلقب بذلك لشجاعته ، كما يسمى الشجاع كبشاً لأنه ينطح أقرانه .

أقول : هذا اللقب من الكناية عن كل ذى قوة وبأس وسلطان . لأن ذا القرون من المواشي أقواها وأشدها . والكناية بالقرن عن القوة والسلطان معروفة عند اليهود ،

الذين هم السائلون . وقد وقع في توراتهم في نبوة دانيال عليه السلام قوله عن الملك : (فإذا أنا بكبش واقف عند النهر . وله قرنان) ثم قوله : (وبينما كفت متأملاً إذا بتيس معز قد أقبل من المغرب على وجه الأرض كلها . وللتيس قرن عجيب المنظر بين عينيه) قالوا : القرن هنا رمز إلى القوة والسلطان . والتيس رمز إلى مملكة اليونان . وقرنه رمز إلى أول ملك على هذه المملكة وهو الإسكندر الكبير . وما أشار إليه من سرعة مسير هذا التيس إيماء إلى كثرة ما دهم البلاد به من الغارات المتواصلة . وقوله : (خرج من المغرب) إشارة إلى خروجه من مكدونية ، التي هي إلى غرب فارس ، وذلك حين تقدم على جيوش داريوس وكسره . وتعبه إلى داخل مملكته . والقصد أن هذا اللقب (ذو القرنين) شهير وليس من أوضاع العرب خاصة ، كما زعمه بعضهم . بل هو معروف عند العبرانيين أيضاً . وقد يظهر أنه من رموزهم الخاصة التي سرت إلى العرب ، وأقرتهم عليها .

التنبیه الرابع - قال الرازی : اختلفوا فی ذی القرنین . هل کان من الأنبياء أم لا ؟
منهم من قال : إنه کان نبیاً . واحتجوا علیه بوجوه :

الأول - قوله : (إِنَّا مَكِّنَّا لَهُ وَ فِي الْأَرْضِ) والأولى حمله على التمكين في الدين .
والتمكين الكامل في الدين هو النبوة .

الثاني - قوله : (وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) ومن جملة الأشياء النبوة . فمقتضى العموم في قوله : (وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) هو أنه تعالى آناه من النبوة سبباً .

الثالث - قوله تعالى : (فَلَمَّا يَدْعَا الْقُرْنَيْنِ إِمْأًا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمْأًا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا) والذي يتكلم الله معه لا بد وأن يكون نبياً .

ثم قال الرازي بعدد : يدلّ قوله تعالى (قُلْنَا يَذَّكِّرُنِي) على أنه تعالى تسكلم معه .

من غير واسطة . وذلك يدل على أنه كان نبياً . وحملُ هذا اللفظ على أن المراد أنه خاطبه على ألسنة بعض الأنبياء - فهو عدول عن الظاهر . انتهى .

ولا يخفى ضعف الاستدلال بهذه الأدلة على نبوته . لأن مقام إثباتها يحتاج إلى تفصيل وتخصيص . وأما تعمق الجرى وراء العمومات ، لاستفادة مثل ذلك ، فغير مقنع .

وأما قوله تعالى : (قُلْنَا يَلِذَا أَلْقَرْنَيْنِ) فقد معنا أنه كفاية عن تمكينه تعالى له منهم . لأنه قول مشافهة . وإلا لو كان ذلك لسكان مخيراً منه تعالى وملقناً ما يفعل بهم . فأنى يسوغ له نقضه باجتهاد آخر . ولا يقال إن الأصل في الإطلاق الحقيقة . لأننا نقول به ، ما لم يمنع منه مانع ، من نحو ما ذكرناه . وللتنزيل الكريم أسلوب خاص ، عرفه من أنعم النظر في بديع بيانه . نعم . لو كان مراد القائل بنبوته أنه من الملهمين - ذهاباً في النبوة إلى المعنى الأعم من الإيحاء بشرع ، ومن الإلهام ، لكان قريباً . فتكون نبوته من القسم الثانى وهو الإلهام . ويطلق الصوفية على مثله الوارد . وجاء في الحديث تسمية صاحبه ^(١) محدثاً . وإطلاق النبوة عليه ، وإن كان محظوراً في الإسلام ، إلا أنه كان معروفاً قبله في العباد الأخيار . التنبيه الخامس - حكى في قوله تعالى : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي أَلْقَرْنَيْنِ) قولان في أن السائلين هم اليهود أو غيرهم . ورجح الأول من وجهين :

أولهما - أن للإسكندر عند اليهود شأنًا وقدرًا . وذلك لما حكى أنه لما فتح غزة ودنا من بيت المقدس ، خرج إليه رئيس أخبارها وقدم إليه الطاعة . فدخلها إسكندر وسمع نبوة التوراة فسرَّ وأحسن إلى اليهود . وتعقب بعض المؤرخين هذه الرواية بأنها غير مأثورة في كتب اليونان ، ولم يروها أحد من مؤرخيهم .

(١) يشير إلى الحديث النبوى الشريف الذى أخرجه البخارى عن أبى هريرة في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٥٤ - باب حدثنا أبو اليمان ، عن النبى ﷺ أنه قال : إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون ، وإنه إن كان في أمتى هذه منهم ، فإنه عمر بن الخطاب .

ثانيهما - أن عنوان (ذو القرنين) من رموز الإسرائيليين كما قدمناه عنهم .

التنبيه السادس - قالوا: المراد بـ(العين الحمئة) البحر المحيط . وتسميته عينا لكونه بالنسبة اعظم قدرته تعالى ، كقطرة . وإن عظم عندنا . قالوا : رأى الشمس في مظهره تغرب في البحر . وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله ، يراها كأنها تغرب فيه . وهي لا تفارق فللكها .

ولالإمام ابن حزم عليه الرحمة - رأى آخر في الآية. ذكره في كتاب (الملل) في بحث كروية الأرض قال : نوالقرنين هو كان في العين الحمئة الحامية كما تقول (رأيتك في البحر) تريد أنك إذا رأيته كفت أنت في البحر . وبرهان هذا أن مغرب الشمس لا يجهل مقدار عظيم مساحته إلا جاهل . ومقدار ما بين أول مغربها الشقوى إذا كانت من آخر رأس الجدى إلى آخر مغربها الصيفي إذا كانت من رأس السرطان - مرئى مشاهد . ومقداره ثمان وأربعون درجة من الفلك . وهو يوازي من الأرض كلها بالبرهان الهندسي أقل من مقدار السدس . يكون من الأميال نحو ثلاثة آلاف ميل ونيف . وهذه المساحة لا يقع عليها في اللغة اسم (عين) البتة . لا سيما أن تكون (عينا حمئة) حامية . وباللغة العربية خوطينا . فلما تيقنا أنها (عين) بإخبار الله عز وجل ، الصادق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، علمنا يقيناً أن ذا القرنين انتهى به السير في الجهة التي مشى فيها من المغرب إلى العين المذكورة . وانقطع له إمكان المشي بعدها لاعتراض البحار له هنالك . وقد علمنا بالضرورة أن ذا القرنين وغيره من الناس ، ليس يشغل من الأرض إلا مقدار مساحة جسمه فقط . قائماً ، أو قاعداً أو مضطجعا . ومن هذه صفته ، فلا يجوز أن يحيط بصره من الأرض ، بمقدار مكان المغرب كلها ، لو كان مغيبها في عين من الأرض . كما يظن أهل الجهل . ولا بد من أن يلقى خط بصره من حدة الأرض ، ومن نشز من أنشازها ، ما يمنع الخط من التمداد ، إلا أن يقول قائل : إن تلك العين هي البحر . فلا يجوز أن يسمى البحر في اللغة (عينا حمئة) ولا حامية . وقد أخبر

الله عز وجل أن الشمس تسبح في الفلك . وأنها إنما هي من الفلك سراج . وقول الله تعالى هو الصدق الذي لا يتناقض . فلو غابت في عين من الأرض ، كما يظن أهل الجهل ، أوفى البحر ، لكانت الشمس قد زالت عن السماء وخرجت عن الفلك ، وهذا هو الباطل . فصح يقيناً ، بلا شك ، أن ذا القرنين كان هو في العين الحثة والحامية ، حين انتهى إلى آخر البر في المغارب . لا سيما مع ما قام البرهان عليه ، من أن جرم الشمس أكبر من جرم الأرض . وبرهان آخر قاطع وهو قوله تعالى : (وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا) فصح ضرورة أنه وجد القوم عند العين لا عند الشمس . انتهى كلام ابن حزم .

التنبية السابع - قال الرازي : الأظهر أن موضع السدين في ناحية الشمال . وقيل : جيلان بين أرمينية وأذربيجان . وقيل : هذا المكان في منقطع أرض الترك . وحكى محمد بن جرير الطبري في (تاريخه) أن صاحب أذربيجان ، أيام فتحها ، وجه إنسانا إليه من ناحية الخزر . فشاهده ووصف أنه بنيان رفيع ، وراء خندق عميق وثيق منيع .

وذكر ابن خرداد في كتاب (المسالك والممالك) أن الواثق بالله رأى في المنام كأنه فتح هذا الردم ، فبعث بعض الخدم إليه ليأينوه . فخرجوا من باب الأبواب حتى وصلوا إليه وشاهدوه . فوصفوا أنه بقاء من لبن من حديد ، مشدود بالنحاس المذاب ، وعليه باب مقفل . ثم إن ذلك الإنسان ، لما حاول الرجوع ، أخرجهم الدليل على البقاع المحاذية لسمرقند .

قال أبو الريحان : مقتضى هذا أن موضعه في الربع الشمالي الغربي من المعمورة . والله أعلم بحقيقة الحال . انتهى كلام الرازي .

وقال الإمام ابن حزم في (الملل والنحل) جزء أول صحيفة (١٢٠) في تنفيد دعوى اليهود أن الجنة التي أهبط منها آدم في الأرض ، ما مثاله . فإن قيل : ذكر في القرآن سد يأجوج ومأجوج . ولا يدرى مكانه ولا مكانهم . قلنا : مكانه معروف في أقصى الشمال

في آخر المعمورة منه . وقد ذكر أمر يأجوج ومأجوج في كتب اليهود التي يؤمنون بها ويؤمن بها النصارى . وقد ذكر يأجوج ومأجوج والسدّ أرسطاطاليس في كتابه في (الحيوان) عند كلامه على الفرائيق . وقد ذكر سد يأجوج ومأجوج بطليموس في كتابه المسمى (جغرافيا) وذكر طول بلادهم وعرضها . وقد بعث إليه الواثق أمير المؤمنين سلام الترجمان في جماعة معه حتى وقفوا عليه . ذكر ذلك أحمد بن الطيّب السرخسي وغيره . وقد ذكره قدامة بن جعفر والناس . فهيئات خبر من خبر . وحتى لو خفي مكان يأجوج ومأجوج والسدّ ، فلم يعرف في شيء من المعمور مكانه ، لما ضر ذلك خبرنا شيئاً . لأنه كان يكون مكانه حينئذ خلف خط الاستواء حيث يكون ميل الشمس ورجوعها ، وبعدها كما هو في الجهة الشمالية . بحيث تكون الآفاق كبعض آفاقنا المسكونة ، والهواء كهواء بعض البلاد التي يوجد فيها النبات والتناسل . واعلموا أن كل ما كان في عنصر الإمكان ، فأدخله مدخل في عنصر الامتناع بلا برهان - فهو كاذب مبطل جاهل ، أو مجاهر . لاسيما إذا أخبر به من قد قام البرهان على صدق خبره . وإعسا الشأن في الحال الممتنع الذي تكذبه الحواس والعيان أو بديهية العقل . فمن جاء بهذا فإنما جاء ببرهان قاطع على أنه كذاب مفتر . ونعوذ بالله من البلاء . انتهى كلام ابن حزم .

وقال بعض المحققين : اعلم أنه كثيراً ما يحدث في الثورات البركانية أن تنخسف بعض البلاد أو ترتفع بعض الأراضي حتى تصير كالجبال . وهذا أمر مشاهد حتى في زمننا هذا . فإذا سلم أن سدّ ذي القرنين المذكور في هذه الآية غير موجود الآن ، فربما كان ذلك ناشئاً من ثورة بركانية خسفت به وأزالت آثاره . ولا يوجد في القرآن ما يدل على بقائه إلى يوم القيامة . أما قوله تعالى : (هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَمَلَهُ وَدَكَّاءٌ) فعناه أن هذا السد رحمة من الله بالأأمم القريبة منه . لمنع غارات يأجوج ومأجوج عنهم ، ولكن يجب عليهم أن يفهموا أن مع متانته وصلابته لا يمكن أن يقاوم مشيئة الله القويّ القدير ، فإن بقاءه إنما هو بفضل الله . ولكن إذا قامت القيامة وأراد الله فناء هذا العالم ، فلا هذا

السد ولا غيره من الجبال الراسيات يمكنها أن تقف عثرة ، لحظة واحدة أمام قدرة الله . بل يدكها جمعاء دكا في ملح البصر . فراد ذى القرنين بهذا القول تنبيه تلك الأمم على عدم الاعتزاز بمناعة هذا السد ، أو الإعجاب والغرور بقوتهم . فإنها لاشيء يذكر بجانب قوة الله . فلا يصح أن يستنتج من ذلك أن هذا السد يبق إلى يوم القيامة ، بل صريحه أنه إذا قامت القيامة في أى وقت كان ، وكان هذا السد موجوداً ، دكه الله دكا . وأما إذا تأخرت فيجوز أن يدك قبلها بأسباب أخرى . كالزلازل إذا قدم عهده . وكالثورات البركانية كما قلنا . وليس في الآية ما ينافي ذلك . وأما قوله تعالى : (حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ) فالمراد منه خروجهم بكثرة وانتشارهم في الأرض ، كما يخرج الشيء المحبوس أو المضغوط إذا انفجر . واستعمال لفظ (الفتح) مجازاً شائع في اللغة . ومنه قولك (فتحو البلاد) وقوله تعالى ^(١) (فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ) فليس للأشياء أبواب . وكذلك يأجوج ومأجوج لا أبواب لهم . بل هم من كل حذب ينسلون . والغالب أن المراد بخروجهم هذا ، خروج المغول التتار ، وهم من نسل يأجوج ومأجوج وهو الغزو الذي حصل منهم للأمم في القرن السابع الهجري . وناهيك بما فعلوه إذ ذاك في الأرض ، بمد أن انتشروا فيها ، من الإفساد والنهب والقتل والسبي . والراجع أن السد كان موجوداً بإقليم داغستان التابع الآن لروسيا ، بين مدينتي دربند وخوزار . فإنه يوجد بينهما مضيق شهير منذ القدم ، يسمى عند كثير من الأمم القديمة والحديثة بـ (السد) وبه موضع يسمى (باب الحديد) وهو أثر سد حديدي قديم بين جبلين من جبال القوقاز الشهيرة عند العرب (بجبل قاف) وقد كانوا يقولون إن فيه السد كغيرهم من الأمم . ويظنون أنه في نهاية الأرض . وذلك بحسب ما عرفوه منها . ومن ورائه قبيلتا يأجوج ومأجوج . انتهى .

وجاء في (صفوة الاعتبار) أن السور الذي وصلوا إليه أيام الواثق من بني العباس ، هو

مسور الصين الذى هو إحدى عجائب مملكة الصين . فإن طوله نحو ألف ومائتين وخمسين ميلاً ، وسمكه من الأسفل نحو خمسة وعشرين قدماً ، ومن أعلاه نحو خمسة عشر قدماً . وارتفاعه ما بين خمسة عشر إلى عشرين قدماً . وفى أما كن منه حصون يبلغ ارتفاع بعضها إلى أربعين قدماً . بنى لرد الهجمات على المملكة الصينية الأصلية ، من المغول والقبائل الشمالية . والسور الآن خراب فى جهات كثيرة . فإن كان هو المراد بالسد فى الآية ، لزم حمل الصفات المذكورة فيه ، من كونه من زبر الحديد ، ومفرغاً عليه النحاس ، على بقاع من ذلك السور . والصدفان حينئذ طرفان من ذلك السور . كما تؤول صفات يأجوج ومأجوج ، إلى ما يصح إطلاقها به على التتر والمنشورية . ويكون وعد الله الذى يدك فيه السد هو قرب الساعة . ولا شك أنها قربت بإعلام الشارع . وحينئذ يكون الفساد الموعود به فى النصوص من أولئك القوم ، هو ما وقع من التتر من الفساد فى الممالك . كما فى عهد جنكيزخان ، وما عناه هو وأصحابه فى الدنيا والله أعلم . انتهى .

وجاء فى الجغرافية العمومية ، فى المقالة السابعة والأربعين فى تخطيط آسيا ، بلاد القوقاسيين أى أهالى كوه قاف ، أى جبل قاف : إن فى تلك الأنطار يمتد هذا الجبل كالسور العظيم . وفيه مجازان يسميان عند القدماء الأبواب القوقازية والأبواب الألبانية . فالجواز الأول وهو الأبواب القوقازية هو الذى كان يخشى منه هجوم المتبررين على كل من دولة الرومانيين والمعجم . ثم إن الحصن الذى كان يسد هذا المجاز يسمى بأسماء مختلفة عند القدماء . وأما الأبواب الألبانية فأشهر الآراء فيها أنها مجاز دربند . على امتداد بحر الخزر . ثم قال : وهناك حكاية مشهورة بين أهالى (كوه قاف) تقتضى أن هذا الجبل كان مسدوداً بسد عظيم يمنع غارة المتبررين وهذا السد العظيم تارة يعزى لإسكندر ، وتارة لأنو شروان ويستدلون على ذلك بآثار موجودة إلى الآن ، ترى لمن يروم ذلك .

التنبية الثامن - قال أبو البقاء : يأجوج ومأجوج اسمان أعجميان ، لم ينصرفا للمعجمة

والتعريف . ويجوز هزها وترك هزها . وقيل : هاء ربيان . ف(يأجوج) يفعل مثل يربوع . (ومأجوج) مفعول مثل معقول . وكلاهما من (أج الظليم) إذا أسرع . أو من (أجت النار) إذا التهب . ولم ينصرفا للتعريف والتأنيث - أى للقبيلة كعجوس . فالكلمتان من أصل واحد فى الاشتقاق . وعلى العجمة ، لا يتأتى تصرفه . ولا يعتبر وزنه إلا بتقدير كونه عربياً ، كافى (تذكرة أبى على) .

قال الرازى : واختلفوا فى أنهما من أى الأقوام ؟ فقيل : إنهما من الترك . وقيل : يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل والدليم . ثم من الناس من وصفهم بقصر القامة وصغر الجثة ، انتهى .

وقال بعض المحققين : كان يوجد من وراء جبل من جبال القوقاز ، المعروف عند العرب بـ(جبل قاف ، فى إقليم داغستان ، قبيلتان . تسمى إحداهما (آقوق) ، والثانية (ماقوق) فمر بهما العرب بـ (يأجوج ومأجوج) وهما معروفان عند كثير من الأمم وورد ذكرهما فى كتب أهل الكتاب . ومنهما تناسل كثير من أمم الشمال والشرق فى روسيا وآسيا .

التنبية التاسع - توسع من لم يشترط الصحة ولا الحسن فى مصنفاته من الرواة ، فى تخريج ما روى عن يأجوج ومأجوج . وكله إما من الإسرائيليات أو المنكرات أو الموضوعات . ومن ذلك حديث (إن يأجوج أمة ومأجوج أمة . كل أمة أربع مائة ألف أمة . لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكرين يديه من صلبه . كل قد حمل السلاح الخ) رواه ابن عدى فى (الضعفاء) عن حذيفة مرفوعاً . وقال : موضوع منكر ، ومحمد بن إسحاق العكاشى كذاب يضع ، وقد أخرجه ابن أبى حاتم وابن مردويه .

وقال الحافظ ابن جرير ههنا ، عن وهب بن منبه ، أثراً طويلاً عجيباً ، فى سير ذى القرنين وبناءه السد وكيفية ما جرى له . وفيه طول وغرابة ونسكاراة فى أشكالهم وصفاتهم وطولهم وقصر بعضهم وآذانهم .

وروى ابن أبي حاتم عن أبيه في ذلك ، أحاديث غريبة لا تصح أسانيدُها . انتهى .
فجزى الله البخاري أحسن الجزاء ، على نبذه تلك الروايات ، واشترطه الصحة في
الروايات ، فقد جنت الآثار المنكرة على الأمة أنكر الآثار . ومن طالع مقدمة صحيح مسلم
صدق قوله : (أن راوى الضعاف غاش آثم مضلّ) وبالله المستعان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا)
« وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا »
أى نفخ فيه للبعث في النشأة الثانية . فجمعناهم للجزاء والحساب جمعاً عجيباً
لا يكتنه كنهه .

قال إمام : النفخ في الصور تمثيل لبعث الله الناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلا نفخة في
بوق ، فإذا هم قيام ينظرون . وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ في الصور ، وليس علينا أن
نعلم ماهى حقيقة ذلك الصور . والبحث وراء هذا عبث لا يسوغ للمسلم . أى لأنه من عالم
الغيب ، أى الأمور الغيبية عنا ، التى لم نكلف بالبحث عن حقائقها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا)

« وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ » أى أظهرناها وأبرزناها « يَوْمَئِذٍ » أى يوم إذ جمعنا الخلائق كافة
« لِلْكَافِرِينَ » أى منهم . حيث جعلناهم بحيث يرونها ويسمعون لها تميظاً وزفيراً
« عَرْضًا » أى فظيماً هائلاً لا يقادر قدره . قال أبو السعود : وتخصيص العرض بهم ، مع
أنها عمراًى من أهل الجمع قاطبة ، لأن ذلك لأجلهم خاصة . وفى عرضها وإراءتهم ما فيها

من العذاب والنكال ، قبل دخولها ، مزيد غضب عليهم ونكاية . لكونه أبلغ في تعجيل
الهم والحزن . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا)

« الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا » تمثيل
لتعاميهم عن الآيات الدالة على توحيده ، أو عن القرآن وتأمل معانيه وتبصرها . ولتصاميمهم
عن الحق واتباع الهدى . وقوله تعالى : (وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا) أبلغ من (وكانوا صمًا)
لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به . وهؤلاء كانوا أصميت أسماعهم فلا استطاعة بهم
للسمع . أفاده الزمخشري . وفي توصيفهم بالجلتين نكتة أخرى ، بها تعلم أنه لا يستغنى بالثانية
عن الأولى ، كما زعم ، وذلك - كما حققه الشهاب - إن قوله تعالى : (لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا)
لما أفاد أنهم كفأقدى حاسة السمع ، ومن هو كذلك إنما يعرف الذكر بإشارة أو كتابة
أو نحوها ، مما يدرك بالنظر ، وذكر أن أعينهم محجوبة عن النظر فيما يدل عليه أيضاً . فهم
لا سبيل لهم إلى معرفة ذكره أصلاً . وهذا من البلاغة بمكان .

قال أبو السعود : والموصول يعنى (الذين) نعت للكافرين ، أو بدل أو بيان جىء به
لذمهم بما فى حيز الصلة ، وللإشعار بعليته لإصابة ما أصابهم من عرض جهنم لهم . فإن ذلك
إنما هو لعدم استعمال مشاعرهم فيما عرض لهم فى الدنيا من الآيات ، وإعراضهم عنها ، مع
كونها أسباباً منجية عما ابتلوا به فى الآخرة .

[١٠٢] (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ،

إِنَّا أَعْتَدْنَا لَهُمْ لِلْكَافِرِينَ نَزْلًا)

« أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ » هذا رجوع إلى

طليعة السورة في قوله تعالى^(١): (وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) فهو من باب رد العجز على الصدر المقرر في البديع ، جىء بالاستفهام الإنكارى ، إنكاراً لما وقع منهم وتوبيخاً لهم . ومفعول (حسب) الثانى محذوف . أى أحسبوا اتخاذهم نافعا لهم ؟^(٢) (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) كما قالوا^(٣) (سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ) «إِنَّا أَعْتَدْنَا» أى هيأنا «جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا» أى شيئاً يمتنعون به عند ورودهم . و(النزل) ما يقام للنزول أى الضيف . وفيه استعارة تهكمية . إذ جعل ما يعذبون به فى جهنم كالزقوم والغسلين ، ضيافة لهم .

وقال أبو السعود : وفيه تخطئة لهم فى حسابهم ، وتهكم بهم . حيث كان اتخاذهم إياهم أولياء ، من قبيل إعتاد العتاد ، وإعداد الزاد ، ليوم المعاد . فكأنه قيل : إنا أعتدنا لهم ، مكان ما أعدوا لأنفسهم من العدة والدخر ، جهنم عدة . وفى إيراد (النزل) إيماء إلى أن لهم وراء جهنم من العذاب ما هو أنموذج له . أى لأن الضيف لا يستقر فى منزل الضيافة . وينتقل إلى ما هو إهناء له فى دار إقامته . فكان تنبيهاً على أنهم سيدوقون ما هو أشد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا)

[١٠٤] (الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

[١٠٥] (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ

فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا)

[١٠٦] (ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوءًا)

«قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»

(١) [١٨ / الكهف / ٤] . (٢) [١٩ / مريم / ٨٢] . (٣) [٣٤ / سبأ / ٤١] .

أى ضاع وبطل « وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ » أى التى جاءت بالعمل بها رسالهم « وَلِقَائِهِ يَ » أى بالبعث والحساب والجزاء « فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ » لكفرهم المذكور « فَلَا يُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا » أى فنزدرهم ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً ، لأن مداره الأعمال الصالحة ، وقد حبطت بالمرءة « ذَلِكَ » أى الأمر ذلك . وقوله : « جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ » جملة مبينة له ، أو (ذلك) مبتدأ ، والجملة خبره ، والعائد محذوف . أى جزاؤهم به . أو (جزاؤهم) خبر و (جهنم) عطف بيان له « بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا ءَايَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا » أى مهزوءاً بهما . وذلك موجب لشدة المقت والغضب والנקال . ثم بين ما للمقابلهم من الحسن بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا)

[١٠٨] (خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا)

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا » .

أى تحوّلًا ، لبلوغهم النكال فى نعيمها . فلا شوق لهم فيما وراءها . وفيه تنبيه على شدة رغبته فيها ، وحبهم لها . مع أنه قد يتوهم ، فيمن هو مقيم فى مكان دائماً ، أنه يسأمه أو يمله . فأخبر أنهم ، مع هذا الدوام والخلود السرمدى ، لا يختارون عن مقامهم متحوّلًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ

كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)

« قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّى » أى لكتابتها « لَنَفِدَ الْبَحْرُ » أى مع

كثرته ولم يبق منه شيء « قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي » أى لكونها غير متناهية ، فلا تنفذ نقاد المتناهي .

قال أبو السعود : وفي إضافة (الكلمات) إلى اسم الرب ، المضاف إلى ضميره ﷺ في الموضعين ، من تفخيم المضاف وتشريف المضاف إليه ما لا يخفى . وإظهار (البحر) و(الكلمات) في موضع الإضمار ، لزيادة التقرير . وقوله تعالى : « وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا » أى بمثل البحر عوناً وزيادة ، لنفد أيضاً .

قال أبو السعود : كلام من جهته تعالى غير داخل في الكلام الملقن ، جرى به لتحقيق مضمونه ، وتصديق مدلوله ، مع زيادة مبالغة وتأكيد ، وهذا كقوله تعالى (٨) : « وَلَوْ أَنَّكَ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمَ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

تنبيه .

دلت الآية على أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء وكما شاء . وأن كلماته لانهاية لها . وقد قال الإمام أحمد رحمه الله وغيره من الأئمة : لم يزل الله متكلماً إذا شاء وهو يتكلم بمشيئته وقدرته يتكلم بشيء بعد شيء . وهو مذهب سلف الأمة ، وأئمة السنة ، وكثير من أهل الكلام ، كالحشامية والكرامية وأصحاب أبي معاذ . وطوائف غير هؤلاء يقولون : إن الكلام صفة ذات وفعل ، وهو يتكلم بمشيئته وقدرته كلاماً قائماً بذاته . وهذا هو المعقول من صفة الكلام لكل متكلم . فكل حتى وصف بالكلام كالملائكة والبشر والجن وغيرهم ، فكلامهم لا بد أن يقوم بأنفسهم ، وهم يتكلمون بمشيئتهم وقدرتهم . والكلام صفة كمال لا صفة نقص . ومن تكلم بمشيئة أكل ممن لا يتكلم بمشيئة . فكيف يتصف المخلوق بصفات الكمال دون الخالق ؟ وأما الجهمية والمعتزلة فيقولون : ليس له كلام قائم بذاته . بل كلامه مخلوق

منفصل عنه . والكلاية يقولون : هو متكلم بكلام ليس له عليه قدرة ، ولا يكون بعشيئته . والأشعرية يقولون : إن الكلام معنى واحد لا يتبعض ولا يتعدد . وكل هذه أقوال باطلة مخالفة للكتاب والسنة ، وإجماع سلف الأمة . مبتدعة مبنية على أصل واحد . وهو قولهم إن الرب لا تقوم به الأمور الاختيارية . فلا يقوم به كلام ولا فعل باختياره ومشيئته . وهو أصل باطل مخالف للنقل والعقل . والقرآن الكريم يدل على بطلانه في أكثر من مائة موضع . وأما الأحاديث الصحيحة فلا يمكن ضبطها في هذا الباب . والصواب في هذا الباب وغيره ، هو مذهب سلف الأمة وأئمتها ؟ أنه سبحانه لم يزل متكلماً إذا شاء وأنه يتكلم بعشيئته وقدرته . وأن كلامه لا نهاية لها . وأنه نادى موسى بصوت سمعه موسى . وإنما ناداه حين أتى ، لم يناده قبل ذلك . وأن صوت الرب لا يماثل أصوات العباد ، كما أن علمه لا يماثل علمهم وقدرته لا تماثل قدرتهم . وأنه سبحانه بائن عن مخلوقاته بذاته وصفاته . ليس في مخلوقاته شيء من ذاته وصفاته القائمة بذاته . ولا في ذاته شيء من مخلوقاته . وأن أقوال أهل التعطيل والاتحاد ، الذين عطلوا الذات والصفات أو الكلام أو الأفعال ، باطلة . وأقوال أهل الحلول الذين يقولون بالحلول في الذات والصفات ، باطلة . هذا ما أفاده تقي الدين ابن تيمية عليه الرحمة والرضوان .

وقال أيضا في قوله تعالى (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي) الآية : كلمات الله لا نهاية لها . وهذا تسلسل ، جائز كالتسلسل في المستقبل . فإن نعيم الجنة دائم لا تنفاد له . فما من شيء إلا وبعده شيء بلا نهاية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ، فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) « قُلْ » أي لهؤلاء المشركين والكافرين من أهل الكتاب « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ » أي خصصت بالوحي وتميزت عنكم به . (فَمَن كَانَ يَرْجُوا

لِقَاءَ رَبِّهِ «أى يخاف المصير إليه، أو يأمل لقاء ورؤيته، أوجزاءه الصالح وثوابه « فَلْيَمْعَلْ عَمَلًا صَالِحًا » أى فى نفسه، لا ثقابذلك المرجو، وهو ما كان موافقاً لشرع الله «وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» أى من خلقه إشراكاً جلياً. كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه. ولا إشراكاً خفياً. كما يفعله أهل الرياء، ومن يطلب به أجراً من المدح وتحصيل المال والجاه. قال أبو السعود : وإيثار وضع المظهر موضع المضمّر فى الموضعين ، مع التعرض لعنوان الربوبية ، لزيادة التقرير ، وللإشعار بعلمية العنوان للأمر والنهى ، ووجوب الامتثال فعلاً وتركاً .

ودلت الآية - كما قال ابن كثير - على أن للعمل المتقبّل ركّنين : كونه موافقاً لشرع الله المنزل ، ومخلصاً أريد به وجهه تعالى ، لا يخلط به غيره . وتسمية الرياء شركاً أصغر، ثبت فى السنة ، وصح فيها حبوط العمل بالرياء . ودخول الرياء فى الآية ، باعتبار عموم معناها ، وإن كان السياق فى الشرك الجلى ، للإخطاب مع الجاحدين . والله تعالى هو الموفق والمعين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٩ - سُورَةُ مَرْيَمَ

سميت بها لاشتغالها على نبئها الخارق . وقال المهايي : لأن قصتها تشير إلى أن من اعتزل من أهله لعبادة الله ، وطلب بها إشراق نوره ، يرجى أن يكشف له عن صفات الحق وعن عالم الملكوت . وتظهر له الكرامات العجيبة . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . وهي مكية النزول . واستثنى بعضهم منها آية السجدة^(١) وآية^(٢) (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) .

وقد روى محمد بن إسحق^(٣) ، في السيرة ، من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة ، أن جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه . وآياتها ثمان وتسعون .

(١) [١٩ / مريم / ٥٨] . (٢) [١٩ / مريم / ٧١] .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٢١٩ (طبعة جونتجن) والصفحة رقم ٣٥٩ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (كَهَيْعَصَ)

[٢] (ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ وَ زَكْرِيَّا)

[٣] (إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ وَ نِدَاءً خَفِيًّا)

« كَهَيْعَصَ » سلف في أول سورة البقرة السلام على هذه الأحرف ، المبتدأ بها . وأولى الأقوال بالصواب أنها أسماء للسورة المبتدأ بها . وكونها خبر مبتدأ محذوف . أى : هذا (كَهَيْعَصَ) أى مسمى به ، وقوله تعالى « ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ وَ زَكْرِيَّا » مبتدأ خبره محذوف . أى فيما يتلى عليك . أو خبر محذوف . أى هذا المتلو ذكرها . و (زكريا) والد يحيى عليهما السلام . بدل من (عبده) أو عطف بيان له . قال المهايمى : أى ذكر الله لنا ما رحم به زكريا عليه السلام بمقتضى كمال ربوبيته . فأعطاه ولداً كاملاً في باب النبوة . فبشره بنفسه تارة وبملائكته أخرى . وتولى تسميته ولم يشرك فيها من تقدمه . وذكرها لنا كبر هبة لنا ، في تعريف مقام النبوة ، وقدرة الله وعنايته بصفوته . « إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ وَ نِدَاءً خَفِيًّا » ظرف لـ (رحمة) أو بدل اشتمال من (زكريا) والنداء في الأصل رفع الصوت وظهوره . والمراد به الدعاء . وقد راعى أدب الدعاء ، وهو إخفاؤه ، لكونه أبعد عن الرياء ، وأدخل في الإخلاص . ثم فسر الدعاء بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا)

« قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي » أى ضعف . قال الزمخشري : وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن . وبه قوامه ، وهو أصل بنائه . فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته . ولأنه أشد ما فيه وأصلبه . فإذا وهن كان ماوراءه أوهن . ووحدته ، لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية ، المنبئة عن شمول الوهن بكل فرد من أفرادها . وقرئ (وَهْنٌ) بكسر الهاء وضمها « وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا » قال الزمخشري : شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته ، وانتشاره في الشعر وفشوه فيه ، وأخذه منه كل مأخذ - باشتعال النار . ثم أخرجه مخرج الاستعارة . ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس . وأخرج الشيب ميمزاً ولم يصف الرأس اكتفاءً بعلم المخاطب أنه رأس زكريا . فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة . وظاهره أن فيه استعارتين مبينتين على تشبيهين : أولاها تصريحية تبعية في (اشتعل) بتشبيه انتشار المبيض في المسود باشتعال النار ، كما قال ابن دريد في (مقصورته) .

إِنَّمَا تَرَى رَأْسِي حَاكِي لَوْنُهُ طَرَّةً صَبَحَ تَحْتَ أَذْيَالِ الدَّجَالِ
وَاشْتَعَلَ الْمَبِیْضُ فِي مَسْوَدَةٍ مِثْلَ اشْتِعَالِ النَّارِ فِي جَزْلِ الْغَضَا

والثانية مكنية . بتشبيه الشيب ، في بياضه وإنارته ، باللهب . وهذا بناء على أن المكنية قد تنفك عن التخيلية ، وعليه المحققون من أهل المعاني . وقيل : إن الاستعارة هنا تمثيلية . فشبّه حال الشيب بحال النار ، في بياضه وانتشاره « وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا » أى ولم أكن بدعائي إياك خائباً في وقت لم أعود منك إلا الإجابة في الدعاء ، ولم تردني قط . وهذا توسل منه إلى الله تعالى بما سلف له معه من الاستجابة ، إثر تمهيد ما يستدعي

الرحمة ويستجلب الرأفة ، من كبر السن وضعف الحال . فإنه تعالى بعد ما عود عبده بالإجابة دهرًا طويلًا ، لا يكاد يخيبه أبدًا . لاسيما عند اضطراره وشدة افتقاره .

تنبيه :

استفيد من هذه الآيات آداب الدعاء وما يستحب فيه . فمنها الإسرار بالدعاء ، لقوله (خَفِيًّا) ومنها استحباب الخضوع في الدعاء وإظهار الذل والمسكنة والضعف لقوله (وَأُسْتَعَلَّ الرَّأْسُ شَيْبًا) ومنها التوسل إلى الله تعالى بنعمه وعوائده الجميلة لقوله (وَلَمْ أَكُنْ) الخ كما قدمنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأَى وَكَانَتْ أُمْرَاتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا)

[٦] (يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا)

« وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأَى » أى الذين يلون أمر رهطى من بعد موتى ، لعدم صلاحية أحد منهم لأن يخلفنى فى القيام بما كنت أقوم به ، من الإرشاد ووعظ العباد ، وحفظ آداب الدين . والتمسك بهديه المتين « وَكَانَتْ أُمْرَاتِي عَاقِرًا » أى لا تلد من حين شبابها « فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ » أى هب لى ولدا ، يلى من الأمر ما كنت إليه وارثًا ، لى ولآل يعقوب ، فى العلم والنبوة . وفى قوله (مِنْ لَدُنْكَ) إعلام بأنه من محض الفضل وخرق العادة . لعدم صلاحية زوجه للحمل . وتنويه به لكونه مضافًا إلى الله تعالى ، وصادرًا من عنده . و (آل يعقوب) أولاده الأنبياء ، عليهم السلام . « وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا » أى مرضيًّا عندك قولاً وفعلًا .

ثم بين تعالى استجابة دعاء زكريا بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (يَزَكِّرِيَا إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ أُسْمُهُ وَيَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا) « يَزَكِّرِيَا إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ أُسْمُهُ وَيَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا »
 أى مثلاً وشبهها . وعن ابن عباس : لم تلد العواقر قبله مثله . وروى أنه لم يعص ، ولم يهمل بمعصية قط .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا) « قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا »
 أى حالة لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها . وقيل : إلى رياضته . وهى الحال المشار إليها بقول الشاعر :

* ومن العناء رياضة الهرم *

قاله الراغب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا) « قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا »
 أى من إنسان ونطفة وعلقة وعناصر ، ثم وجدت .
 قال الزمخشري : فإن قلت : لم طلب أولاً ، وهو وامرأته على صفة العتي والعقر ، فلما أسعف بطلبته استبعد واستعجب ؟ قلت : ليجاب بما أجيب به ، فيزداد المؤمنون إيقاناً ، ويرتدع المبطلون . وإلا فمعتد زكريا أولاً وآخر ، كان على منهاج واحد ، فى أن الله غنى عن الأسباب . انتهى .

وقال أبو السعود : إنما قاله عليه السلام ، مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله ، لا سيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة في سورة آل عمران ، استعظماً لقدرة الله تعالى ، وتعجبياً منها ، واعتداداً بفعلمته تعالى عليه في ذلك ، بإظهار أنه من محض لطف الله عز و علا وفضله . مع كونه في نفسه من الأمور المستحيلة عادة ، لا استبعاداً له . وقيل : كان ذلك منه استنفهاً عن كيفية حدوثه . أى : أيسكون الولد ونحن كذلك؟ فقيل : كذلك . أى يكون الولد وأنتم كذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً ، قَالَ ءَايَتُكَ ءَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا)

« قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً » أى علامة تدلنى على تحقق المسئول ووقوع الحمل ، ليطمئن قلبى « قَالَ ءَايَتُكَ ءَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا » أى : أن لا تقدر على تكليمهم ، حال كونك سوياً ، بلا مرض فى بدنك ، ولا فى لسانك .

لطيفة :

إنما ذكر « الليالى » هنا ، و (الأيام) فى آل عمران ، للدلالة على أنه استمر عليه المنع من كلام الناس ، والتجرد للذكر والشكر ثلاثة أيام بلياليها . والعرب تتجاوز أو تكتفى بأحدهما عن الآخر . والنسكتة فى الاكتفاء بـ (الليالى) هنا وبـ (الأيام) ثم ، أن هذه السورة مكية سابقة النزول . وتلك مدنية . والليالى عندهم سابقة على الأيام . لأن شهورهم وسنيتهم قمرية ، إنما تعرف بالأهلة . ولذلك اعتبروها ، فى التاريخ ، كما ذكره النحاة ، فأعطى السابق للسابق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا)

« فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ » أى مصلاه أو غرفته « فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ » أى أشار إليهم رمزاً « أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » أى صلوا لله طرفى النهار . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى:

[١٢] (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ، وَءَاْتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا)

« يَا يَحْيَى » استئناف ، طوى قبله جمل كثيرة ، مسارعة إلى الإنشاء بإنجاز الوعد الكريم . وهو وجود هذا الغلام المبشّر به ، وتعليمه التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم ، ويحكم^(١) بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأخبار ، وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً . فلهذا نوه بذكره ، وبما أنعم عليه وعلى والديه . أى : قلنا (يا يحيى) « خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ » أى تعلم التوراة بجدّ وحرص واجتهاد . « وَءَاْتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا » أى الحكمة وفهم التوراة والعلم والاجتهاد فى الخير ، وهو صبيٌّ . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ، وَكَانَ تَقِيًّا)

[١٤] (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا)

« وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا » أى وآتيناه حناناً : وهو التحنن والتمطف والشفقة . وتنوينه للتفخيم . أى رحمة عظيمة يشفق بها على الخلق . أو حناناً من الله عليه « وَزَكَاةً » أى طهارة من الذنوب ، وعصمة بليغة منها « وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا » بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا « أى متكبراً عاقباً لها ، أو عاصياً لربه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا)

« وَسَلِّمْ عَلَيْهِ » أى من الله « يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا » أى ليستقبل النعيم الأبدى . و (السلام) بمعنى السلامة والأمان من الآفات . وفيه معنى التحية والتشريف .

وفى ذكر الأحوال الثلاث ، زيادة فى العناية به ، صلوات الله وسلامه عليه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا)

« وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ » أى القرآن « مَرْيَمَ » أى نبأها « إِذِ انْتَبَذَتْ » أى اعتزلت وانفردت « مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا » أى شرقى بيت المقدس . لئلا يشغلوها عن العبادة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا)

« فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا » أى لئلا تحجبها رؤية الخلق عن أنوار الحق « فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا » أى جبريل المنسوب إلى مقام عظمتنا ، لغاية كماله ، لينفخ فيها « فَتَمَثَّلَ لَهَا » أى فتصور لرؤيتها « بَشَرًا سَوِيًّا » أى سوى الخلق ، كامل الصورة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا)

« قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ » أى أعتصم به منك . إنما خافته لانفرادها فى خلوتها ، وظنها أنه يريد لها على نفسها . وفى ذلك من الورع والعفاف مالا غاية وراءه « إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا » أى تتقى الله تعالى ، وتبالى بالاستعاذة به . وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة السياق عليه . أى فإنى عائذة به . أو فلا تتعرض لى . وإنما ذكرته بالله تعالى ، لأن المشروع فى الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل . نخوفته أولاً بالله عز وجل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا)

« قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ » أى لا تخافى ولا تتوقعى ما توهمت . فإنى رسول ربك

الذى استعذت به ، بمعنى إليك « لِأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا » أى لاكون سبياً في هبته .
و (الزكى) الطاهر من الذنوب أو النامى على الخير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا)

« قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا » أى تعجبت من هذا
وقالت : كيف يكون لى غلام ، أى على أى صفة يوجد منى ، ولست بذات زوج ولا يتصور منى الفجور؟
قال الزمخشري : جعل المس عبارة عن الفساح الحلال ، لأنه كناية عنه . كقوله
تعالى ^(١) (مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ) ^(٢) (أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ) والزنى ليس كذلك . وإنما
يقال فيه (فَجَّرَ بَهَا) ، وخبث بها) وما أشبه ذلك . وليس بيمين أن تراعى فيه الكنايات والآداب .
وإنما اقتصر فى سورة آل عمران على قوله ^(٣) (وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ) لكون هذه السورة
متقدمة النزول عليها . فهى محل التفصيل . بخلاف تلك . فلذا حسن الاكتفاء فيها . وقيل :
جعل المس ثم ، كناية عنهما ، على سبيل التغليب . و (البغى) الفاجرة التى تبغى الرجال .
ووزنه (فعول) ولذا لم تلحقه التاء ، لأنه يستوى فيه المذكر والمؤنث ، وإن كان بمعنى فاعل
كصبور . أو فعيل بمعنى فاعل ، ولم تلحقه التاء لأنه للمبالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيِّئٌ ، وَلَنَجْعَلَ لَوَءِىةً لِلنَّاسِ
وَرَحْمَةً مِنَّا ، وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا)

« قَالَ » أى الملك « كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيِّئٌ وَلَنَجْعَلَ لَوَءِىةً لِلنَّاسِ » أى

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٧] . (٢) [٤ / النساء / ٤٣] و [٥ / المائدة / ٦] .

(٣) [٣ / آل عمران / ٤٧] .

برهاناً يستدلون به على كمال قدرة بارئهم وخالقهم الذى نوع خلقهم. نخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى . وخلق حواء من ذكر بلا أنثى. وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر. فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه «وَرَحْمَةً مِنَّا» أى عليك بهذه الكرامة، وعلى قومك بالهداية والدعاء إلى عبادة الله وتوحيده، فيمتدنون بهديه ويسترشدون بإرشاده . وقوله « وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا » من تنمة كلام جبريل لمريم . يخبرها أن هذا أمر مقدر فى علم الله تعالى وقدره ومشيئته . أو من خبره تعالى لنبيه صلوات الله عليه . وأنه كنى به عن النفخ فى فرجها . كما قال تعالى (١): (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا) وقال (٢) (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا)

«فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا» أى لما صارت حاملاً به، اعتزلت بسببه مكاناً بعيداً من قومها، فراراً من القالة . وقد روى عن السلف أن جبريل لما قال لها، عن الله تعالى، ما قال، مما تقدم، استسلمت لقضاء الله تعالى فاطمأنت إلى قوله . فدنا منها فنفخ فى جيب درعها . فسرت النفخة حتى ولجت فى الفرج، فحملت بإذن الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا)

« فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ » أى: فألجأها ألم الولادة إلى الاستناد بالجذع

(١) [٦٦ / التحريم / ١٢] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٩١] .

لتعتمد عليه وتستتر به . و (أجا) - قال الزمخشري - منقول من (جاء) إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء . وقرئ (المخاض) بكسر الميم وكلاهما مصدر (مخضت المرأة) إذا تحرك الولد في بطنها للخروج « قَالَتْ يَا أَيَّتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا » أى الحمل « وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا » أى شيئاً نافهاً ، شأنه أن ينسى ولا يعتمد به . منسياً لا يخطر على بال أحد . وهو نعت للمبالغة . وإنما قالت ذلك ، لما عرفت أنها ستبلى وتمتحن بهذا المولد ، الذى لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد . فلحقها فرط الحياء وخوف اللائمة إذا بهتوها وهى عارفة ببراءة الساحة ، وبصد ماقرت به ، من اختصاص الله بإياها بغاية الإجلال والإكرام - قال الزمخشري - لأنه مقام دحض ، فلما ثبت عليه الأقدام ، أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر ، تستحق به المدح وتستوجب التعظيم ، ثم تراه عند الناس لجهلهم به - عيباً يعاب به ويعنف بسببه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا)

« فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا » أى من مكان أسفل منها ، تحت أكمة ، وهو جبريل . وقيل : هو عيسى ، وقرئ (مَنْ) بفتح الميم موصولة « أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا » أى سيداً نبيلاً رفيماً ، وقيل : نهراً يسرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَهُزِّيْ إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا غَنِيًّا)

« وَهُزِّيْ إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا غَنِيًّا » أى حضراً أو أن اجتنائه . قال الزمخشري : فإن قلت : ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلى بالسرى والرطب ! قلت : لم تقع التسلية بهما من حيث إنهما طعام وشراب ، ولكن من حيث إنهما معجزتان تريان

الناس أنها من أهل العصمة ، والبعد من الريبة ، وأمن مثلها ، مما قرفوها به ، بعزل . وأن لها أموراً إلهية خارجة عن العادات ، خارقة لما ألفوا واعتادوا ، حتى يتبين لهم أن ولادها من غير فحل ليس بيدع من شأنها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (فَكُلِّي وَأُشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ، فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا)

« فَكُلِّي وَأُشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا » أي بالسكال والولد المبارك ، الموجود بالقدر ، الموهوب بالعناية . قال الرمخسري : أي جمعنا لك في السرى والرطب فائدتين : إحداهما الأكل والشرب والثانية سلوة الصدر ، لكونهما معجزتين . وهو معنى قوله (فَكُلِّي وَأُشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا) أي وطببي نفسي ولا تغتمعي . وارفضي عنك ما أحزنك وأهملك « فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا » أي من المحجوبين عن الحقائق بطواهر الأسباب ، الذين لا يفهمون قولك ولا يصدقون بحالك . لوقوفهم مع العادة واحتجابهم عن نور الحق . فإذا سألك « فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا » أي لا تكلمهم في أمرك شيئاً . ولا تناديهم فيما لا يمكنهم قبوله . وإنما أمرت بذلك لكرهية مجادلة السفهاء ، والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام . فإنه نص قاطع في براءة ساحتها ، فقوله (صَوْمًا) . أي صمتاً . وقوله (فَلَنْ أُكَلِّمَ) الخ تفسير للنذر بذكر صيغته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا يَمْرِيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا) « فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا يَمْرِيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا » أي عظيم منكرًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (يَسْأَلُكَ هَارُونُ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا)

« يَسْأَلُكَ هَارُونُ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا » استئناف

لتجديد التعبير ، وتأكيـد التوبيخ ، وتقدير لكون ما جاءت به فرىا . و (هارون) هو

النبيّ الشهير ، صلوات الله عليه يعنون أنها مثله في الصلاح . لأن الأخ والأخت يستعمل

بمعنى (المشابه) كثيرا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ، قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا)

« فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ، قَالُوا » منكرين لجوابها « كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا »

ولم يمهـد تسكليم عاقل لصبيّ في المهد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا)

[٣١] (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)

« قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ » أنطقه الله بذلك . أولاً تحقيقاً للحق في شأنه وتنزيهاً لله تعالى

عن الولد ، ردّاً على من يزعم ربوبيته ونبوّته « ءَاتَنِي الْكِتَابَ » أى الإنجيل « وَجَعَلَنِي

نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ » أى كثير الخير حيثما وجدت . أبلغ وحى ربي

لتقويم النفوس وكبح الشهوات والأخذ بما هو مناط السعادات . والتعبير بلفظ الماضي

في الأفعال الثلاثة ، إما باعتبار ماسبق في القضاء المحتوم ، أو جعل الآتى ، لا محالة ، كأنه وجد

« وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا » أى أمرنى بالعبادة وإنفاق المال مدة حياتى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا)

[٣٣] (وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا)

[٣٤] (ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ)

[٣٥] (مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ، سُبْحَانَهُ ، إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ)

[٣٦] (وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ ، هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

«وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا» أى مستكبراً عن طاعته وأمره «وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَٰلِكَ» أى الذى فصلت نعوته الجليلة وخصائصه الباهرة «عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» أى لا ما يصفه به النصارى . وهو تكذيب لهم ، فيما يزعمونه ، على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهانى . حيث جعله موصوفاً بأضداد ما يصفونه «قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ» إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ * أى : ومن هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد؟ وهذا كقوله تعالى (١) «إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» ثم أشار إلى تنمة كلام عيسى من الأمر بعبادته تعالى وحده ، بقوله سبحانه «وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» أى قويم . من اتبعه رشد وهدى . ومن خالفه ضلّ وغوى .

(١) [٣ / آل عمران / ٦٠ و ٥٩] .

تنبيهات في فوائد هذه القصة

الأول - لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام ، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ، ولدًا زكيًا طاهرًا مباركًا ، عطف بذكر قصة مريم في إيجاد ولدها عيسى عليهما السلام منها من غير أب . فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة . ولهذا ذكرها في آل عمران ، وهما ، وفي سورة الأنبياء . يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى ، ليدل عباده على قدرته وعظمته سلطانه . وأنه على ما يشاء قدير . و (مريم) هي بنت عمران . من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل . وقد ذكر تعالى ولادة أمها لها في سورة آل عمران . وأنها نذرتها محررة للعبادة . وأنه قبلها ربهما بقبول حسن . وأنتها نباتًا حسنًا فنشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة . فكانت إحدى الناسكات المتبتلات . وكانت في كفالة زكريا ورأى لها من الكرامات ما بهره فقد كان يجد عندها كلما دخل عليها المحراب رزقا . كما تقدم في سورة آل عمران .

الثاني - استدل بقوله تعالى ^(١) : (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا) من قال نبوة مريم . واستدل بقوله تعالى عنها ^(٢) . (يَلْمِزْنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا) على جواز تمنى النون لمثل تلك الحال . وبقوله تعالى ^(٣) . (وَهَزَى إِلَيْكَ الْجِدْعَ الْفُجْعَةَ) على التسبب في الرزق ، وتكافؤ الكسب وإليه أشار القائل :

ألم تر أن الله قال لمريم
ولو شاء أحنى الجذع من غير هز
وهزى إليك الجذع يساقط الرطب
إليها . ولكن كل شيء له سبب

وفي الآية أصل لما يقوله الأطباء ، إن الرطب ينفع النساء . واستدل بقوله تعالى : (فَأَسَارَتْ إِلَيْهِ) (بَدَا) (فَلَنَ أَكْلِمَ الْيَوْمَ نَسِيًّا) على أن الخالف (لا يتكلم أو لا يكلم فلانا) لا يبحث بالإشارة . وعلى أن السكوت عن السفه واجب ، كما استنبطه الزمخشري ، قال :

(١) [١٩ / مريم / ١٧ . (٢) [١٩ / مريم / ٢٣] . (٣) [١٩ / مريم / ٢٥] .

ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها . وفي قوله تعالى (مَا كَانَ أَبُوكِ أُمْرًا سَوْءًا) معنى قولهم في المثل : من أشبه أباه فما ظلم . وفيه أيضاً تنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أخفش .

الثالث - نقل الرازي عن القاضي في قوله تعالى^(١) : (وَأُسَلِّمُ عَلَيْ) الخ أن السلام عبارة عما يحصل به الأمان . ومنه السلامة في النعم وزوال الآفات . فكأنه سأل ربه وطلب منه ما أخبر الله تعالى أنه فعله ببيحي . ولا بد في الأنبياء من أن يكونوا مستجابي الدعوة . وأعظم أحوال الإنسان احتياجاً إلى السلامة هي هذه الأحوال الثلاثة : وهي يوم الولادة ويوم الموت ويوم البعث . فجميع الأحوال التي يحتاج فيها إلى السلامة واجتماع السعادة من قبله تعالى ، طلبها ليكون مصوناً عن الآفات والخافات في كل الأحوال .

الرابع - قال القاشاني : وإنما تمثل لها بشراً سوى الخلق حسن الصورة ، لتأثر نفسها به وتستأنس . فتتحرك على مقتضى الجبلة . ويسرى الأثر من الخيال في الطبيعة . فتتحرك شهوتها فتتزل كما يقع في المنام من الاحتلام وتنقذ نفطها في الرحم فيتخلق منه الولد . وقد مر أن الوحي قريب من المنامات الصادقة ، لهذه القوة البدنية وتعطلها عن أفعالها عنده كما في النوم . فكل ما يرى في الخيال من الأحوال الواردة على النفس الناطقة المسماة في اصطلاحنا (قلباً) والاتصالات التي لها بالأرواح القدسية ، يسرى في النفس الحيوانية والطبيعية وينفعل منه البدن . وإنما أمكن تولد الولد من نقطة واحدة . لأنه ثبت في العلوم الطبيعية أن منى الذكر في تكوين الولد ، بمنزلة الإنقحة في الجبن . ومنى الأنثى بمنزلة اللبن ، أي العقد من منى الذكر والاعتقاد من منى الأنثى . لاعلى معنى أن منى الذكر ينفرد بالقوة العاقدة ومنى الأنثى بالقوة المنعقدة ، بل على معنى أن القوة العاقدة في منى الذكر أقوى . والمنعقدة في منى الأنثى أقوى . وإلا لم يمكن أن يتحد شيئاً واحداً . ولم ينمقد منى الذكر حتى يصير جزءاً من الولد . فعلى هذا إذا

كان مزاج الأنثى قويا ذكوريا ، كما تكون أمزجة النساء الشريفة النفس القوية القوى ، وكان مزاج كبدها حاراً ، كان المنى المنفصل عن كليتها اليمنى أحرّ كثيراً من الذى ينفصل من كليتها اليسرى . فإذا اجتمعا فى الرحم ، كان مزاج الرحم قوياً فى الإمساك والجذب ، قام المنفصل فى السكينة اليمنى ، مقام الذكر فى شدة قوة العقد . والمنفصل من السكينة اليسرى مقام منى الأنثى فى قوة الانعقاد ، فيتخلق الولد هذا . وخصوصاً إذا كانت النفس متأيدة بروح القدس ، متقوية ، يسرى أثر اتصالها به إلى الطبيعة والبدن ، وبغير المزاج ويمد جميع القوى فى أفعالها بالمدد الروحاني ، فيصير أقدر على أفعالها بما لا ينضبط بالقياس . والله أعلم .

ثم قال فى قوله تعالى : (وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا) فى اللوح مقدرآ فى الأزل . وعن ابن عباس : فاطمأت إليه بقوله : (إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) فدنا منها فنفخ فى جيب الدرع ، أى البدن ، وهو سبب إنزالها على ما ذكرنا . كالغلمة مثلاً والمعانقة التى كثيرا ما تصير سبباً للإنزال . وقيل : إن الروح المتمثل لها هو روح عيسى عليه السلام عند نزوله واتصالها بها وتعلقه بنطفتها . والحق أنه روح القدس . لأنه كان السبب الفاعل لوجوده كما قال : (لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) . واتصال روح عيسى بالنطفة إنما يكون بعد حصول النطفة فى الرحم ، واستقرارها فيه ، ريثما تمتزج وتتحد وتقبل مزاجاً صالحاً لقبول الروح . انتهى .

الخامس - التمثيل مشتق من المثل . ومعناه التصور . وفيه دليل على أن الملك يتشكل بشكل البشر .

فال إمام الحرمين : تمثل جبريل معناه أن الله أفنى الزائد من خلقه أو أزاله عنه . ثم يعيده إليه بعد .

وجزم ابن عبد السلام : بالإزالة دون الفناء وقرر ذلك بأنه لا يلزم أن يكون انتقالها

موجباً لموته ، بل يجوز أن يبقى في الجسد حياً . لأن موت الجسد بمفارقة الروح ليس بواجب عقلاً ، بل عبادة أجزاها الله تعالى في بعض خلقه ، ونظيره انتقال أرواح الشهداء إلى أجواف طيور خضر تسرح في الجنة .

وقال البلقيني : ما ذكره إمام الحرمين لا ينحصر الحال فيه . بل يجوز أن يكون الآتي جبريل بشكاه الأصلي . إلا أنه انضم فصار على قدر هيئة الرجل . وإذا ترك ذلك عاد إلى هيئته . ومثال ذلك القطن ، إذا جمع بعد أن كان منتفشاً . فإنه بالنفش يحصل له صورة كبيرة ، وذاته لم تتغير . وهذا على سبيل التقريب . والحق أن تمثل الملك رجلاً ليس معناه أن ذاته انقلبت رجلاً ، بل معناه أنه ظهر بتلك الصورة تأنيساً لمن يحاط به . والظاهر أيضاً أن القدر الزائد لا يزول ولا يفنى ، بل يخفى على الرأي فقط . والله أعلم . كذا قال ابن حجر في فتح الباري .

ولا يخفى أن هذا البحث من الرجم بالغيب ، واقتفاء مالم يحيط بكنهه . فالخوض فيه عبث ينتهي خائضه إلى حيث ابتدأ . لأنه من عالم الغيب الذي لا يصل علمنا إليه ولن يصل إليه بمجرد العقل . ولم يرد عن المعصوم عليه السلام فيه نص قاطع . وكل ما كان كذلك فليس من شأننا أن نبحت فيه . فاعرف ذلك فإنه ينفعك في مواضع عديدة .

السادس - قال بعضهم : أصل كلمة (عيسى) يسوع . فخرفه اليهود إلى (عيسو) تهـ كما فحوله العرب إلى (عيسى) تشبهاً باسم موسى . ولبدل الواو بالألف سبب مبني على قواعد اللغة العبرانية ، بل والعربية انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ

يَوْمٍ عَظِيمٍ)

« فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ » أي اختلف قول أهل الكتاب في عيسى ، بعد بيان أمره

ووضوح حاله . وأنه عبده ورسوله وكنيته ألقاها إلى مريم وروح منه . فأصرت اليهود منهم على بهت أمه وقرفه بالسحر . وانقسمت النصارى في أمره انقساماً يفوت الحصر . وكله ضلال وشرك وكفر . وقد هدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه . وهذا من فضله تعالى ومثله « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ » يعنى بالذين كفروا ، المختلفين . عبر عنهم بالموصول إيداناً بكفرهم جميعاً وإشعاراً بعلّة الحكم . وفى (مَشْهَدٍ) ستة أوجه . لأنه مصدر ميميّ أو اسم زمان أو مكان . وعلى كل فهو إما من (الشهود) أى الحضور أو (الشهادة) . وهذا معنى قول الزمخشريّ : أى فى شهودهم هول الحساب والجزاء إلى يوم القيامة . أو من مكان الشهود فيه وهو الموقف . أو من وقت الشهود . أو من شهادة ذلك اليوم عليهم ، وأن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وسوء الأعمال . أو من مكان الشهادة أو وقتها .

وقيل : معناه ماشهدوا به فى عيسى وأمه . فعظمه لعظم ما فيه أيضاً . كقوله ^(١) (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) وفيه وعيد لهم وتهديد شديد . وذلك لأنه لا أظلم ممن كذب بالحق لما جاءه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا ، لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

« أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا » تعجب من حدة سمعهم وأبصارهم يومئذ . ومعناه

أن أسمعهم وأبصارهم يوم يأتوننا للحساب والجزاء جدير بأن يتعجب منهما بعد أن كانوا فى الدنيا صما عمياً . والآية كقوله تعالى ^(٢) (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا) الآية أى يقولون ذلك حين لا يجدى عنهم شيئاً . ولو كان هذا قبل معاينة العذاب لأجدى « لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ » أى فى الدنيا « فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »

(١) [١٨ / الكهف / ٥] . (٢) [٣٢ / السجدة / ١٢] .

لإغفالهم الاستماع والنظر . فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون . قال الزمخشري : أوقع الظاهر أعنى (الظالمين) موقع الضمير ، إشعاراً بأن لا ظلم أشد من ظلمهم ، حيث أغفلوا الاستماع والنظر ، حين يجدى عليهم ويسعدهم .

تنبيه :

إنما أول التعجب في الآية بما ذكر ، وأنه مصروف للعباد الذين يصدر منهم التعجب ، لأن صدوره من الله تعالى محال . إذ هو كيفية نفسانية تنشأ عن استعظام مالا يدرى سببه . ولذا قيل : إذا ظهر السبب بطل العجب . والمعنى تعجبوا من سمعهم وإبصارهم حيث لا ينفعهم ذلك . فهي كقوله تعالى ^(١) (فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) أفاده الشهاب .

وهذه طريقة المتكلمين في تأويل ما يشترك في الإضافة إليه تعالى وإلى خلقه من الصفات المروية . وطريقة الساف المحققين إثبات ماورد به السمع مع نفى التشبيه . إذ لا اتحاد بين صفات الخالق وصفات المخلوق . فما يضاف إليه تعالى هو على النحو الذي يجب أن يكون عليه جل جلاله . فما يقدر في حق المخلوقين من الصفات مستلزماً للمحال ، لا يجب أن يكون في حقه تعالى مستلزماً لذلك . كما أن العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام فينا ، يستلزم من النقص والحاجة ، ما يجب تنزيه الله عنه . وكذلك الوجود والقيام بالنفس فينا ، يستلزم احتياجاً إلى خالق يجعلنا موجودين . والله منزّه في وجوده عما يحتاج إليه وجودنا . ففجن وصفاتنا وأفعالنا . مقرونون بالحاجة إلى الغير . والحاجة لنا أمر ذاتي لا يمكن أن نخلو عنه . وهو سبحانه ، الغنى له أمر ذاتي لا يمكن أن يخلو عنه . فهو بنفسه حيّ قيوم واجب الوجود ، ونحن بأنفسنا محتاجون فقراء . فإذا كانت ذاتنا وصفاتنا وأفعالنا وما اتصفنا به من الكمال ، من العلم والقدرة وغير ذلك ، هو مقرون بالحاجة والحدوث والإمكان ، لم يجب أن لا يكون لله ذات

(١) [٥٠ / ق / ٢٢] .

ولا صفات ولا أفعال، وأن لا يقدر ولا يعلم . لكون ذلك ملازماً للحاجة فينا . فكذلك كل ما جاء به السمع من الصفات ، إذا قدر أنه في حقنا ملازم لحاجة وضعف ، لم يجب أن يكون في حق الله تعالى ملازماً لذلك . هذا ما قرره الإمام تقي الدين بن تيمية في خلال بعض فتاويه . وكلامه هذا بمثابة القاعدة الكلية لأمثال هذا الموضوع . فاحفظه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ، وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

[٤٠] (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)

«وَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ» أى فرغ من الحساب وفصل بين أهل الجنة والنار ، وصار كلٌّ إلى ما صار إليه مخلداً فيه «وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ» أى وهم اليوم مستغرقون في غفلة عما يفعل بهم في الآخرة «وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» أى لا يصدقون به اليوم وسيماينونه . ثم أمر تعالى رسوله أن يتلو عليهم نبأ إبراهيم لكونهم ينتمون إليه فيعتبروا في توحيد الخالص ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا)

[٤٢] (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا)

«وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا» بليغ التصديق بما يجب لله من الوحداية والتنزيه «نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ» أى مُتَلَطِّفًا في دعوته إلى التوحيد ونهيه عن عبادة الأصنام «يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا» أى أى فلا يدفع ضرراً ولا يجلب نفعاً .

قال أبو السعود : ولقد سلك عليه السلام في دعوته أحسن منهاج ، وأقوم سبيل . واحتج عليه

أبدع احتجاج بحسن أدب وخلق جميل . لئلا يركب متن المسكارة والعناد . ولا ينسكب ، بالسكينة ، عن محجة الرشاد . حيث طلب منه علة عبادته لما يستخف به عقل كل عاقل ، من عالم وجاهل ويأبى الركون إليه ، فضلاً عن عبادته التي هي الغاية القاصية من التعظيم . مع أنها لا تحق إلا لمن له الاستغناء التام ، والإنعام العام . الخالق الرازق المحيي المميت الميثب المعاقب . ونبه على أن العاقل يجب أن يفعل كل ما يفعل ، لداعية صحيحة وغرض صحيح . والشئ لو كان حياً حميماً سمياً بصيراً ، قادراً على النفع والضرر ، مطيقاً بإيصال الخير والشر ، لكن كان ممكناً ، لاستنكف العقل السليم عن عبادته . وإن كان أشرف الخلائق . لما يراه مثله في الحاجة والانقياد للقدرة القاهرة الواجبة . فما ظنك بجهاد مصنوع من حجر أو شجر ، ليس له من أوصاف الأحياء عين ولا أثر ؟ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا) « يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ » أى وحق القاصر اتباع الإنسان الكامل « فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا » أى معتدلاً لا إفراط فيه بعبادة من لا يستحق ، ولا تفريط بترك عبادة من يستحق ، وكذا في باب الأخلاق والأعمال . قال المهايى : أى وإن كان حق الابن اتباع الأب في العرف ، لكنه باطل . لأن الحق اتباع الصواب . قال الزمخشري : نئى عليه السلام بدعوته إلى الحق مترقياً به متلطفاً . فلم يسم أباه بالجهل المفرط ، ولا نفسه بالعلم الفائق . ولكنه قال : إن معنى طائفة من العلم وشيئاً منه ليس معك ، وذلك علم الدلالة على الطريق السوى . فلا تستنكف . وهب أنى وإياك فى مسير ، وعندى معرفة بالهداية دونك ، فاتبعنى أنجك من أن تضل وتنتيه .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٤٤] (يَا بَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا)

«يَا بَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا» .

ثلث عليه السلام بتبسيطه ونهيه عما كان عليه، بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل، ببيان أنه مع عرائه عن النفع بالمرة، مستجلب لضرر عظيم، فإنه في الحقيقة عبادة الشيطان. لما أنه الأمر به والمسؤول له، وقوله: (إِنَّ الشَّيْطَانَ) الخ تعليل لموجب النهي وتأكيده، ببيان أنه مستعص على ربك الذي أنعم عليك بفنون النعم. ولا ريب في أن الطمع للعاصي عاص. والإظهار في موضع الإضمار لزيادة التقرير. والافتصار على ذكر عصيانه من بين سائر جزاياته، لأنه ملاكها. والتعرض لعنوان الرحمانية، لإظهار كمال شناعة عصيانه. أفاده أبو السعود.

القول في تأويل قوله تعالى:

[٤٥] (يَا بَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ

وَلِيًّا)

«يَا بَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ» لكونك عصيته واليت عدوه، فيقطع رحمته عنك، كما قطعها عن الشيطان «فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا» أى مقارناً له ومشاركاً معه في عذابه .

قال الزخسرى: رُبَّعَ عليه السلام بتخويفه سوء العاقبة، وبما يجره ما هو فيه من التبعة والوبال. ولم يخل ذلك من حسن الأدب، حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له، وأن العذاب لاصق به، ولكنه قال (أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ) فذكر الخوف والمس وفكر العذاب. وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه، أكبر من العذاب. وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله (يَا بَتِ) توسلاً إليه واستعطافاً. وقوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَٰٓأَيُّهَا بَرَاهِيمُ ، لَئِنْ لَّمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ ، وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا)

« قَالَ » أى أبوه ، مصرًّا على عناده لفرط غلوّه فى الضلال « أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَٰٓأَيُّهَا بَرَاهِيمُ » أى : أ معرض ومنصرف أنت عنها . وإنما قدم الخبر على المبتدأ ، لأنه كان أهم عنده . وصدره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة ، على ضرب من التعجب . كأن الرغبة عنها مما لا يصدر عن العاقل ، فضلًا عن ترغيب الغير عنها . وفيه تسليّة للرسول صلوات الله عليه ، عما كان يلقى من مثل ذلك من كفار قومه .

وقوله « لَئِنْ لَّمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ » تهديد متناه . أى لئن لم تنته عن القول فيها ، وعن نصحك ، لأرجمك بالحجارة « وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا » أى تباعد عني زمانًا طويلًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ، سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ، إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا)

« قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا » أى مبالغًا فى اللطف بى . وفى جوابه بقوله عليه السلام (سَلَامٌ عَلَيْكَ) مقابلة السيئة بالحسنة . كما قال تعالى ^(١) (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) أى لا أصيبك بمكروه بعد . ولكن سادعوا ربى أن يغفر لك . كما قال ^(٢) (وَأَغْفِرْ لِأَبِي) قال الزمخشري : وفى الآية دليل على جواز متاركة النصوح ، والحال هذه . ويجوز أن يكون دعا له بالسلامة ، استمالة له . ألا ترى أنه وعده بالاستغفار؟

وفى (الإكليل) : استدل بعضهم بالآية على جواز ابتداء الكافر بالسلام .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٣] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ٨٦] .

وقال ابن كثير : قد استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه مدة طويلة ، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام . وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحق في قوله ^(١) (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) وقد استغفر المسلمون لقرباتهم وأهلهم من المشركين في ابتداء الإسلام . وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل في ذلك . حتى أنزل الله تعالى ^(٢) (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ وَأَنْفُسُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) إلى قوله (إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ) يعنى إلا في هذا القول ، فلا تتأسوا به . ثم بين تعالى أن إبراهيم أقبل عن ذلك ورجع عنه ، فقال تعالى ^(٣) (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ) إلى قوله (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا)

« وَأَعْتَزِلُكُمْ » أى أتباعك عنك وعن قومك بالهجرة « وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أى من أصنامكم .

قال الزمخشري : المراد بالدعاء العبادة ، لأنه منها ومن وسائلها . ومنه قوله عليه السلام ^(٤) : الدعاء هو العبادة . ويدل عليه قوله تعالى ^(٥) (فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(١) [١٤ / إبراهيم / ٤١] . (٢) [٦٠ / المتحنة / ٤] . (٣) [٩ / التوبة / ١١٣ و ١١٤] .
(٤) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ١٦ - حدثنا هناد ، عن النعمان بن بشير . (٥) [١٩ / مريم / ٤٩] .

« وَادْعُوا رَبِّي » أى أعبدوه وحده « عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا » أى خائبًا ضائع السعى . وفيه تعريض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم ، مع التواضع لله بكلمة (عَسَى) ، وما فيه من هضم النفس ومراعاة حسن الأدب ، والتنبيه على أن الإجابة والإثابة بطريق التفضل منه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (فَلَمَّا أُعْتِزَ لَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُوَ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا)

« فَلَمَّا أُعْتِزَ لَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » وذلك بالمهاجرة إلى الشام « وَهَبْنَا لَهُوَ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا » أى جعلنا له بنين وحفدة ، أنبياء ، قرّت عينه بهم فى حياته . بدل من فارقهم من أقربائه الكفرة الفجرة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا)

« وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا » أى ما عُرف فيهم من النبوة والذرية وسعة الرزق وحوزة الأرض المقدسة « وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا » أى ثناءً حسنًا . عبّر بـ (اللسان) عما يوجد باللسان . كما عبّر بـ (اليد) عما يطلق باليد وهى العطية . وإضافته إلى الصدق ووصفه بالعلو ، للدلالة على أنهم أحقاء بما يثنى عليهم ، وأن مجاهدتهم لا تخفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ، إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا)

[٥٢] (وَنَسُدَّ بَنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا)

« وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ » إذنه و كان مُخْلَصًا » بكسر اللام أى أخلص العبادة

عن الشرك ، وأسلم وجهه لله . وقرئ بفتح ه . أى أخلصه الله ، أى اصطفاه ، كما قال (١)
(إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ) « وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَنَذَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ
الْأَيْمَنِ » أى من جانبه الأيمن من موسى ، حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة ، فرآها
تلوح فقصدتها فوجدها ثمة . فنودى عندها « وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا » أى مناجياً ، أى كليماً .
إذ كلفاه بلا واسطة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا)

« وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا » ليشد أزره فى أداء الرسالة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَإِذْ كُرِّى فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ، إِنَّهُ وَكَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا)

[٥٥] (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا)

« وَإِذْ كُرِّى فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ » وهو ابن إبراهيم عليهما السلام . وإنما فصل ذكره
عن ذكر أبيه وأخيه ، لإبراز كمال الاعتناء بأمره ، بإيراده مستقلاً . وقوله « إِنَّهُ وَكَانَ
صَادِقَ الْوَعْدِ » تعليل للأمر . وإيراده عليه السلام بهذا الوصف ، وإن شاركه فيه بقية
الأنبياء ، تشریفاً له وإكراماً . ولأنه المشهور من خصاله . وناهيك أنه وعد من نفسه الصبر
على الذبح ، فوقى به حيث قال (٢) (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) وهذا أعظم
ما يتصور فيه . وفيه تنبيه بعظم هذه الخلعة . ولذا كان ضدها نفاقاً ، كما صرحت به الأخبار .
« وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ » أى كان يبدء أهله فى الأمر
بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن وراءهم . ولأنهم أولى من سائر الناس (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

(١) [٧ / الأعراف / ١٤٤] . (٢) [٣٧ / الصافات / ١٠٢] .

الْأَقْرَبِينَ^(١) (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ)^(٢) (قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)^(٣) ألا ترى أنهم أحق بالتصدق عليهم؟ فالإحسان الديني أولى. أفاده الزمخشري. «وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرَضِيًّا» أى لا تصافه بالنعوت الجميلة التى منها ما ذكر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ، إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا)

[٥٧] (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا)

«وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا» هو شرف النبوة والزلفى عند الله تعالى . فالعلو معنوى . أو رفعه بجسده حياً إلى السماء . قال الشهاب : قيل : والثانى أقرب لأن الرفعة المقترنة بالمكان لا تكون معنوية ، وفيه نظر لأنه ورد مثله بل ما هو أظهر منه ، كقوله :

وَكُنْ فِي مَكَانٍ إِذَا مَا سَقَطَتْ تَقُومُ وَرَجَلَاكَ فِي عَافِيَةٍ

انتهى . ومما يؤيد الثانى ما روى فى الصحيحين^(٤) عن أنس فى حديث المعراج؛ أنه صلوات الله عليه رأى إدريس فى السماء الرابعة . وإدريس هو إلياس الآتى ذكره فى سورة الصافات . ويسمى فى التوراة إيليا . ولرفعه إلى السماء فيها نبأ عجيب ، قد يكون التنزيل الكريم فى هذه الآية أشار إليه والله أعلم . وقوله تعالى :

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢١٤] . (٢) [٢٠ / طه / ١٣٢] . (٣) [٦٦ / التحريم / ٦]

(٤) أخرجه البخارى فى : ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار ، ٤٢ - باب المعراج ، حديث

رقم ١٥١٣ ، عن مالك بن صعصعة .

وأخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٦٤ (طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ، إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا)

(سجدة)

« أُولَٰئِكَ » إشارة إلى المذكورين في السورة من لدن ذكرها إلى إدرس عليه السلام . وما فيه من معنى البعد ، للإشعار بعلو رتبهم وبعد منزلتهم في الفضل . وقوله تعالى : « الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » أي بفنون النعم الدينية والدنيوية « مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا » أي هديناهم للحق واجتبيناهم للنبوّة والكرامة « إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا » أي إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه ، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة . مع ما لهم من علو الرتبة . وسموّ الزلفى عنده تعالى . وفي الآية استحباب السجود والبكاء عند سماع التلاوة .

قال ابن كثير : أجمع العلماء على مشروعية السجود ههنا ، اقتداء بهم ، واتباعاً لمنوالهم . وروى ابن جرير^(١) وابن أبي حاتم : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ سورة مريم فسجد . وقال : هذا السجود فأين البُسكى .

ولما ذكر تعالى حزب السعداء ، وهم الأنبياء ومن اتبعهم من القائمين بمحدود الله وأوامره ذكر من نبذ دعوتهم ممن خلفهم ، وما سيفالهم ، بقوله سبحانه :

(١) انظر الصفحة رقم ٩٨ من الجزء السادس عشر من تفسير ابن جرير (طبعة الحلبيّ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

« فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ » وقرئ (الصلوات) بالجمع أى المتضمنة للسجود والأذكار، المستدعية للبكاء. وإذا أضاعوها، فهم لما سواها من الواجبات أضيع. لأنها عماد الدين وقوامه وخير أعمال العباد « وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ » أى فاتوا بما ينافى البكاء والأمور المرضية من الأخلاق والأعمال ، من الانهماك فى المعاصى التى هى بريد الكفر « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا » أى شرًّا . قال الزمخشريّ : كل شر عند العرب غيٌّ ، وكل خير رشاد . قال المرقش (١) :

فمن يلقَ خيرًا يحمّد الناس أمره ومن يَغْوِ لا يَعمَدُ على الغيِّ لأعمًا
أى من يفعل خيرًا، يحمّد الناس أمره. ومن يفعل الشر لا يعمد اللوائم على فعله، وقيل: أراد الشاعر بالخير المال ، وبالغيّ الفقر . أى ومن يفتقر . ومنه (٢) القائل :

والناس من يلقَ خيرًا قائلون له ما يشتهى . ولأَمّ الخطيئ الهَبْلُ
أى الشكل . ويجوز أن يكون المعنى جزاء غيٍّ . كقوله تعالى (٣) (يَلْقَى أَثَمًا) أى شرًّا وعقابًا . فأطلق عليه كما أطلق الغيّ على مجازاته المسيبة عنه ، مجازًا . أو (غِيًّا) ضلالًا عن طريق الجنة . فهو بمعناه المشهور .

(١) هذا هو البيت الثانى والعشرون من الفضلىة السادسة والخمسين . ومطلعها :

أَلَا يَا اسْمَى . لا صُرْمَ لى اليومَ فَطِمًا ولا أَبَدًا ، ما دَامَ وَصْلُكَ دَائِمًا

(٢) قائله القطامى . أجد أصحاب المشوبات ، من قصيدته التى مطلعها :

إِنَّا مُحَيُّوكَ فَاسْلَمْ أَيُّهَا الطَّلَلُ وإنْ بَلَيْتْ ، وإنْ طَالَتْ بِكَ الطَّوْلُ

وطال طولك ، أى عمرك . (٣) [٢٥ / الفرقان / ٦٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا)

[٦١] (جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ، إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا) «إِلَّا مَنْ تَابَ» أى عن ترك الصلوات واتباع الشهوات «وَأَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا * جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ» متعلق بمضمر العائد إلى الجنات . أو من (عباده) أى وعدها إياهم ملتبسة أو ملتبسين بالغيب . أى غائبة عنهم غير حاضرة . أو غائبين عنها لا يرونها ، وإنما آمنوا بها بمجرد الأخبار . أو بمضمر هو سبب للوعد . أى وعدها إياهم بسبب إيمانهم ، أفاده أبو السعود «إِنَّهُ وَكَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا» أى لا يخلفه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ، وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا)

[٦٣] (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا)

«لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا» أى لا يسمعون فيها فضول كلام لا طائل تحته . وهو كفاية عن عدم صدور اللغو عن أهلها . قال الزمخشري رحمه الله : فيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو واتقائه . حيث نزه الله عنه الدار التي لا تكليف فيها . وما أحسن قوله (١) سبحانه : (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمُ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) (٢) نعوذ بالله من اللغو والجهل والخلوص فيما لا يعنيننا .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٧٢] . (٢) [٢٨ / القصص / ٥٥] .

ومعنى (إِلَّا سَلَامًا) أى تسليماً . وهو تسليم الملائكة عليهم ، أو بعضهم على بعض ، على الاستثناء المنقطع كما قال ^(١) : (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا) «وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا» وهم المتصفون بشعب الإيمان ، السرودة فى مواضع شتى من آى القرآن . ولما قص سبحانه من أنباء الأنبياء عليهم السلام ما قص ، مثبتاً له ، وعقبه بما أحدثه الخلف ، وذكر جزاءهم - عقبه بحكاية نزول جبريل عليه السلام ، ردّاً لما زعمه المشركون من أنه كان يقلوه فلا يزوره ، تسليمة له صلى الله عليه وسلم ، وإعلاماً بأن الحال ليس على ما زعمه هؤلاء الخلف . فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ، لَهُوَ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ، وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا)

«وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُوَ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا» أى ينسى شيئاً ماء ، بل لا يفيض علماً ولا ينزل ملكاً إلا بالحكمة يستعد لها الحال ، أى فليس عدم النزول إلا لعدم الأمر به ، ولم يكن لتركة تعالى لك وتوديعه إياك . وفى إعادة اسم (الرب) العرب عن التبليغ إلى السكال اللائق ، مضافاً إلى ضميره عليه السلام ، من تشريفه والإشعار بعلّة الحكم ، ما لا يخفى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَأَصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا)

«رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» أى من التوابع والنجيمات والسحب وغيره ذلك .

(١) [٥٦ / الواقعة / ٢٥ و ٢٦] .

قال بعض علماء الفلك : الآية تدل على أن السموات أكثر من سبع . وأن ذكر السبع ليس للحصر كما قدمناه في البقرة ، من أن السموات عنى بها الكواكب ، والأرض كوكب منها . قال أبو السعود : الآية بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى . فإن من يده ملكوت السموات والأرض وما بينهما ، كيف يتصور أن يحوم حول ساحة سبحاته الغفلة والنسيان . وهو خبر محذوف . أو بدل من (ربك) . « فَأَعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ » أى اثبت لها على الدوام . وقوله « هَلْ تَعْلَمُ لَهُو سَمِيًّا » أى مثلاً وكفوفاً ، فتلفت إليه وتقبل بوجهك نحوه ، فيفيض عليك مطلوبك . والجملة تقرير لوجوب عبادته وحده . أى إذا صح أن لا مثله ، ولا يستحق العبادة غيره ، لم يكن بد من التسليم لأمره ، والقيام بعبادته ، والاصطبار على مشاقها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا)

« وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا » أى يقول بطريق الإنكار والاستبعاد : أأخرج حياً بعد ما لبثت فى القبر مدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا)

« أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا » أى قبل جمعه تراباً ونطفة . وكان عدماً صرفاً لا وجود له فى الأعيان . فلا تبعد إعادته .

قال أبو السعود : وفى الإظهار موضع الإضمار ، زيادة التقرير بأن الإنسانية من دواعى التفكر فيما جرى عليه من شؤون التكوين المنجية بالقلع عن القول المذكور . وهو السر فى إسناده إلى الجنس أو إلى الفرد بذلك العنوان . أى ما أعجب الإنسان فى إنكاره وعدم تذكره لما ذكر ، وهو الذى أعطى العقل لينظر فى العواقب ، وأنعم عليه بخلق السموات والأرض وما بينهما ، ليعرف المنعم فيشكره ، ويعبده فيجازى على فعله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا)

« فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ » أى لنحشرن المنكرين للبعث مع الشياطين الذين أغوهم وأضلوا عن الحق « ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا » جمع (جث) . من (جثا) إذا قعد على ركبتيه . وذلك لهول المطلع . فلا يستطيعون قياماً . كقوله تعالى^(١) (وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا)

« ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا » أى لنخرجن إلى النار، من كل فرقة ، الذى هو أشد على الرحمن ، الذى رحمه بإزالة الكتاب وإرسال الرسول وتعريف مضار الشهوات بالعقل والنقل ، (عتيًّا) أى جراءة ، بإثارة الشهوات على أمره وعدم مبالاة به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا)

« ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا » وهم المنزعون . فإنهم أولى الشيع . إذ ضلوا وأضلوا ، لأجل لذات الدنيا وشهواتها . فصاروا أولى بالصلى بها . فيخصون بعذاب مضاعف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ، كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا)

« وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » أى ليس أحد منكم ، من برّ وفاجر ، إلا وهو يَرِدُهَا . « كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا » أى حكماً جزماً مقطوعاً به .

(١) [٤٥ / الجاثية / ٢٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (مَنْ نَجَّيَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا)

« ثُمَّ » أى بعد الورود والإحضار للتعريف « نَجَّيَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا » أى لا يمكنهم التجاوز عنها .

قال الزمخشري : فيه دليل على أن المراد بالورود ، الجثو حوالها . وأن المؤمنين يفارقون الكفرة إلى الجنة ، بعد تجايبهم . وتبقى الكفرة فى مكانهم جائين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا
أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا)

« وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا » أى موضعاً ومكاناً « وَأَحْسَنُ نَدِيًّا » أى مجتمعاً للقوم ، والمعنى أن هؤلاء الكفرة إذا تليت عليهم آياته تعالى بينة الحجة واضحة البرهان على مقاصدها ، أعرضوا وأخذوا يحتجون على فضل ما هم عليه بكونهم أوفر حظاً من الدنيا ، لكونهم أحسن منازل وأرفع دوراً وأمر نادياً وأكثر طارقاً ووارداً ، أى فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل ، وأولئك الذين هم مختلفون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم على الحق ؟ كما قال تعالى مخبراً^(١) عنهم : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ) وقال قوم نوح^(٢) (أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدُذُونَ) وقال تعالى^(٣) : (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) . وكذلك رد عليهم شبهتهم بقوله سبحانه :

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١١] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١١١] .

(٣) [٦ / الأنعام / ٥٣] .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِئَاءَ)

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا » أى متاعاً « وَرِئَاءَ » أى منظرًا وهيئة ، من عظم الجاه ، فما أغنى عنهم من عذاب الله شيئاً . كما قال تعالى ^(١) عن قوم فرعون المجرقين (كَمْ تَرَ كُوفًا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ) و (رِئَاءَ) فعل بمعنى مفعول كالطاحن .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٧٥] (قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ، حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ

إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَن هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا)

« قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا » أى من كان مغموراً بالجهل والغفلة عن عواقب الأمور . وهم المذكورون قبل ، ومن شا كلهم ، (فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ) أى يمد له ويمهله بطول العمر وإعطاء المال . وإخراجه على صيغة الأمر للإيذان بأن ذلك مما ينبغي أن يفعل بموجب الحكمة ، لقطع المعاذير . كما ينبى عنه قوله تعالى ^(٢) : (أَوْ لَمْ تُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ) أو للاستدراج كما ينطق به قوله تعالى ^(٣) : (إِنَّمَا نُمَلِّئُهُمْ لِيُزِدُوا إِثْمًا) وقيل المراد به الدعاء بالمد والتنفيس والإمهال . أى فأمهله الله فيما هو فيه حتى يلقي ربه وينقضى أجله ، إما بعذاب يصيبه ، وإما الساعة بغتة . وقد بين سبحانه غاية المد بقوله :

« حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَن هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا » أى فئة وأنصاراً .

(١) [٤٤ / الدخان / ٢٦ و ٢٥] . (٢) [٣٥ / فاطر / ٣٧] . (٣) [٣ / آل عمران / ١٧٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ، وَالْبَلَقِيَّتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا)

« وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ، وَالْبَلَقِيَّتُ الصَّالِحَتُ » أى الأعمال التى تبقى فوائدها « خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا » أى مرجعها . وتكرير (الخير) لمزيد الاعتناء ببيانها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا)

« أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ » أى فى الآخرة « مَالًا وَوَلَدًا » أى انظر إلى هذا القائل المجترئ على الغيب ، ما أ كفره !

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا)

« أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا » أى بذلك، لأنه لا يتوصل إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَعُدُّ لَهُ مِنْ الْعَذَابِ مَدًّا)

[٨٠] (وَنَزِيلُهُ وَمَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا)

« كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ » أى نحفظه عليه للمؤاخذه به « وَنَعُدُّ لَهُ مِنْ الْعَذَابِ مَدًّا » أى نزاع عنه ما آتينا من مال وولد ، جزاء لاستهزائه « وَنَزِيلُهُ وَمَا يَقُولُ »

فلا يفتيان له حتى يمكنها قطع العذاب عنه « وَيَأْتِينَا فَرْدًا » أى فى الحشر ، لا يصحبه مال ولا ولد . فإى يجدى عليه تمنيه وتأليه .

وقد روى البخارى^(١) : عن خباب رضى الله عنه ، قال : كنت فىنا - حدادًا - فى الجاهلية بمكة ، فعملت للعاص بن وائل سيفًا ، فجئت أتناضاه فقال : لا أقضيك حتى تكفر بمحمد . قلت : لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث . قال . فذرنى حتى أموت ، ثم أبعث فسوف أوتى مالا وولدا فأقضيك . فنزلت الآية . قال ابن عباس : ف ضرب الله مثله فى القرآن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَٰهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا)

«وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَٰهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا» أى ليعتزوا بهم ، بأن يكونوا لهم وصلة إليه عز وجل ، وشفعاء عنده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا)

« كَلَّا » أى ليس الأمر كما زعموا ، ولا يكون ما طمعوا « سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ » أى ستجحد الآلهة استحقاقهم للعبادة « وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » أى يريدون إهلاكهم ، إذ أوقعوهم فى هلاك دعوى الشرك . كما قال تعالى^(٢) (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) . وقال تعالى^(٣) : (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ ،

(١) أخرجه البخارى فى : ٣٤ - كتاب البيوع ، ٢٩ - باب ذكر القين والحداد ، حديث رقم ١٠٦٠ . (٢) [٤٦/الأحقاف/٦٥٥] . (٣) [١٦/النحل/٨٦] .

فَأَقْوَاْ إِلَيْهِمْ أَقْوَاْ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (قيل : المراد بالآلهة من عُبدَ من ذوى العلم . لإطلاق ضمير العقلاء عليهم ونطقهم . وقيل : الأصنام . بأن يخلق الله فيهم قوة النطق ، فيطلق عليهم ما يطلق على العقلاء . وقيل : الأعم منهما ، وهو الأظهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوْزِيَهُمْ أَزًّا)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ » أى بأن سلطناهم عليهم ومكناهم من إضلالهم . أو قيسناهم لهم يغلبون عليهم « تَوْزِيَهُمْ أَزًّا » أى تغريزهم وتهيجهم على المعاصى ، بالتسويلات وتحبيب الشهوات ، تهيجاً شديداً .

قال الزمخشري : الأز والهز والاستفزاز أخوات . ومعناها التهيج وشدة الإزعاج والمراد تعجيب رسول الله ﷺ ، بعد الآيات التى ذكر فيها العتاة والمردة من الكفار ، وأقاويلهم وملاحاتهم ومعاندتهم للرسول ، واستهزاؤهم واجتماعهم على دفع الحق بعد وضوحه وانتفاء الشك عنه ، وانهما كهم لذلك فى اتباع الشياطين وما تسول لهم . فهذه الآية كالتذييل لما قبلها وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ، إِنَّمَا نَعِدُّ لَهُمْ عَذًّا)

« فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ » أى بوقوع العذاب بهم لتطهر الأرض منهم . و (الفاء) للإشعار بكون ما قبلها مظنة لوقوع المنهى عنه ، محوجة إلى النهى . يقال : عجلت عليه بكذا إذا استعجلته منه . وقوله تعالى « إِنَّمَا نَعِدُّ لَهُمْ عَذًّا » تعليل لموجب النهى ، ببيان اقتراب هلاكهم . أى إنما تؤخرهم لأجل معدود مضبوط ، ونحوه قوله تعالى ^(١) (وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ، كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ) .

قال الشهاب : العدّ كناية عن القلة . وقلته لتقصيه وفنائه ، كما قال المأمون (ما كان ذا عدد ، ليس له مدد ، فما أسرع ما تقد) ولا ينافي هذا ما مرّ من أنه يعد لمن كان في الضلالة . أى يطول . لأنه بالنسبة لظاهر الحال عندهم . وهو قليل باعتبار عاقبته وعند الله . والله درالقائل :
 إن الحبيب من الأحباب مختلس لا يمنع الموت بواب ولا حرس
 وكيف يفرح بالدينيا ولذتها فتى يعدّ عليه اللفظ والنفس

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا)

« يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا » أى وافدين عليه . وأصل الوفود القدوم على العطاء للعطايا والاسترفاد . ففيه إشارة إلى تبجيلهم وتعظيمهم ، المزور والزائر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثًا)

« وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثًا » أى عطاشا . وفي ذكرهم بالنسوق إشعار بإهانتهم واستخفافهم . كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء . والورد : الذهاب إلى الماء ، ويطلق على الذاهبين إليه . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا)

« لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا » الضمير لأصنامهم المتقدم ذكرها في قوله ^(١) (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً) ردّ على عابديهم في دعواهم

أنهم شفعاؤهم عند الله . واتخاذ العهد هو الإيمان والعمل الصالح . أى لكن من آمن وعمل صالحاً فإنه يشفع للعصاة على ما وعد الله تعالى . وجوز أن يكون (العهد) بمعنى الإذن والأمر . يقال : أخذت الإذن فى كذا واتخذته بمعنى . من باب (عهد الأمير إلى فلان بكذا) إذا أمره به . أى لا يشفع إلا للأمور بالشفاعة ، المأذون له فيها . وتعضده مواضع فى التنزيل (١) « وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى » (٢) (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) (٣) (يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ أَلَمْ يَرْضَى لَهُ وَقَوْلًا) ونحو هذه الآية قوله تعالى (٤) (وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) ولما قرر تعالى فى هذه السورة عبودية عيسى عليه السلام ، وذكر خلقه من مريم بلا أب ، عطف عليه حكاية جنائبتهم من دعوى البنوة له ، مهولاً لأمرها . وكذا جنائبة أمثالهم من اليهود والعرب ممن يسمى بعض المخلوقات ابناً أو بنتاً له ، تعالى وتقدس - عطف قصته على قصته بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَقَالُوا أَتُخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا)

[٨٩] (لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا)

«وَقَالُوا أَتُخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا» * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا» أى عظيماً منكراً . وفى رد مقالتهم وتهويل أمرها بطريق الالتفات ، إشعار بشدة الغضب المصحح عن غاية التشنيع ، والتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجراءة والجهل . ثم وصف شدة شأن مقولهم بقوله سبحانه :

- (١) [٥٣ / النجم / ٢٦] . (٢) [٣٤ / سبأ / ٢٣] .
(٣) [٢٠ / طه / ١٠٩] . (٤) [٤٣ / الزخرف / ٨٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا)

[٩١] (أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا)

[٩٢] (وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا)

[٩٣] (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا)

« تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ » أى يتشققن « وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ » أى لأن « دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا » وذلك لغيرتها على المقام الربانى الأحدى أن ينسب له ما ينزه عنه ويشعر بحاجته ووجود كفاء له وفنائه . وذلك لأن الولادة إنما تكون من الحى الذى له مزاج . وماله مزاج فهو مركب ونهايته إلى انحلال وفناء ، وهو سبحانه تنزه عن ذلك ، كما قال « وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * » إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا » أى مملوكا له يأوى إليه بالعبودية والذل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا)

[٩٥] (وَكُلَّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا)

« لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا » أى حصرهم وأحاط بهم إحاطة لا يخرج بها أحد عن حيطة علمه وقبضة قدرته « وَكُلَّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا » أى منفردا مجردا من الاتباع والأنصار ، وعن زعم أنه له من الشفعاء . فإنهم منهم برآء . ولما فصل مساوى الكفرة ، تأثره بحاسن البررة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا)

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا » أى يفرس لهم فى قلوب عباده الصالحين محبة ومودة ، من غير تعرض للأسباب التى تسبب الود . كذا قالوا فى تأويله . وقال أبو مسلم : معناه أنه يهب لهم ما يحبون . قال : والود والمحبة سواء . آتيت فلانا محبته . وجعل لهم ما يحبون وجعلت له وده . ومن كلامهم : وددت لو كان كذا . أى أحببت . فعناه سيعطيهم الرحمن ودهم أى محبوبهم فى الجنة . ثم قال أبو مسلم : وهذا القول الثانى أولى لوجوه : أحدها - كيف يصح القول الأول مع علمنا بأن المسلم المتقى يفضيه الكفار وقد يفضيه كثير من المسلمين ؟ وثانيها - أن مثل هذه المحبة قد تحصل للكفار والفساق أكثر ، فكيف يمكن جعله إنعاماً فى حق المؤمنين ؟ وثالثها - أن محبتهم فى قلوبهم من فعلهم . فكان حل الآية على إعطاء المنافع الآخروية أولى . انتهى . وقد حاول الرازى التويه فى اختيار الأول والجواب عن الثانى . والحق أحق . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا)

« فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ » أى سهلنا هذا القرآن بلغتك « لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا عقاب الله ، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ، بالجنة « وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا » أى تخوف بهذا القرآن عذاب الله قومك من بنى قريش . فإنهم أهل لد و جدل بالباطل ، لا يقبلون الحق (واللد) شدة الخصومة . والباء فى قوله (بِلِسَانِكَ) بمعنى (على) . أى على لفتك . أو ضمن (التيسير) معنى (الإزال) أى يسرنا القرآن ، منزلين له بلغتك ، ليسهل تبليغه وفهمه وحفظه . قال الرخشرى : هذه خاتمة السورة ومقطعها . فكأنه قال : بلغ هذا المنزل ، أو بشر به وأنذر ، فإنما أنزلناه الخ ، أى فالفاء لتعليل أمر ينساق إليه النظم الكريم .

وقال الرازى : بين به بهذا ، عظيم موقع هذه السورة ، لما فيها من التوحيد والنبوة ، والحشر والنشر ، والرد على فرق المضلين المبطلين . وأنه يسر ذلك لتبشير المتقين وإنذار من خالفهم ، وقد ذكرهم بأبلغ وصف سيء وهو اللدد . لأن الألد الذى يتمسك بالباطل ويجادل فيه .

ثم إنه تعالى ختم هذه السورة بموعظة بليغة ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا)

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ » أى قوم لُدٍّ ، مثل هؤلاء ، إهلاكا عظيما « هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ » أى تشعر به وتراه « أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا » أى صوتا خفيا . والمعنى أنهم بادوا وهلكوا وخلت منهم دورهم وأوحشت منهم منازلهم . وكذلك هؤلاء صائرون إلى ما صار إليه أولئك ، إن لم يتداركوا بالتوبة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٠ - سُورَةُ طه

وهي مكية . وقيل : إلا قوله تعالى (١) (فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ) الآية . وقوله (٢)
(وَلَا تَحْزَنْ عَيْنَيْكَ) الآية ، وآياتها مائة وخمسة وثلاثون .

(٢) [٢٠ / طه / ١٣١] .

(١) [٢٠ / طه / ١٣٠] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (طه)

[٢] (مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

[٣] (إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى)

« طه » قدمنا أن الحق في هذه الحروف التي افتتحت بها سورها ، أنها أسماء لها . وفيه إشارة إلى أنها مؤلفة منها . ومع ذلك ففي معجزهم عن محاسنها أبلغ آية على صدقها . ونبه الإمام ابن القيم رحمه الله على نكتة أخرى في (الكافية الشافية) بقوله :

وانظر إلى السور التي افتتحت بأحرفها ترى سرّاً عظيم الشان لم يأت قط بسورة إلا أنى في إثرها خبر عن القرآن إذ كان إخباراً به عنها . وفي هذا الشفاء لطالب الإيمان ويدل أن كلامه هو نفسها لا غيرها ، والحق ذو تبيين فانظر إلى مبدأ الكتاب وبعدها الـ أعراف ثم كذا إلى لقمان مع تلوها أيضاً ومع حم مع يس وافهم مقتضى الفرقان

« مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى » أى لتتعبد بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم ، وتحسرك على أن يؤمنوا و (الشقاء) في معنى التعب . ومنه المثل : أشقى من رائض مهر . وقوله تعالى : « إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى » أى تذكيراً له . أى (مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ) لتتعبد بتبليغه ، ولكن تذكرة لمن في قلبه خشية ورقة يتأثر بالإنذار . والقصد أنه ما عليك إلا أن تبلغ وتذكر ، ولم يكتب عليك أن يؤمنوا للاحالة . وقد جرت السنة الإلهية

في خطاب الرسول في مواضع من التنزيل ، أن ينهاء عن الحزن عليهم وضيق الصدر بهم ، كقوله تعالى (١) : (فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ) (فَلَعَلَّكَ بِخَيْغِ نَفْسِكَ عَلَى آثَرِهِمْ) (٢) (وَلَا يَحْزُنَكَ الَّذِينَ يُسْرِغُونَ فِي الْكُفْرِ) (٣) وهذه الآية من هذا الباب أيضاً . وفي ذلك كله من تكريم الرسول صلوات الله عليه ، وحسن العناية به والرأفة ، ما لا يخفى . ثم أشار إلى تضخيم شأن هذا المنزل الكريم ، لنسبته إلى المتفرد بصفاته وأفعاله ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى)

[٥] (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)

« تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ » قرئ بالرفع على المدح . أى هو الرحمن . وبالجر على أنه صفة للموصول . وقوله « عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » أى علا وارتفع . قاله ابن جرير (٤) . وقد ذهب الخلف إلى جعل ذلك مجازاً عن الملك والساطان . كقولهم (استوى فلان على سرير الملك) وإن لم يقعد على السرير أصلاً .

وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته أيضاً . قال ابن كثير : والمسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف ، من إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة ، من غير تكليف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل . وقد أسلفنا ما حققته أئمة الفلك الحديث ؛ من أن العرش جرم حقيق موجود . وأنه مركز العوالم كلها . أى مركز الجذب والتدبير والتأثير والنظام .

(١) [٧ / الأعراف / ٢] . (٢) [١٨ / الكهف / ٦] .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٧٦] . (٤) انظر الصفحة رقم ١٣٨ من الجزء السادس

عشر من تفسير الطبري (طبعة الحلبي الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (لَهُ وَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ)

« لَهُ وَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ » .

بيان لشمول قهره وملكوته لكل . أى كلها تحت ملكته وقهره وسلطنته وتأثيره .
لا توجد ولا تتحرك ولا تسكن ولا تتغير ولا تثبت إلا بأمره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِنْ تَجَهَّرَ بِأَلْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ)

« وَإِنْ تَجَهَّرَ بِأَلْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ » .

بيان لكمال لطفه . أى علمه نافذ فى الكل . يعلم ظواهرها وبواطنها والسر وسر السر .
فكذلك إن تجهر وإن تحفت ، فيعلمه بجهر وخفت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ)

« اللَّهُ » أى ذلك المُنزل الموصوف بهذه الصفات هو الله « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ » أى الفضلى ، لدالاتها على معانى التقديس والتمجيد والتعظيم والربوبية والأفعال التى هى النهاية فى الحسن . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَهَلْ أُنَمِّكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ)

[١٠] (إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا

بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى)

« وَهَلْ أُنَمِّكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ » من عطف القصة أو استئناف . والقصد تقرير أمر

التوحيد الذي انتهى إليه الآية قبله ، ببيان أنه دعوى كل نبي لاسيا أشهرهم نبأ ، وهو موسى عليه السلام . فقد خوطب بقوله تعالى ^(١) (إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا) وبختم تعالى نبأه في هذه السورة بقوله ^(٢) (إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) أو تقرير لسعة علمه البين في قوله تعالى ^(٣) (وَإِنْ تَجَهَّرَ بِأَلْقَوْلِ) الخ لقوله بعد (وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا) ^(٤) أو لها معا . أو لحله ، صلوات الله عليه ، على التأسى بموسى في الصبر والثبات . لكونه ابتلى بأعظم من هذا فصبر ، وكانت العاقبة له . وقد أشير في طليعة نبأ موسى عليه السلام ، إلى كيفية ابتداء الوحي إليه ، وتكليمه تعالى إياه . وذلك بعد أن قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم . وسار بأهله قاصداً بلاد مصر ، بعد ما طالت غيبته عنها ومعه زوجته . فأضل الطريق . وكانت ليلة شاتية ، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال في برد وشتاء . وبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور ناراً ، كما قصه تعالى بقوله « إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا » أى أبصرتها إبصاراً بيناً لا شبهة فيه « لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ » أى بشعلة مقتبسة تصطلون بها : « أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى » أى هادياً يدلنى على الطريق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمُوسَىٰ)

[١٢] (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ، إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)

« فَلَمَّا أَتَاهَا » أى النار « نُودِيَ يَمُوسَىٰ » أى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ

بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى » أى فيجب فيه رعاية الأدب ، بتعظيمه واحترامه لتجلى الحق فيه ، كما يراعى أدب القيام عند الملوك (وطُوًى) اسم للوادي .

(١) [٢٠ / طه / ١٤] . (٢) [٢٠ / طه / ٩٨] .

(٣) [٢٠ / طه / ٧] . (٤) [٢٠ / طه / ٩٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ)

[١٤] (إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[١٥] (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ)

« وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ » أى اصطفتيك للنبوّة « فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ » أى للذى يوحى .
أو للوحى . ثم بينه بقوله « إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي » أى خصنى بالعبادة
« وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي » أى لتذكرنى فيها بقلبك ولسانك وسائر جوارحك ، بأن تجعل
حركاتها دالة على ما فى القلب واللسان . قال أبو السعود : خست الصلاة بالذكر وأفردت
بالأمر بالعبادة ، لفضلها وإنافتها على سائر العبادات ، بما نيّطت به من ذكر المعبود وشغل
القلب واللسان بذكره . وذلك قوله تعالى (لِذِكْرِي) أى لتذكرنى . فإن ذكرى كما ينبغى
لا يتحقق إلا فى ضمن العبادة والصلاة . أو لتذكرنى فيها لاشتمالها على الأذكار . أو لذكرى
خاصة لا تشوبه بذكر غيرى . أو لإخلاص ذكرى وابتغاء وجهى . لا ترائى بها ، ولا تقصد
بها غرضاً آخر . أو لتسكون ذا كراً لى ، غير ناس . انتهى .

ثم أشار إلى وجوب إفراده بالعبادة وإقامة الصلاة لذكره ، بقوله « إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ »
أى واقعة لا محالة « أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ » أى بسعيها عن اختيار
منها . واللام متعلقة بـ (آتية) . ولما كان خفاء الساعة من اليقينيّات وفى (كاد) معنى القرب
من ذلك ، لعدم وضعها للجزم بالفعل ، تأولوا الآية على وجوه :

أحدها - أن (كَادَ) منه تعالى واجب . والمعنى أنا أخفيها عن الخلق . كقوله ^(١) (عَسَىٰ
أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا) أى هو قريب .

ثانيها - قال أبو مسلم : (أَكَادُ) بمعنى أريد كقوله ^(٢) : (كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ)

(١) [١٧ / الإسراء / ٥١] . (٢) [١٢ / يوسف / ٧٦] .

ومن أمثالهم المتداولة (لا أفعل ذلك ولا أكاد) أى ولا أريد أن أفعله . قال الشهاب : تفسير (أَكَادُ) ؛ (أريد) هو أحد معانيها . كما نقله ابن جني في (المحتسب) عن الأخفش . واستدلوا عليه بقوله ^(١) .

كَادَتْ وَكَدَتْ وَتِلْكَ خَيْرُ إِرَادَةٍ لَوْ عَادَ مِنْ لَهْوِ الصَّبَابَةِ مَا مَضَى
بمعنى أرادت . لقوله (تلك خير إرادة) .

ثالثها - أن (أَكَادُ) صلة في الكلام . قال زيد الخيل ^(٢) .

سريعٌ إلى الهيجاء شاكٍ سلاحه فإِنْ يَكَادُ قِرْنُهُ يَتَنَفَّسُ

رابعها - أن المعنى أكاد أخفيها فلا أذكرها إجمالاً ولا أقول هي آتية . وذلك لفرط إرادته تعالى إخفاءها . إلا أن في إجمال ذكرها حكمة ، وهي اللطف بالؤمنين ، لحثهم على الأعمال الصالحة ، وقطع أعذار غيرهم حتى لا يمتدروا بعدم العلم . وثمة وجوه أخر لا تخلو من تكلف ، وإن اتسع اللفظ لها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى)

« فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا » أى عن تصديق الساعة « مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ » أى ما تهواه نفسه من الشهوات وترك الفطر والاستدلال . « فَتَرْدَى » أى فتهلك .

قال الزمخشري : يعنى أن من لا يؤمن بالآخرة هم الجم الغفير . إذ لا شيء أطم على الكفرة ، ولا هم أشد له نكيراً من البعث . فلا يهولئك وفور دهمهم ، ولا عظم سوادهم . ولا تجعل الكثرة مزية قدمك . واعلم أنهم ، وإن كثروا تلك الكثرة ، فقدوتهم فيما هم فيه هو الهوى

(١) استشهد به في اللسان بالصفحة رقم ٣٨٥ من المجلد الثالث (طبعة بيروت) ولم يسم

قائله . وفيه (لو كان) عوضاً عن (لو عاد) .

(٢) استشهد به في اللسان بالصفحة رقم ٣٨٤ من المجلد الثالث (طبعة بيروت) .

واتباعه . لا البرهان وتداركه . وفي هذا حث عظيم على العمل بالدليل ، وزجر بليغ عن التقليد ، وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهله . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ)

[١٨] (قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّوْا عَلَيْهَا وَاهْبُشْ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ)

« وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ » شروع فيما سيؤتيه تعالى من البرهان الباهر . وفي الاستفهام إيقاظه وتنبيهه على ما سيبدوله من عجائب الصنع « قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّوْا عَلَيْهَا » أى أعتمد عليها إذا أعميت أو وقفت على رأس القطيع وعند الطفرة « وَاهْبُشْ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي » أى أخبط بها الورق وأسقطه عليها لتأكله « وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ » أى حاجت أخر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (قَالَ أَلْقِهَا يَمْوَسَىٰ)

[٢٠] (فَالْقَمَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ)

[٢١] (قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ، سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ)

« قَالَ أَلْقِهَا يَمْوَسَىٰ » * فالْقَمَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ » أى هيئتها الأولى فتنفع بها كما كنت تنفع من قبل . أى ليس القصد تخويفك ، بل إظهار ما فيها من استعداد قبول الحياة ، ومشاهدة معجزة وبرهان لك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ؕ آيَةً أُخْرَىٰ)

[٢٣] (لِنُرِيكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَىٰ)

«وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ» أى إبطك «تَخْرُجُ بَيْضَاءَ» أى نيرة «مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» أى قبيح وعيب كبياض البرص مما يففر عنه . واعتمد الزمخشري ؛ أن قوله تعالى (مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) كناية عن البرص . كما كنى عن العورة بالسوءة ، قال : والبرص أبغض شيء إلى العرب ، وبهم عنه نقرة عظيمة . وأسماعهم لاسمه بحاجة . فكان جديراً بأن يكفى عنه . ولا ترى أحسن ولا أطف ولا أحرّ للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه . انتهى . « آيَةً أُخْرَىٰ » أى معجزة أخرى غير العصا « لِنُرِيكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَىٰ » متعلق بمضمر ينساق إليه النظم الكريم . أى أريناك ما أريناك الآن ، مع أن حقهما أن يظهرهما بعد التحدى والمناظرة ، لنريك أولاً بعض آياتنا الكبرى ، فيقوى قلبك على مناظرة الطغاة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أُذْهِبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ)

« أُذْهِبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ » تخلص إلى ما هو المقصود من تهديد المقدمات السالفة . فُصِّل عما قبله من الأوامر إيداناً بأصالته . أى اذهب إليه بما رأيته من الآيات الكبرى ، وادعه إلى عبادتى وحذره نقتى . أفاده أبو السعود .

وقوله تعالى « إِنَّهُ طَغَىٰ » أى جاوز الحد فى التكبر والعتو ، حتى تجاسر على العظيمة التى هى دعوى الربوبية . فلا بد من تنبيهه على طفياه بالدلائل العقلية ، التى صدقتها المعجزات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي)

[٢٦] (وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي)

[٢٧] (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي)

[٢٨] (يَفْقَهُوا قَوْلِي)

« قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي » إنما سأل ذلك ، لما كان يتخوفه من آل فرعون في القتل . ولما بعث به من صدع جبار عنيد ، أطفئ الملوك وأبلغهم تمرداً وكفراً ، مما يحوج إلى عناية ربانية . وسأل أن يُمدَّ بمنطق فصيح ، لما في لسانه من عقدة كانت تمنعه من كثير من الكلام كما قال ^(١) (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا) وقول فرعون ^(٢) (وَلَا يَسْكَاذُ يَسِينَ) ثم سأل عليه السلام ربه أن يعينه بأخيه هرون ، ليكون له رداءً ، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي)

[٣٠] (هَارُونُ أَخِي)

[٣١] (أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي)

« وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونُ أَخِي * أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي » أي قوّ به

ظہری .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٥٢] .

(١) [٢٨ / القصص / ٣٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَأَشْرِكُهُ فِي آمْرِى)

[٣٣] (كَى نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا)

[٣٤] (وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا)

[٣٥] (إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا)

« وَأَشْرِكُهُ فِي آمْرِى * كَى نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا » أى كى نتعاون على تسبيحك وذكرك . لأن التعاون - لأنه مهيج الرغبات - يترابى به الخير ويتكاثر « إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا » أى عالمًا بأحوالنا ، وبأن الدعوى به مما يفيدنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى)

[٣٧] (وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى)

« قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى » أى أجيب دعاؤك . وقوله تعالى « وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى » كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله ، وزيادة توطيئ نفس موسى عليه السلام بالقبول ، ببيان أنه تعالى حيث أنعم عليه بتلك النعم التامة من غير سابقة دعاء منه وطلب ، فلأن ينعم عليه بمثلها وهو طالب له وداعٍ ، أولى وأحرى . وتصديره بالقسم ، لكمال الاعتناء بذلك . أفاده أبو السعود .

وقوله تعالى : « مَرَّةً أُخْرَى » أى فى وقت آخر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ)

[٣٩] (أَنَّ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْذِفِهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ

عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي)

« إِذْ أَوْحَيْنَا » أى القينا بطريق الإلهام « إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ » أَنَّ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ

أى الصندوق « فَأَقْذِفِهِ فِي الْيَمِّ » أى البحر، متوكلة على خالقه « فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي » لدعواه الألوهية « وَعَدُوٌّ لَهُ » لدعوته إلى نبذ ما يدعيه .

قال الزمخشري : لما كانت مشيئة الله تعالى وإرادته - أن لا تخطئ جرية اليم، الوصول به إلى الساحل ، وإلقاءه إليه - سلك في ذلك سبيل المجاز . وجعل اليم كأنه ذو تمييز أمر بذلك، ليطيع الأمر ويمثل رسمه . ف قيل (فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ) أى على سبيل الاستعارة بالكناية . بتشبيه اليم بأمور منقاد . وإثبات الأمر تخييل ، وقوله تعالى « وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي » أى : واقعة مني ، زرعتها في قلب من يراك . ولذلك أحبك فرعون « وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي » أى ولتربى بيد العدو على نظرى بالحفظ والعناية . (ف على عيني) استعارة تمثيلية للحفظ والصون، لأن المصون يجعل بمرأى . قيل : (على) بمعنى الباء لأنه بمعنى بمرأى منى ، فى الأصل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ، فَرَجَعْنَاكَ

إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ، وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ

وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ، فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمُوسَىٰ)

« إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ » أى يضمن حضنته ورضاعته .

فقبلوا قولها . وذلك لأنه لما استقر عند آل فرعون، عرضوا عليه المراضع فأبأها كما قال تعالى^(١) (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ) فجاءت أخته فقالت^(٢) (هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُوهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ) فجاءت بأمه كما قال « فَرَجَعْنَكَ إِلَى أُمِّكَ » أى مع كونك بيد العدو « كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا » أى برؤيتك « وَلَا تَحْزَنَ » أى بفراقك . فهذه من زائدة على النجاة من القتل .

ثم أشار إلى مامن عليه بالنجاة من القتل الذى لا يدفع ببتليس، بقوله « وَقَتَلْتَ نَفْسًا » أى من آل فرعون ، وهو القبطى الذى استغاثه عليه الإسرائيلى ، إذ وكزه موسى ففضى عليه. أى : فاغتممت للقصاص « فَتَجَمَّعَتِ الْغَمَّةُ » أى غم القتل بأن صرفنا عنك ما تخشاه . وذلك أنه عليه السلام فر من آل فرعون حتى ورد ماء مدين . وقال له ذلك الرجل الصالح (لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)^(٣) « وَفَعَنْتَكَ فُتُونًا » أى ابتليناك ابتلاء . على أن (الفتون) مصدر كالشكور، أو ضروبا من الفتن على أنه جمع (فتنة) أى فجعلناك فرجاً ومخرجاً منها . وهو إجمال لما سبق ذكره .

« فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ » أى معزز الجانب مكفى المؤونة فى عشرة أتن رجل منهم وأصلحهم، وهو نبىهم عليه السلام « ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمُوسَى » أى بعد أن قضيت الأجل المضروب بينك وبين شعيب من الإجارة ، جئت بأهلك على وفق ما سبق فى قضائى وقدرى؛ أن أكلك وأستنبئك فى وقت يمينه قد وقته لذلك . فما جئت إلا على ذلك القدر، غير مستقدم ولا مستأخر . فالأمر له تعالى . وهو المسير عباده وخلقه فيما يشاء .

قال أبو السعود : وقوله تعالى (يَمُوسَى) تشريف له عليه الصلاة والسلام، وتنبية على انتهاء الحكاية التى هى تفصيل المرة الأخرى التى وقعت قبل المرة المحكية أولاً . وقوله تعالى :

(١) [٢٨ / القصص / ١٢] . (٢) [٢٨ / القصص / ١٢] . (٣) [٢٨ / القصص / ٢٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

[٤٢] (أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِأَيَّتِي وَلَا تَنْبِيَا فِي ذِكْرِي)

« وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي » تذكير لقوله تعالى (وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ) وتمهيد لإرساله عليه السلام إلى فرعون مؤيداً بأخيه و(الاصطناع) افتعال من (الصنع) بمعنى الصنعة. يقال: اصطنع الأمير فلاناً لنفسه ، أى جعله محلاً لا كرامه باختياره وتقريبه منه ، بجعله من خواص نفسه وندمائه، فاستعير استعاره تمثيلية من ذلك المعنى المشبه به إلى المشبه. وهو جعله نبياً مكرماً كلياً منعماً عليه بجلائل النعم . قال أبو السعود : والعدول عن نون العظمة الواقعة في قوله تعالى (وَفَتَّنَاكَ) ونظيره السابقين ، تمهيد لإفراد لفظ (النفس) اللائق بالمقام ، فإنه أدخل في تحقيق معنى (الاصطناع) و (الاستخلاص) . ثم بين ماهو المقصود بـ(الاصطناع) بقوله سبحانه (أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِأَيَّتِي) أى بمعجزاتى . كالعصا وبياض اليد وحل العقدة ، مع ما استظهره على يده « وَلَا تَنْبِيَا فِي ذِكْرِي » أى لا تفترأ ولا تقصرا في ذكرى بما يليق بى من النعوت الجليلة، عند تبليغ رسالتى والدعاء إلى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ)

[٤٤] (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْمًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ)

«أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ* فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْمًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ» أى عقابى. فإن تليين القول مما يكسر سورة عناد العتاة، ويلين عريكة الطغاة. وقد بين ذلك في قوله تعالى^(١) (فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ) وبمثل ذلك

(١) [٧٩ / النازعات / ١٨ و ١٩] .

أمر نبينا صلوات الله عليه في قوله^(١) : (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ الْبَلَّتَى هِيَ أَحْسَنُ) وظاهر أن الرجاء في (لعله) إنما هو منهما ، لامن الله . فإنه لا يصح منه . ولذا قال القاضي : أى باشرا الأمر على رجائكما وطمعكما أنه يشعر ولا يخيب سعيكما . فإن الراجى ، مجتهد والآيس متكلف . والفائدة في إرسالها والمبالغة عليهما في الاجتهاد - مع علمه بأنه لا يؤمن - إلزام الحجة ، وقطع المَعذرة ، وإظهار ما حدث في تضاعيف ذلك من الآيات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى)

[٤٦] (قَالَ لَا تَخَافَا ، إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

« قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا » أى يبادرنا بالعقوبة « أَوْ أَنْ يَطْغَى » أى يزداد طغياناً بالعناد ، فى دفع حججنا ، ثم يأمر بقتلنا . أو بالتخطى إلى أن يقول فى شأنك ما لا ينبغى ، لجرأته وقسوة قلبه . واقتصر على الثانى الزمخشري . وأفاد ؛ أن فى الجى به هكذا على الإطلاق ، وعلى سبيل الرمز ، باباً من حسن الأدب ، وتحاشياً عن التفوه بالعظيمة : « قَالَ لَا تَخَافَا » أى من فرطه وطغيانه « إِنَّنِي مَعَكُمَا » أى بالحفظ والنصرة « أَسْمَعُ وَأَرَى » أى ما يجرى بينكما وبينه . فأرعاكما بالحفظ . فالفعل محذوف للقريئة ، أو نزل منزلة اللازم تنميماً لما يستقل به الحفظ . كأنه قيل : أنا حافظ لكما وناصر ، سامع وبصير . وإذا كان الحافظ كذلك ، تمَّ الحفظ والتأييد ، وذهبت المبالاة بالعدو .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْدِبْهُمْ)

قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ ، وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى)

« فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ » أى بإطاعتهم من الأسر والعبودية . وتسريحهم معنا إلى وطننا فلسطين « وَلَا تَعْدِبْهُمْ » أى بإبقائهم على ما هم عليه من التسخير والتذليل فى الأمور الشاقة « قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ » أى تحقق رسالتى إليك منه تعالى بذلك « وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى » أى فصدق بآيات الله المبينة للحق . وفيه من ترغيبه فى اتباعهما ، على أطف وجه ، ما لا يخفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)

« إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا » أى من ربنا « أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ » أى بآياته تعالى « وَتَوَلَّى » أى أعرض عنها . وفيه من التلطيف فى الوعيد ، حيث لم يصرح بحلول العذاب به ، ما لا مزيد عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى)

[٥٠] (قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

« قَالَ » أى فرعون « فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » أى منح كل شىء من الأنفس البشرية ، صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به ، فسواء بها وعدله ، ثم هداه بأن وهبه العقل الذى يميز بين الخير والشر .

وهذه الآية في معناها كآية^(١) (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) وآية^(٢) (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ)

[٥٢] (قَالَ عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ، لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ)

« قَالَ » أى فرعون « فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ » * قَالَ عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى » أى ما حال القرون السالفة وما جرى عليهم ؟ وهذا السؤال إما لصرف موسى عليه السلام عما يدعوه إليه أمام ملئه ، وإشغاله بما لا يعنى ما أرسل به ، وإما لتوهم أن الرسول يعلم الغيب ، فأراد أن يقف على نبأ ما مضى ، ويفتح باباً للتخطئة والتكذيب ، بالعناد واللاجاج . فأجابه موسى عليه السلام بأن هذا سؤال عن الغيب وقد استأثر الله به . فلا يعلمه إلا هو . وليس من وظيفة الرسالة . وإنما علمها مكتوب في اللوح المحفوظ ، محصى غير منسى . ويجوز أن يكون (فِي كِتَابٍ) تمثيلاً لتمكنه وتقريره في علم الله عز وجل ، بما استحفظه العالم وقيده بالكتابة . قال في العناية : فيشبه علمه تعالى بها علماً ثابتاً لا يتغير ، بمن علم شيئاً وكتبه في جريدته ، حتى لا يذهب أصلاً ، فيكون قوله (لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى) ترشيحاً للتمثيل ، واحتراساً أيضاً . لأن من يفعل ذلك إنما يفعله لخوف النسيان . والله تعالى منزّه عنه . فـ (الكتاب) على هذا بمعناه اللغوى . وهو الدفتر ، لا اللوح المحفوظ . وقوله تعالى :

(١) [٩١ / الشمس / ٨٧] . (٢) [٩٠ / البلد / ١٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ

مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ)

« الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا » أى فراشاً « وَسَلَكَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ

مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ » أى أصنافاً من نبات مختلفة الأجناس ، فى الطعم والرائحة والشكل والنفع .

لطيفة :

جعل الزخشرىّ قوله تعالى (فَأَخْرَجْنَا) من باب الالتفات . وناقشه الناصر ؛ بأن الالتفات إنما يكون فى كلام المتكلم الواحد . يصرف كلامه على وجوه شتى . وما نحن فيه ليس كذلك . فإن الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام قوله لفرعون (عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّى فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنْسَى) ثم قوله (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا) إلى قوله (فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ) فإما أن يجعل من قول موسى ، فيكون من باب قول خواص الملك (أمرنا وعمرنا) وإنما يريدون الملك ، وليس هذا بالالتفات . وإما أن يكون كلام موسى قد انتهى عند قوله (وَلَا يَنْسَى) ثم ابتداء الله تعالى وصف ذاته بصفات إنعامه على خلقه ، فليس الالتفاتاً أيضاً . وإنما هو انتقال من حكاية إلى إنشاء خطاب . وعلى هذا التأويل ينبغى للقارئ أن يقف وقيفة عند قوله (وَلَا يَنْسَى) ليستقر بانتهاء الحكاية . ويحتمل وجهاً آخر وهو ؛ أن موسى وصف الله تعالى بهذه الصفات على لفظ الغيبة . فقال (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ) فلما حكاه الله تعالى عنه ، أسند الضمير إلى ذاته . لأن الحاكي هو المحكى فى كلام موسى . فراجع الضميرين واحد . وهذا الوجه وجه حسن رقيق الحاشية . وهذا أقرب الوجوه إلى الالتفات . لكن الزخشرىّ لم يعنه . والله أعلم . انتهى كلام الناصر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي النُّهَى)

[٥٥] (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)

« كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ » حال من ضمير (فَأَخْرَجْنَا) على إرادة القول « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي النُّهَى * مِنْهَا » أى من الأرض « خَلَقْنَاكُمْ » أى خلقنا أصلكم وهو آدم . أو خلقنا أبدانكم من النطفة المتولدة عن الأغذية ، المتولدة من الأرض بوسائل « وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ » أى بالإماتة إعادة البذر إلى الأرض « وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى » أى بردهم كما كانوا ، أحياء . ثم أشار تعالى إلى عتو فرعون وعناده ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى)

[٥٧] (قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى)

[٥٨] (فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ يَمِينًا وَبَيْنًا مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ

نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوَّى)

« وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا » أى من العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنين « فَكَذَّبَ وَأَبَى * قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ يَمِينًا وَبَيْنًا مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ وَنَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوَّى » أى مستويًا واضحًا يجمعنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزَّيْنَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى)

[٦٠] (فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ)

« قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزَّيْنَةِ » وهو يوم مشتهر عندهم باجتماع الناس فيه « وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى » أى ضحوة النهار ليكون الأمر مكشوفاً لا سترة فيه « فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ » أى انصرف عن المجلس « فَجَمَعَ كَيْدَهُ » أى ما يكيد به موسى ، من السحرة وأدواتهم « ثُمَّ أَتَىٰ » أى الموعد ومعه ما جمعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيَلَكُمْ كِتَابُ تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ

وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ)

[٦٢] (فَتَنْزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ)

[٦٣] (قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا

وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ)

« قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ » أى مقدماً لهم النصيح والإنذار ، لينقطع عذرهم « وَيَلَكُمْ كِتَابُ تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » أى لا تخيلوا للناس بأعمالكم ، إيجاد أشياء لا حقائق لها ، وأنها مخلوقة وليست مخلوقة . فتكونوا قد كذبتم على الله تعالى « فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ » أى يستأصلكم « وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ * فَتَنْزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ * قَالُوا » أى بطريق التناجى والإمرار « إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ » أى بمذهبكم

الأفضل . وهو ما كانوا عليه . يعنون أن قصد موسى وهرون هو عزل فرعون عن ملكه ، يجعله عبداً لغيره ، واستقرارها في مكانه ، وجعل قومهما مكانكم . وإلجائكم إلى مبارحة أرضكم ، وإبطال طريقةكم بسحرها الذي يريدان إيجازكم به . و (اَلْمُثَلَّى) تأنيث الأمثل ، بمعنى الأفضل . ودعواهم ذلك ، لأن كل حزب بما لديهم فرحون .

لطفة :

في قوله تعالى (إِنَّ هَٰذَا نِ لَسَجِرَانِ) قراءات .
الأولى - (إِنَّ هَٰذَا نِ لَسَجِرَانِ) بتشديد النون من (إِنَّ) و (هَٰذَا نِ) بالياء وهي قراءة أبي عمرو ، وهي جارية على السَّنِ المشهور في عمل (إِنَّ) .
والثانية - (إِنَّ هَٰذَا نِ لَسَجِرَانِ) بتخفيف (إِنَّ) وإهالها عن العمل ، كما هو الأكثر فيها إذا خففت . وما بعدها مرفوع بالابتداء والخبر . واللام لام الابتداء فرقاً بينها وبين النافية . ويرى الكوفيون أن اللام هذه بمعنى (إِلَّا) و (إِنَّ) قبلها نافية ، واستدلوا على مجيء اللام للاستثناء بقوله ^(١) :

أَمْسى أَبَانٌ ذَلِيلًا بَعْدَ عَزَّيْتِهِ وَمَا أَبَانٌ لِّمَنْ أَعْلَاجَ سُودَانِ
والثالثة - (إِنَّ هَٰذَا نِ لَسَجِرَانِ) بتشديد (إِنَّ) و (هَٰذَا نِ) بالالف . وخرّجت على أوجه :

أحدها - موافقة لغة من يأتى في المثني بالالف في أحواله الثلاث . وهم بنو الحرث ابن كعب وخثعم وَزُبَيْدٌ وكنانة وآخرون . قال قائلهم ^(٢) :
* تَزَوَّدَ مِنَّا بَيْنَ أَذْنَاهُ طَعْنَةً *

(١) انظر الشاهد رقم ٣٨٥ من (معنى اللبيب لابن هشام) .

(٢) انظر الشاهد الرابع عشر من (شذور الذهب لابن هشام) وعجز البيت :

* دَعَتْهُ إِلَى هَائِي الترابِ عَقِيمُ *

وقال آخر :

إِنَّ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا قَدْ بَلَغَا فِي الْمَجْدِ غَايَتَاهَا
ثانيتها - إِنَّ (إِنَّ) بمعنى (نعم) حكاه المبرد . واستدل بقول الرازي (٢) :
يا عمر الخير جُزِيتَ الْجَنَّةُ اكسُ بُنْيَانِي وَأُمَمَهُ
وَقُلْ لَهُنَّ : إِنَّ أَنْ إِنَّهُ أَقْسِمُ بِاللَّهِ لَتَفْعَلَنَّهُ
وقول (٣) عبد الله بن قيس الرُّقِيَّات :

وَيَقُلَانِ شَيْبٌ قَدْ عَلَا لَوْ قَدْ كَبُرْتَ فَقُلْتُ إِنَّهُ

وردَّ على المبرد أبو علي الفارسي ، بأنه لم يتقدم ما يجاب به (نعم) وأجاب الشمني ، بأن
التنازع فيما بينهم ، وإسرار النجوى ، يتضمن استخبار بعضهم من بعض . فهو جواب
للاستخبار الضمني . ولا يخفى بعده . فإن إسرار النجوى فيما بينهم ليس في الاستخبار عن
كونهما ساحرين ، بل هم جزموا بالسحر فقالوا (٤) : (أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَنَّ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكِ)
ثم أسروا النجوى فيما يقلبان به موسى . إلا أن يقال : محط الجواب قوله (فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ) الخ ،
وما قبله توطئة . وقد رد في (المغني) هذا التخريج ؛ بأن مجيء (نعم) شاذ حتى نقاه
بعضهم . ومنعه الدماميني ؛ بأن سيبويه والحدائق حكوه عن الفصحاء . وعليه ، فاللام في
(لَسَحَرْنَا) لام الابتداء ، زحلت للخبر . وأبي البصريون دخولها على الخبر . وزعموا
أنها في مثله داخلة على مبتدأ محذوف ، أو زائدة ، أو دخلت مع (إِنَّ) التي بمعنى (نعم)
لشبهها بالؤكد لفظاً .

وأقول : فيه تكلف . والشواهد على اقتران الخبر باللام كثيرة .

(١) انظر الشاهد رقم ٥١ من (مغني اللبيب لابن هشام) .

(٢) لم أهتم إليه الآن ، وخصوصاً الشطر الثالث .

(٣) انظر الشاهد رقم ٤٩ من (مغني اللبيب لابن هشام) . (٤) [٢٠ / طه / ٥٧] .

وثالثها - أنه لما كان الإعراب لا يظهر في الواحد ، وهو (هذا) جمل كذلك في التثنية ، ليكون الثني كالمفرد . لأنه فرع عليه . واختار هذا القول الإمام العلامة تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى ، وزعم أن بناء الثني ، إذا كان مفردة مبنياً ، أفصح من إعرابه . قال : وقد تفتن لذلك غير واحد من حذاق الفحاة . ثم اعترض بأمرين :

أحدهما - أن السبعة أجمعوا على الياء في قوله تعالى ^(١) : (إِيْحْدَى أُبْنَتَى هَاتَيْنِ) مع أن هاتين تثنية (هاتا) وهو مبنى .

والثاني - أن (الذي) مبنى وقد قالوا في تثنيته (الَّذَيْنِ) في الجر والنصب . وهي لغة القرآن ، كقوله تعالى ^(٢) : (رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا) وأجاب الأول ؛ بأنه إنما جاء (هاتين) بالياء على لغة الإعراب لمناسبة (ابنتي) قال : فالإعراب هنا أفصح من البناء ، لأجل المناسبة . كما أن البناء في (إِنَّ هَذَانِ لَسَّحِرَانِ) أفصح من الإعراب لمناسبة الألف في (هذان) للألف في (ساحران) . وأجاب عن الثاني بالفرق بين (اللذان) و (هذان) بأن (اللذان) تثنية اسم ثلاثي ، فهو شبيه (بالزيدان) و (هذان) تثنية اسم على حرفين . فهو عريق في البناء لشبهه بالحروف . قال رحمه الله : وقد زعم قوم أن قراءة من قرأ (إِنَّ هَذَانِ) لحن وإن عثمان رضي الله عنه قال (إن في المصحف لحناً وستقيمه العرب بألسنتها) وهذا خبر باطل لا يصح من وجوه .

أحدها - إن الصحابة كانوا يتسارعون إلى إنكار أدنى المنكرات ، فكيف يقرّون اللحن في القرآن ، مع أنهم لا كلفة عليهم في إزالته ؟

والثاني - أن العرب كانت تستقبح اللحن غاية الاستقبح في الكلام ، فكيف لا يستقبحون بقاءه في المصحف ؟

(١) ٢٨ / القصص / ٢٧ . (٢) ٤١ / فصلت / ٢٩ .

والثالث - أن الاحتجاج بأن العرب ستقيمه بألسنتها غير مستقيم . لأن المصحف الكريم يقف عليه العربي والعجمي .

والرابع - أنه قد ثبت في الصحيح أن زيد بن ثابت أراد أن يكتب (التابوت) بالهاء على لغة الأنصار ، فمنعوه من ذلك ورفعوه إلى عثمان رضى الله عنهم . فأمرهم أن يكتبوه بالتاء على لغة قريش . ولما بلغ عمر رضى الله عنه أن ابن مسعود رضى الله عنه قرأ : عَتَّى حِينَ ، على لغة هذيل ، أنكر ذلك عليه وقال : أقرئ الناس بلغة قريش . فإن الله تعالى إنما أنزله بلغتهم ، ولم ينزله بلغة هذيل . انتهى كلام تقي الدين ملخصاً .

هذا حاصل ما في (المغنى) و (الشذور) و (حواشيها) وفي الآية وجوه أخرى استقصتها المطولات . وما ذكرناه أرقها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اُتُوا صَفًّا ، وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعْلَى)

« فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ » تصريح بالمطلوب ، إثر تمهيد المقدمات . والفاء فصيحة . أى إذا كان الأمر كما ذكر ، من كونهما ساحرين ، يريدان بكم ما ذكر من الإخراج ، والإذهاب ، فأزعموا كيدكم واجعلوه مجماً عليه ، بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم . أفاده أبو السعود . وقوله تعالى « ثُمَّ اُتُوا صَفًّا » أى مصطفىين ، ليكون أهيب في صدور الرائيين « وَقَدْ أَفْلَحَ » أى فاز بالإلانات العظيمة من فرعون وملئه « الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعْلَى » أى علا وغلب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ)

[٦٦] (قَالَ بَلْ أَلْقُوا ، فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ)
« قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ * قَالَ بَلْ أَلْقُوا »

فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيَّهُمْ « أَى الّتى ألقوها » يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى «
أى حَيَات تسعى على بطونها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى)

[٦٨] (قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى)

[٦٩] (وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ، إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِيرٌ ،
وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى)

« فَأَوْجَسَ » أى أحس « فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى » وذلك لما جُبلَ عليه الإنسان
من النفرة من الحيات . أو خاف من توهم الخلق المعارضة ، بأن لهم من حبالهم وعصيمهم حيات .
كما أن له من عصاه حيّة « قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ
مَا صَنَعُوا » أى تلتقطه بفمها « إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِيرٌ » فى مقابلة آية ربانية
« وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى » أى لا يفوز بطلوبه ، أى مكان جاء لدفع الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى)

[٧١] (قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ، إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي

عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ، فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ
وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَينَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى)

« فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا » أى ألقى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا فألقى السَّحْرَةَ سُجَّدًا ،

لما تيقنوا أن ذلك ليس من باب السحر ، وإنما هى آية ربانية « قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ

وَمُوسَى قَالَ « أَيْ فَرْعُونَ » ءَامَنْتُمْ لَهُ وَقَبِلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُوَ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ « أَيْ فَاتَّفَقْتُمْ مَعَهُ لِيَكُونَ لَكُمْ الْمَلِكُ » فَلَا قِطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مَنِ خِلَافٍ « أَيْ مِنْ جَانِبَيْنِ مُتَخَالِفَيْنِ » وَلَا صَلَيبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ « أَيْ الَّتِي هِيَ أَقْوَى الْأَشْخَابِ وَأَخْشَنُهَا » وَلَتَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى « يَعْنِي أَنْكُمْ إِنَّمَا آمَنْتُمْ بِرَبِّ مُوسَى خَوْفًا مِنْ شِدَّةِ عَذَابِهِ ، أَوْ مِنْ تَحْلِيدِهِ فِي الْعَذَابِ (وَلَتَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى) فَإِنَّ رَبَّ مُوسَى لَمْ يَقْطَعْ مِنْ أَحَدٍ يَدَهُ وَرَجْلَهُ مِنْ خِلَافٍ ، وَلَمْ يَصْلِبْهُ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ ، وَلَمْ يَبْقِهِ مَصْلُوبًا ، قَالَهُ الْمُهَاجِمِيُّ . وَضَعَفَهُ الرَّخْشَرِيُّ بِأَنْ فَرْعُونَ يَرِيدُ نَفْسَهُ وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ (ءَامَنْتُمْ لَهُ) أَيْ لِمُوسَى . وَالْإِلَامُ مَعَ الْإِيمَانِ ، فِي كِتَابِ اللَّهِ ، لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى (يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ) وَقَصْدُهُ إِظْهَارُ اقْتِدَارِهِ وَبُطْشِهِ ، وَمَا ضَرَى بِهِ مِنْ تَعَذُّبِ النَّاسِ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ . وَتَوْضِيعُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاسْتِضْعَافُهُ مَعَ الْهَزْءِ بِهِ ، لِأَنَّ مُوسَى لَمْ يَكُنْ قَطُّ مِنَ التَّعَذُّبِ فِي شَيْءٍ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ، فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ، إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

« قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ » أَيْ نَخْتَارُكَ بِالْإِيمَانِ وَالْإِتِّبَاعِ « عَلَىٰ مَا جَاءَنَا » أَيْ مِنْ اللَّهِ عَلَى يَدِ مُوسَى « مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا » أَيْ وَعَلَى الَّذِي خَلَقَنَا . وَاخْتِيَارُ هَذَا الْوَصْفِ لِلْإِشْعَارِ بِعِلَّةِ الْحُكْمِ . فَإِنْ خَالَقْتَهُ تَعَالَى لَهُمْ ، وَكَوْنُ فَرْعُونَ مِنْ جَمَلَةِ مَخْلُوقَاتِهِ ، مِمَّا يُوْجِبُ عَدَمَ إِثَارِهِمْ لَهُ عَلَيْهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . وَهَذَا جَوَابُ مَنْهُمْ لَتَوْبِيخِ فَرْعُونَ بِقَوْلِهِ (ءَامَنْتُمْ لَهُ) وَقِيلَ هُوَ قِسْمٌ مَحْذُوفُ الْجَوَابِ « فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ » أَيْ اصْنَعْ مَا أَنْتَ صَانِعُهُ . وَهَذَا جَوَابُ عَنْ تَهْدِيدِهِ بِقَوْلِهِ (لَا قِطْعَنَ) الْخ « إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » أَيْ فِيهَا وَهِيَ لَا بَقَاءَ لَهَا ، وَلَا سُلْطَانَ لَكَ بَعْدَهَا . وَإِنَّمَا الْبَغْيَةُ الْآخِرَةُ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ،
وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

« إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ
وَأَبْقَى » أى ثواباً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (إِنَّهُ وَمَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى)
« إِنَّهُ وَمَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا » أى فىنقضى عذابه
« وَلَا يَحْيَى » أى حياة طيبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى)
« وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى » أى
المنازل الرفيعة بسبب إيمانهم وعملهم الصالح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى)
« جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى »
أى تطهر من دنس الكفر والمعاصى ، بما ذكر من الإيمان والأعمال الصالحة .

لطائف :

من (الكشاف) و (حواشيه للناصر) .

الأولى - فى تخيير السحرة بين إلقاء موسى وإلقائهم ، استعمال أدب حسن معه ، وتواضع له

وخفض جناح . وتنبيه على إعطائهم النصفة من أنفسهم . وكأن الله عز وعلا ألهمهم ذلك ، وعلم موسى - صلوات الله عليه - اختيار القائهم ، أولاً ، مع ما فيه من مقابلة أدب بأدب ، حتى يبرزوا ما معهم من مكاييد السحر ، ويستنفدوا أقصى طرقهم ومجهودهم . فإذا فعلوا أظهر الله سلطانه ، وقذف بالحق على الباطل فدمغه ، وسلط المعجزة على السحر فحقته ، وكانت آية نيرة للناظرين . وعبرة بيئة للمعتبرين . وقبل ذلك تأدبوا معه بقولهم (فَاجْمَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ) ففوضوا ضرب الموعد إليه . وكما ألهم الله عز وجل موسى ههنا ، أن يجعلهم مبتدئين بما معهم ، ليكون إلقاء العصا ، بعد ، قذفاً بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، كذلك ألهمه من الأول ، أن يجعل مواعدهم يوم زينتهم وعيدهم ، ليكون الحق أبلغ على رؤوس الأشهاد ، فيكون أفضح لسكيدهم وأهتك لستر حرهم .

الثانية - جوز في إشار قوله تعالى (مَا فِي يَمِينِكَ) على (عَصَاكَ) وجهان : أحدهما - أن يكون تعظيماً لها . أى لا تحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة . فإن في يمينك شيئاً أعظم منها كلها . وهذه على كثرتها أقل شيء وأزهر عنده . فألقه يتلقفها بإذن الله ويمحقها . وثانيهما - أن يكون تصغيراً لها أى لا تبال بكثرة حبالهم وعصيم . وألق المويذ الفرد الصغير الجرم الذى في يمينك . فإنه بقدرة الله يتلقفها على وحدته وكثرتها ، وصغره وعظمها . وإنما المقصود بتحقيقها في جنب القدرة ، تحقير كيد السحرة بطريق الأولى . لأنها إذا كانت أعظم مُنَّةً وهى حقيرة في جانب قدرة الله تعالى ، فما الظن بكيدهم وقد تلقفته هذه الحقيرة الضئيلة ؟

ولأصحاب البلاغة طريق في علو المدح بتعظيم جيش عدو المدوح ، ليلزم من ذلك تعظيم جيش المدوح وقد قهره واستولى عليه . فصغر الله أمر العصا ، ليلزم منه كيد السحرة الداحض بها في طرفه عين .

واعلم أنه لا بد من نكتة تناسب الأمرين - التعظيم والتحقير - وتلك ، والله أعلم ،

هى إرادة المذكور مبهما . لأن (مَا فِي يَمِينِكَ) أبهم مِنْ (عَصَاكَ) وللعرب مذهب فى التنكير والإبهام ، والإجمال ، تسلكه مرة لتحقير شأن ما أبهمته ، وأنه عند الناطق به أهون من أن يخصه ويوضحه . ومرة لتعظيم شأنه ، وليؤذن أنه من غناية التكلم والسماع بمكان ، يفتى فيه الرمز والإشارة . فهذا هو الوجه فى إسماعده بهما جميعاً .

ثم قال الناصر : وعندى فى الآية وجه سوى قصد التعظيم والتحقير . والله أعلم . وهو ؛ أن موسى عليه السلام ، أول ما علم أن العصا آية من الله تعالى ، عندما سأله عنها بقوله تعالى (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى) ثم أظهر له تعالى آيتها ، فلما دخل وقت الحاجة إلى ظهور الآية منها ، قال تعالى (وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ) ليمتقظ بهذه الصيغة للوقت الذى قال الله تعالى له (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ) وقد أظهر له آيتها ، فيكون ذلك تنبيهاً له وتأنيساً ، حيث خوطب بما عهد أن يخاطب به وقت ظهور آيتها . وذلك مقام يقاسب التأنيس والتثبيت . ألا ترى إلى قوله تعالى (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى) ؟ انتهى .

ولآبى حيان نكتة أخرى . وهى ما فى اليمين من الإشعار باليمين والبركة . ولا يقال جاء فى سورة الأعراف (أَلْقِ عَصَاكَ) والقصة واحدة . لأنه يجاب بأنه مانع من رعاية هذه النكتة فيما وقع هنا ، وحكاية ما جاء بالمعنى .

هذا وقال الشهاب الخفاجى : فيما ذكره نظر لأنه إنما يتم إذا كان الخطاب بلفظ عربى أو مرادف له ، يجرى فيه ما يجرى فيه . والأول خلاف الواقع . والثانى دونه خروط القتاد ، فتأمل .

أقول إنما استبعد الثانى ، لتوهم أن لا بلاغة ولا نكات إلا فى اللغة العربية . مع أن الأمر ليس كذلك . وحينئذ فيتمين الثانى . وهو ظاهر . وبه تستعاد تلك اللطائف . ثم أشار تعالى إلى عنايته بموسى وقومه ، من إنجائهم وإهلاك عدوهم ، وقد طوى هنا ما فصل فى آيات آخر ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ)

«وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي» أى سر بهم من مصر ليلاً «فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا» أى يابساً . فضرِب موسى بعصاه البحر فانقلب وجاوزه إلى ساحله «لَا تَخَافُ دَرَكًا» أى لا تخاف من فرعون وجنوده أن يدرَكوك من ورائك «وَلَا تَخْشَىٰ» أى غرقاً من بين يديك ، ووحلاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَفَشَّيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشَّيَهُمْ)

[٧٩] (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ)

«فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ» لأنه ندم على الإذن بتسريحهم من مصر ، وأنهم قهروه على قتلهم كما قال^(١) (إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ) فتبعهم ومعه جنوده حتى لحقهم ، ونزلوا في الطريق الذى سلكوه . ففاجأهم الموج كما قال تعالى «فَفَشَّيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشَّيَهُمْ» أى علاهم منه وغمرهم ، ما لا يحاط بهوله «وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ» أى أوردهم الهلاك ، بعتوه وعفاده في الدنيا والآخرة . وما هداهم سبيل الرشاد .

ثم ذكر تعالى نعمه على بنى إسرائيل ومننه الكبرى ، وما وصاهم من المحافظة على شكرها ، وحذرهم من التعرض لغضبه بكفرها ، بقوله سبحانه :

(١) [٢٦ / الشعراء / ٥٥ و ٥٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (يَبْنِيْ اِسْرَءِيْلَ قَدْ اَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ

الطُّورِ الْاَيْمَنِ وَتَزَلَّنا عَلَيْكُمْ الْمَنَّ وَالسَّلَوى)

[٨١] (كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيْهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِيْ،

وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِيْ فَقَدْ هَوَىٰ)

« يَبْنِيْ اِسْرَءِيْلَ قَدْ اَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ » وهو فرعون وقومه . فقد كانوا يسمونكم سوء العذاب . يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم . وذلك بأن أقر أعينكم منهم ، بإغراقهم ، وأنتم تنظرون . « وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْاَيْمَنِ » أى بمناجاة موسى وإتزال التوراة عليه . واليهود السامرية تزعم أن هذا الجبل فى (نابلس) ويسمونه (جبل الطور) ويذكر فى الجغرافيا بلفظ (عيبال) ولهم عيد سنوى فيه يصعدون إليه ، ويقربون فيه القرابين . والله أعلم .

قال الزمخشري : وإنما عدى المواعدة إليهم ، لأنها لا يستهم واتصلت بهم ، حيث كانت لنبيهم ونقبائهم . وإليهم رجعت منافعها التى قام بهم دينهم وشرعهم ، وفيما أفاض عليهم من سائر نعمه وأرزاقه .

و (جانب) مفعول فيه ، أو مفعول به على الانساع . أو بتقدير مضاف . أى إتيان جانب . « وَتَزَلَّنا عَلَيْكُمْ الْمَنَّ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ » أى من لذائذه . فإن المن كالعسل . والسلى من الطيور الجيد لحمها « وَلَا تَطْغَوْا فِيْهِ » أى فيما رزقناكم ، بأن يتعدى فيه حدود الله ، ويخالف ما أمر به « فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِيْ وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِيْ فَقَدْ هَوَىٰ » أى هلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ)

«وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ» أى تاب عما كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق، وعمل صالحاً بجوارحه، ثم اهتدى، أى استقام وثبت على الهدى المذكور. وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح. ونحوه قوله تعالى^(١) (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا) وفى الآية ترغيب لمن وقع فى وهدة الطغيان، ببيان المخرج له منه، كى لا يئأس. وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ)

«وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ» أى أى شئ عجل بك عنهم، على سبيل الإنكار، وكان قد مضى مع النقباء الذين اختارهم من قومه إلى الطور، على الموعد المضروب، ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه ورضاه.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ)

«قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي» أى قادمون ينزلون بالطور، وإنما سبقتهم بما ظننت أنه خير. ولذا قال «وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ» أى عني، بمسارعتي إلى الامتثال بأمرك. واعتنائى بالوفاء بعهديك. وزيادة (رَبِّ) لمزيد الضراعة والابتهال، رغبةً فى قبول العذر. أفاده أبو السعود.

(١) [٤١ / فصلت / ٣٠] و [٤٦ / الأحقاف / ١٣].

فإن قيل: كان مقتضى جواب السؤال من موسى أن يقول (طلبُ زيادةِ رضاك أو الشوقُ إلى كلامك) فالجوابُ . أن هذا من الغفلة عن سرِّ الإنكار . وذلك لأن الإنكار بالذات إنما هو للبعد والانفصال عنهم . فهو منصب على القيد . كما عرف في أمثاله . فالسؤال في المعنى عن الانفصال الذى يتضمنه (أعجلك) المتعدي بـ (من) . وإنكار العجلة لأنها وسيلة له . فالجواب (هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَىٰ أَثَرِي) . وقوله (وَعَجِلْتُ) الخ تميم . وقيل الجواب إنما هو قوله (وَعَجِلْتُ) الخ ، وما قبله تمهيد له .

وقال الناصر: إنما أراد الله تعالى بسؤاله عن سبب العجلة، وهو أعلم، أن يعلم موسى أدب السفر. وهو أنه ينبغي تأخرُ رئيس القوم عنهم في المسير، ليكون نظره محيطاً بطائفته، وناظراً فيهم، ومهيماً عليهم . وهذا المعنى لا يحصل في تقدمه عليهم ، ألا ترى الله عز وجل كيف علم هذا الأدب، لو طأ، فقال^(١) (وَأَتَّبِعْ أَذْوَاعَهُمْ) فأمره أن يكون أخيرهم . على أن موسى عليه السلام إنما أغفل هذا الأمر مبادرة إلى رضا الله عز وجل ، ومسارة إلى الميعاد . وذلك شأن الموعود بما يسره ، يود لو ركب إليه أجنحة الطير . ولا أسرَّ من مواعدة الله تعالى له ﷺ . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ)

« قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ » أى ابتليناهم بعد ذهابك للمناجاة « وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ » يعنى اليهودى الذى وسوس لهم أن يعبدوا عجلاً يتخذوه إلهاً ، لما طالت عليهم غيبة موسى ويئسوا من رجوعه . و (السامرى) فى لغة العرب ، بمعنى اليهودى . وقد قال بالظن ، من ادعى تسميته أو حاول تعيينه . وأما الطائفة السامرية الآن فهم فئة من اليهود فى (نابلس) قليلة العدد تحالف بقية اليهود فى جلّ عاداتها .

(١) [١٥ / الحجر / ٦٥] .

وقد تضمنت هذه الجملة - أعنى إخباره تعالى لموسى بالفتنة - الأمر - رجوعه لقومه ، وإصلاحه مافسد من حالهم ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسِفًا ، قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا ، أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي)

« فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسِفًا » أى حزينا « قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا » أى بإزالة التوراة على ، ورجوعى بها إليكم « أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ » أى زمان الإنجاز ، أو مجيئى « أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي » أى وعدكم إياى بالثبات على ما أمرتكم به إلى أن أرجع من الميقات .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ)

[٨٨] (فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ)

« قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا » قرئ بالحركات الثلاث على الميم .

قال الزمخشري : أى ما أخلفنا موعداك ، بأن ملكنا أمرنا . أى لو ملكنا أمرنا ، وخليفتنا ورائنا ، لما أخلفناه . ولكن غلبنا من جهة السامري وكيد « وَلَكِنَّا حُمِلْنَا » بفتح الحاء مخففاً ، وبضمها وكسر الميم مشدداً « أَوْزَارًا » أى أثقالاً وأحمالاً « مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ »

أى من حلّى القبط ، قوم فرعون ، وهو حلّى نسائهم « فَقَذَفْنَاهَا » أى فى النار لسببها « فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ » أى كان إلقاؤه « فَأَخْرَجَ لَهُمْ » أى من تلك الحلى المذابة « عِجْلاً جَسَداً لَهُ وَخُورًا » أى صوت عجل . وقد قيل : إنه صار حياً ، وخار كما يخور العجل . وقيل : لم تحلّه الحياة وإنما جعل فيه منافذ ومخارج ، بحيث تدخل فيها الرياح فيخرج صوت يشبه صوت العجل . أفاده الرازى .

وقوله « فَقَالُوا » أى السامريّ ومن افتتنوا به « هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَانْصَرُوا » أى غفل عنه وذهب يطلبه فى الطور . ثم أنكر تعالى على من ضل بهذا العجل وأضل ، مسفهاً ، لهم فيما أقدموا عليه ، مما لا يشبهه بطلانه على أحد ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا)

« أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ لَا يَرْجِعُ » أى العجل « إِلَيْهِمْ قَوْلًا » أى لا يرد لهم جواباً « وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا » أى دفع ضرر ولا جلب نفع ، أى فكيف يتخذ إلهاً ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَتَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ

الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي)

« وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ » أى قبل رجوع موسى إليهم « يَتَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ » أى ضلتم بعبادته « وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي » فى عبادته سبحانه ، ونبد العجل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ)

[٩٢] (قَالَ يَهُرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا)

[٩٣] (أَلَّا تَتَّبِعَنِ ، أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي)

« قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ * قَالَ » أى موسى « يَهُرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ » أى فى الغضب لله ، وشدة الزجر عن الكفر . و (لا) مزيدة . أو المعنى ما حلك على أن لا تتبعنى ، بحمل النقيض على النقيض . فإن النعم عن الشيء مستلزم للحمل على مقابله . أو ما منعك أن تلحقنى وتخبرنى بضلالهم ، فتكون مفارقتك مزجرة لهم « أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي » وهو ما أمره به من أن يخلفه فى قومه ، ويصلح ما يراه فاسداً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحِيَّتِي وَلَا بِرَأْسِي ، إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ

فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي)

« قَالَ » أى هرون « يَبْنَؤُمْ » بكسر الميم وفتحها . أراد (أى) وذكرها أعطف لقلبه « لَا تَأْخُذْ بِلِحِيَّتِي وَلَا بِرَأْسِي » أى بشعره . وكان قبض عليهما يجره إليه من شدة غضبه : « إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ » أى بتركهم لا راعى لهم « وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي » أى لم تراعه فى الاستخلاف والوجود بين ظهرائهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ)

« قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ » أى ثم أقبل على السامرى وقال له منكراً : ما شأنك

فما صنعت ؟ وما دعاك إليه ؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي)

[٩٧] (قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ، وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ يُخْلَفَهُ ، وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ، لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا)

« قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ » أى فطنت لما لم يظنوا له « فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا » أى فى الحلى المذاب حتى حى « وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي » أى حسنته وزينته « قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ » أى لعذابك « مَوْعِدًا لَّنْ يُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا » أى لنطيرنه رماداً فى البحر ، بحيث لا يبق منه عين ولا أثر .

تنبيهات

الأول - اعلم أن هرون عليه السلام ، سلك فى هذا الوعظ أحسن الوجوه . لأنه زجرهم عن الباطل ، أولاً بقوله (إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ) ثم دعاهم لمعرفة الله تعالى ثانياً بقوله (وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ) ثم دعاهم ثالثاً إلى معرفة النبوة بقوله تعالى (فَاتَّبِعُونِي) ثم دعاهم إلى الشرائع رابعاً بقوله (وَأَطِيعُوا أَمْرِي) وهذا هو الترتيب الجيد . لأنه لا بد قبل كل شىء فى إمطة الأذى عن الطريق ، وهو إزالة الشبهات . ثم معرفة الله تعالى ، فإنها هى الأصل . ثم النبوة ثم الشريعة . فثبت أن هذا الترتيب على أحسن الوجوه . أفادة الرازى .

وقد رأى الله تعالى بهذه الآيات البينات ، هرون عليه السلام مما افتراه عليه كتبة التوراة ،

من أنه هو السامريّ الذي اتخذ العجل وأمر بمبادته ، كما هو موجود عندهم . وهو من أعظم الفرى ، بلا امترا .

الثانى - عامة المفسرين قالوا : المراد بالرسول في قوله تعالى (فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ) هو جبريل عليه السلام . وأراد بأثره ، التراب الذى أخذه من موضع حافر دابته . ثم اختلفوا : أن السامريّ متى رآه ؟ فقيل : إنما رآه يوم فلق البحر . وقيل : وقت ذهابه بموسى إلى الطور .

واختلفوا أيضاً في : أن السامريّ كيف اختص برؤية جبريل عليه السلام ، ومعرفته من بين سائر الناس ؟ فقيل إنما عرفه لأنه رآه في صغره ، وحفظه من قتل آل فرعون له ، وكان ممن رباه . وكل هذا ليس عليه أثارة من علم ولا يدل عليه التنزيل الكريم . ولذا قال أبو مسلم الأصفهانيّ : ليس في القرآن تصريح بهذا الذى ذكره المفسرون . فههنا وجه آخر وهو : أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام . وبأثره سنته ورسمه الذى أمر به ، فقد يقول الرجل : فلان يقفو أثر فلان ويقبض أثره ، إذا كان يمثل رسمه . والتقدير ، أن موسى عليه السلام لما أقبل على السامريّ باللوم ، والمسألة عن الأمر الذى دعاه إلى إضلال القوم في باب العجل ، فقال (بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ) أى عرفت أن الذى أنتم عليه ليس بحق ، وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول ، أى شيئاً من سنتك ودينك . فقدفته ، أى طرحته . فمئذ ذلك أعلمه موسى عليه السلام بما له من العذاب في الدنيا والآخرة . وإنما أورد بلفظ الإخبار عن غائب ، كما يقول الرجل لرئيسه وهو مواجه له : ما يقول الأمير في كذا ؟ وبماذا يأمر الأمير ؟

وأما دعاؤه موسى عليه السلام رسولاً ، مع جحده وكفره ، فعلى مثل مذهب من حكي الله تعالى عنه قوله ^(١) (يٰٓأَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الدِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) وإن لم يؤمنوا بالإزال . انتهى .

قال الرازي : ما ذكره أبو مسلم أقرب إلى التحقيق مما ذكره المفسرون ، لوجوه :
أحدها - أن جبريل عليه السلام ليس بمشهور بامم الرسول . ولم يجر له فيما تقدم ذكره ،
حتى يجعل لام التعريف إشارة إليه . فأطلاق لفظ (الرسول) لإرادة جبريل عليه السلام ،
كأنه تسكيف بعلم الغيب .

وثانيها - أنه لا بد فيه من الإضمار . وهو قبضة من أثر حافر فرس الرسول . والإضمار
خلاف الأصل .

وثالثها - أنه لا بد من التعمس في بيان أن السامري كيف اختص من بين جميع الناس
برؤية جبريل عليه السلام ومعرفة ؟ ثم كيف عرف أن لتراب حافر فرسه هذا الأثر ؟ والذي
ذكره من أن جبريل عليه السلام هو الذي ربه ، فبعيد . لأن السامري ، إن عرف جبريل
حال كمال عقله ، عرف قطعاً أن موسى عليه السلام نبي صادق . فكيف يحاول الإضلال ؟
وإن كان ماعرفه حال البلوغ ، فأى منفعة لكون جبريل عليه السلام مريباً له حال الطفولية ،
في حصول تلك المعرفة ؟ انتهى .

التنبية الثالث في قوله تعالى (لَا مَسَاسَ) وجوه :

أحدها - إني لا أمس ولا أمس .

وثانيها - المراد المنع من أن يخاطب أحداً أو يخاطبه أحد ، عقوبة له .

ثالثها - ما ذكره أبو مسلم من أنه يجوز في حمله (ما أريد مسى النساء) فيكون من
تعذيب الله إياه انقطاع نسله . فلا يكون له ولد يؤنس ، فيخليه الله تعالى من زينى الدنيا
اللتين ذكرها بقوله ^(١) (أَلْمَالُ وَالْأَنفُسُ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أى لأن المس يكنى به عن
النكاح كما في آية ^(٢) (مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ) والله أعلم .

(١) [١٨ / السكف / ٤٦] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣٧] .

ولما فرغ موسى عليه السلام من إبطال ما دعا إليه السامريّ ، عاد إلى بيان الدين الحق ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا)
 « إِنَّمَا إِلَهُكُم » أى المستحق للعبادة والتعظيم « اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا » أى أحاط علمه كل شيء . ثم أشار تعالى إلى فضله ، فيما قصه على خاتم رسله صلوات الله عليه ، من أنباء الأنبياء ، تنويعاً بشأنه ، وزيادة في معجزاته ، وتكثيراً للاعتبار والاستبصار فى آياته ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ ، وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا)

« كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ ، وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا » أى كتاباً عظيماً جامعاً لكل كمال ، وسعى القرآن (ذِكْرًا) لما فيه من ذكر ما يحتاج إلى الناس من أمر دينهم ودنياهم ، ومن ذكر آلاء الله ونعمائه . ففيه التذكير والموعظ . ولما فيه من الذكر والشرف له صلوات الله عليه ولقومه .

قال الرازى : وقد سعى تعالى كل كتبه (ذِكْرًا) فقال ^(١) (فَسَاءَ لَوْ أَهْلَ الذِّكْرِ) .
 ثم ، كما بين تعالى نعمته بذلك ، بين شدة الوعيد لمن أعرض عنه ولم يؤمن به ، بقوله :

(١) [١٦ / النحل / ٤٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا)

[١٠١] (خَالِدِينَ فِيهِ ، وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا)

« مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا » أى إنمّا . يعنى عقوبة ثقيلة .
شبهت بالحمل الثقيل لثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها « خَالِدِينَ فِيهِ » أى فى احتماله المستمر
« وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا » . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ، وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا)

[١٠٣] (يَتَخَفَتُونَ يَدَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا)

« يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ » بدل من يوم القيامة أو منصوب بمحذوف . والنفخ فى الصور
تمثيل لبعث الله للناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلا نفخة فى بوق^(١) (فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ
يَنْظُرُونَ) وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ فى الصور . وليس علينا أن نعلم ما هى حقيقة
ذلك الصور . والبحث وراء هذا ، عبث لا يسوغ المسلم . أفاده بعض المحققين .

« وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ » أى نسوقهم إلى جهنم « يَوْمَئِذٍ زُرْقًا » أى زرق الوجوه .
الزرقة تقرب من السواد . فهو بمعنى آية^(٢) (وَتَسْوَدُّ وُجُوهُ) .

وقال أبو مسلم : المراد بهذه الزرقة شخوص أبصارهم . والأزرق شاخص ، لأنه لضعف
بصره ، يكون محدقاً نحو الشيء يريد أن يتبينه . وهذه حال الخائف المتوقع لما يكره . وهو
كقوله تعالى^(٣) (إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) نقله الرازى . والأول أظهر .

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٨] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٠٦] .

(٣) [١٤ / إبراهيم / ٤٢] .

« يَتَحَفَّتُونَ بَيْنَهُمْ » أى يتسارون من الرعب والهول، أو من الضعف، قائلين «إِنْ لَبِثْتُمْ» أى فى الدنيا «إِلَّا عَشْرًا» أى عشر ليال. قال الزمخشري: يستقصرون مدة لبثهم فى الدنيا، إما لما يعاينون من الشدائد التى تذكرهم أيام النعمة والسرور ، فيتأسفون عليها ويصفونها بالقصر . لأن أيام السرور قصار . وإما لأنها ذهبت عنهم وتقصت . والذاهب ، وإن طالت مدته ، قصير بالانتهاء . ومنه توقيع عبد الله بن المعتز تحت: أطل الله بقاءك (كفى بالانتهاء قصرًا) . وإما لاستطاعتهم الآخرة ، وأنها أبد سرمد ، يستقصرون إليها عمر الدنيا ، ويتقال لبث أهلها فيها ، بالقياس إلى لبثهم فى الآخرة . وقد استرجع الله قول من يكون أشد تقالًا منهم ، فى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا) « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً » أى أعد لهم رأيًا « إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا » ونحوه قوله تعالى ^(١) (قَلِيلَ كَمَ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَادِينَ) انتهى .

قال أبو السعود : ونسبة هذا القول إلى أمثلهم ، استرجاع منه تعالى له ، لكن لالكونه أقرب إلى الصدق ، بل لكونه أدلّ على شدة الهول . أى : ولكونه منتهى الأعداد القليلة . وكذلك لبثهم بالنسبة إلى الخلود السرمديّ ، وإلى تفضي الغائب الذى كأن لم يكن . ولا ينافى هذا ما جاء فى آية ^(٢) (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ * يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ) لأن المراد بالساعة الحصة من الزمان القليل ، فتصدق باليوم . كما أن المراد باليوم مطلق الوقت . ولذلك نكر ، تقيلاً له وتحقيراً .

(١) [٢٣ / المؤمنون / ١١٢ و ١١٣] . (٢) [٣٠ / الروم / ٥٥] .

قال الشهاب : ليس المراد بحكاية قول من قال (عَشْرًا) أو (يَوْمًا) أو (سَاعَةً) حقيقة اختلافهم في مدة البث ، ولا الشك في تعيينه . بل المراد أنه لسرعة زواله ، عُبِّرَ عن قلته بما ذكر . فتنن في الحكاية ، وأتى في كل مقام بما يليق به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا)

[١٠٦] (فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا)

[١٠٧] (لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا)

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ » أى هل تبقى يوم القيامة أو تزول « فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا » أى يزيلها عن مقارها . فيسيرها مقذوفة في الفضاء . وقد تمرّ على الرؤوس مرّ السحاب . حتى تتساوى مع سطح الأرض . كما قال « فَيَذَرُهَا » أى فيذر مقارها ومراكزها . أو الأرض المدلول عليها بقرينة الحال « قَاعًا » أى سهلًا مستويًا « صَفْصَفًا » أى أملس « لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا » أى نتوءًا يسيرًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ

فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا)

« يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ » أى يُجيبون الداعى إلى المحشر ، فينقلبون من كل صوب إليه « لَا عِوَجَ لَهُ » أى لا يعوج له مدعو ، ولا ينحرف عنه . بل يستوتون إليه ، متبهمين لصوته ، سائرين بسيره .

في شروح (الكشاف) : هذا كما يقال (لا عصيان له) أى لا يعصى . و (لا ظلم له) أى لا يظلم . وضمير (له) للداعى . وقيل : المصدر . أى لا عوج لذلك الانبعاث « وَخَشَعَتِ

أَلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ « أَى انخفضت لهيبته ولهول الفزع » فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا « أَى صوتاً خفياً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا)

« يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا » أَى قَبِل قوله . والمعنى : يومئذ لا يستطيع أحد أن يشفع لأحد ، إلا إذا أذن الله له ، ولا يأذن إلا لمن علم أنه سيجاب .

قال بعض المحققين : وإنما يكون الكلام ضرباً من التكريم ، لمن يأذن الله له به ، يختص به من يشاء . ولا أثر له فيما أراد الله البتة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا)

« يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا » أَى بعلوماته ، أو بذاته العلية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ، وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا)

« وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ » أَى ذلت وخضعت خضوع العناة ، أَى الأسارى . لأنها فى أسر مملكته وذل قهره وقدرته . لا تحيا ولا تقوم إلا به .

ولما كانت الوجوه يومئذ ، منها الظالمة لنفسها ومنها الصالحة ، أشار إلى ما يجزى به الكل ، بقوله سبحانه « وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا » أَى خسر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) « وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا » أى نقص ثواب « وَلَا هَضْمًا » أى ولا كسرًا منه ، بعدم توفيقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا)

« وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ » أى بعبارات شتى ، تصريحًا وتلويحًا ، وضروب أمثال ، وإقامة براهين « لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » أى الكفر والمعاصى بالفعل « أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا » أى انعاظًا واعتبارًا ، يؤول بهم إلى التقوى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)

« فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ » أى تنهى فى العلو والعظمة ، بحيث لا يقدر قدره ، ولا يقدر أمره فى ملكه الذى يعلم كل شىء ، ويصرفه بمقتضى إرادته وقدرته . وفى عدله الذى يوفى كل أحد حقه بموجب حكمته « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ » أى: بل أنصت . فإذا فرغ الملك من قراءته فاقراء بعده . وقد كان رسول الله ﷺ إذا لقنه جبريل الوحي ، يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل كلمة ، لسكمال اعتنائه بالتلقى والحفظ . فأرشد إلى أن لا يساوقه فى قراءته ، وأن يتأنى عليه ريثما يسمعه ويفهمه . ثم ليقبل عليه

بالحفظ بعد ذلك. ونحوه قوله تعالى (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَمَاجِلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) ثم أمره تعالى باستفاضة العلم واستزادته منه بقوله « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا » أى سله زيادة العلم. فإن مدده غير متناهٍ .

وهذا - كما قال الزمخشريّ - متضمن للتواضع لله تعالى والشكر له ، عندما علم من ترتيب التعلم . أى علمتنى يا رب لطيفة فى باب التعلم ، وأدباً جميلاً ما كان عندى ، فردنى علماً إلى علم . فإن لك فى كل شيء حكمة وعلماً . قيل : ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة فى شيء إلا فى العلم . ثم أشار تعالى إلى أخذه العهد على بنى آدم ، من أتباعهم كل هدى يأتهم منه سبحانه ، وترتب الفوز عليه . وإلى أن الإعراض عنه من وسوسة الشيطان ، العدو لهم ولأبيهم قبلهم . وترتب الشقاء عليه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا)

« وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ » أى من قبل هذا الزمان ، أن لا يقرب من الشجرة « فَنَسَىٰ » أى العهد « وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا » أى تصميمياً فى حفظه . إذ لو كان كذلك ، لما أزلّه الشيطان ولما استطاع أن يغرّبه . كما بيّنه الله تعالى بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ)

[١١٧] (فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ)

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَا آدَمُ

إِنَّ هَذَا عَذُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى « أى بالابتلاء . وإسناد الشقاء إليه خاصة ، لأصالته فى الأمور ، واستلزام شقائه بشقائها . فاختصر الكلام لذلك ، مع المحافظة على الفاصلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ)

[١١٩] (وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ)

« إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ » أى لا تقصون من حرّ الشمس .

قال أبو السعود: هذا تعليل لما يُوجبه النهى . فإن اجتماع أسباب الراحة فيها، مما يوجب المبالغة فى الاهتمام بتحصيل مبادئ البقاء فيها . والجدّ فى الانتهاء عما يؤدى إلى الخروج عنها . والعدول عن التصريح بأن له عليه السلام فيها تفعماً بفنون النعم . من المآكل والمشارب ، وتمتعاً بأصناف الملابس البهيّة والمساكن المرضية ، مع أن فيه من الترغيب فى البقاء فيها ، ما لا يخفى . إلى ما ذكر من نفى نقائصها التى هى الجوع والعطش والعرى والضحو ، لتذكير تلك الأمور المنكرة والتنبيه على ما فيها من أنواع الشقوة التى حذر عنها ، ليمالغ فى التحامى عن السبب المؤدى إليها . انتهى .

لطيفة :

قال الناصر : فى الآية سر بديع من البلاغة ، يسمى قطع النظير عن النظير . وذلك أنه قطع الظماً عن الجوع ، والضحو عن الكسوة ، مع ما بينهما من التناسب . والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها : ولو قرن كلاً بشكله لتوهم المعدادات نعمة واحدة .

وقد رمق أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديماً وحديثاً ، فقال السكندى الأول^(١) :
 كَبَّائِي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلذِّدِ ولم أَتَبَطَّنْ كَاعِمًا ذَاتَ خَلْخَالِ
 ولم أَسْبَأِ الرِّقَّ الرَوِيَّ ولم أَقُلْ نَخِيلِي : كَرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ
 فقطع ركوب الجواد عن قوله (نخيلى كرى كرة) وقطع تبطن السكعب عن ترشف
 الكاس ، مع التناسب . وغرضه أن يعدد ملاذّه ومفاخره ويكثرها .
 على أن فى هذه الآية سرّاً لذلك ، زائداً على ما ذكر ، وهو قصد تناسب الفواصل .
 ولو قرن الظماً بالجوع فقيل : إن لك أن لا تجوع فيها ولا تظماً ، لا تنتثر سلك رؤوس الآي .
 وأحسن به منتظماً . انتهى . وهذا السرّ الذى سَمَّاهُ (قطع النظير عن النظير) يسمى بالوصل
 الخفى . ومما قيل فى وجه القطع : أن فيه التنبيه على أن الأولين ، أعنى الشبوع والكسوة
 أصلان . وأن الآخرين متممان . فالامتنان على هذا أظهر . ولذا فرّق بين القرينتين . فقيل
 (إِنْ لَكَ) و (أَنْكَ) وأيضاً روى مناسبة الشبوع والكسوة . لأن الأول يكسو العظام
 لحما . وأما الظماً والضحى فمن وادٍ واحد . وقيل : إن الغرض تعديد هذه النعم . ولو قرن
 كل بما يشاء كاه ، لتوهم المقرونان نعمة واحدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ

وَمُلْكٍ لَا يَبْئَلُ)

[١٢١] (فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ

الْجَنَّةِ ، وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى)

« فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ » أى من أكل

(١) البيتان السابع والثلاثون والثامن والثلاثون من قصيدة امرئ القيس التى مطلعها :

أَلَا عَمَّ صَبَاحاً أَيْهَا الطَّلَلُ الْبَالِي وهل يَعْنِي مَنْ كَانَ فِي الْعُصْرِ الْخَالِي ؟

منها خلد ولم يمت « وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ » * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا « أَى يُلْزَقَانِ » مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ « أَى فُحْصِلَ لهُمَا هَذَا الْخُزَى ، بَدَل عِزِّ الْمَلِكِ الْمَخْلُودِ . وَهَذِهِ الْأَوْرَاقُ الْفَانِيَّةُ ، بَدَلِ نَقَاسِ الْمَلَابِيسِ الْخَالِدَةِ « وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ وَ « أَى بَارْتِكَابِ الْفَهَى ، وَتَرَكَ الْعِزْمَ فِي حِفْظِ الْعَهْدِ « فَعَوَّى » أَى عَنِ الْمَأْمُورِ بِهِ . حَيْثُ اعْتَزَّ بِقَوْلِ الْعَدُوِّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ وَفَتَّابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ)

[١٢٣] (قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ)

« ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ وَ « أَى اصْطَفَاهُ وَوَقَّهَ لِلْإِنَابَةِ « فَتَّابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ » * قَالَ « أَى بَعْدَ قَبُولِ تَوْبَتِهِ « أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا » أَى انْزِلَا مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ « بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » أَى مُتَعَادِينَ .

قال المہامی : فالمرأة عدوة الزوج ، فى إجلائه إلى تحصيل الحرام . والزوج عدوها فى إنفاقه عليها . وإبليس يوقع الفتنة بينهما ، ويدعوها إلى أنواع المفاسد التى لا ترتفع إلا باتباع الأمر السماوى . « فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى » أَى مِنْ كِتَابِ وَرَسُولِ . « فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ » أَى لَا فِى الدُّنْيَا وَلَا الْآخِرَةِ . قال أبو السعود : ووضع الظاهر موضع المضمرة فى قوله (هُدَايَ) مع الإضافة إلى ضميره تعالى ، لتشريفه والمبالغة فى إيجاب اتباعه . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى)

[١٢٥] (قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا)

[١٢٦] (قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ، وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى)

[١٢٧] (وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى)

« وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى » اعلم أنه لما أخبر سبحانه عن حال من اتبع هداة في معاشه ومعاده ، أخبر عن حال من أعرض عنه ولم يتبعه ، من شقائه في الدنيا والآخرة . وهذا الشقاء بقسميه ، هو نوع من أفانين العذاب اللاحقة لمن تولى عن هدى الله الذي بعث به خاتم أنبيائه ، ولم يقبله ولم يستجب له ، ولم يتعظ به فينجزر عما هو عليه مقيم من خلافه أمر ربه . وفي الآية مسائل :

الأولى - قال الرازي في قوله تعالى (عَنْ ذِكْرِي) : الذكر يقع على القرآن وعلى سائر كتب الله تعالى . ويحتمل أن يراد به الأدلة . وقال ابن القيم في (مفتاح دار السعادة) : أى عن الذكر الذى أنزلته . و (الذكر) هنا مصدر مضاف إلى الفاعل . ك (قيامى وقرأتى) لا إلى المفعول . وليس المعنى : ومن أعرض عن أن يذكرنى . بل هذا لازم المعنى ومقتضاه من وجه آخر . وأحسن من هذا الوجه أن يقال : الذكر هنا مضاف إضافة الأسماء ، لإضافة

المصادر إلى معمولاتها . والمعنى : ومن أعرض عن كتابي ولم يتبعه ، فإن القرآن يسمى ذكراً . قال تعالى ^(١) (وَهَذَا ذِكْرٌ مُبْرَكٌ أَنْزَلْنَاهُ) وقال تعالى ^(٢) (ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ) . وقال تعالى ^(٣) (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) . وقال تعالى ^(٤) (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالدِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ) . وقال تعالى ^(٥) (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ) ، وعلى هذا إفاضته كإضافة الأسماء الجوامد التي لا يقصد بها إضافة العامل إلى معموله . ونظيره في إضافة اسم الفاعل ^(٦) (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ) فإن هذه الإضافات لم يقصد بها قصد الفعل المتجدد ، وإنما قصد الوصف الثابت اللازم . ولذلك جرت أوصافاً على أعرف المعارف ، وهو اسم الله تعالى في قوله تعالى ^(٧) (تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ) الآية .

الثانية - قرئ (ضَنْكًا) بالتنوين على أنه مصدر وصف به ، ولذا لم يؤنث لاستوائه في القبيلين . كما قال ابن مالك :

وَلَتَعْتَوْا بِمَصْدَرٍ كَثِيرًا فَالْتَزَمُوا الْإِفْرَادَ وَالتَّذْكِيرَ

وفي القاموس : الضنك الضيق في كل شيء ، للذكر والأنثى . يقال : ضنك ككرم ، ضنكا وضناكة وضنوكه ، ضاق . وقال السمين : (ضنكا) صفة معيشة . وأصله المصدر فلذلك لم يؤنث . ويقع للمفرد والمثنى والمجموع بلفظ واحد . وقرأ الجمهور (ضنكا) بالتنوين وصلًا ، وإبداله ألفاً وقفًا ، كسائر المعربات . وقرأت فرقة (ضنكي) بألف كسكرى . وفي هذه الألف احتمالان : إما أن تكون بدلاً من التنوين ، وإنما أجرى الوصل مجرى الوقف ، وإما أن تكون ألف التأييد بني المصدر على (فعلى) نحو دعوى .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٥٠] . (٢) [٣ / آل عمران / ٥٨] .

(٣) [٦٨ / القلم / ٥٢] . (٤) [٤١ / فصلت / ٤١] .

(٥) [٣٦ / يس / ١١] . (٦) [٤٠ / غافر / ٣] . (٧) [٤٠ / غافر / ٣٥] .

الثالثة - ذكروا في هذه المعيشة الضنك التي للكافر أقوالاً : إنها في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة أو في الدين . والأظهر الأول لمقابلته بالوعيد الأخروي . قال ابن كثير : أى ضنكاً في الدنيا ، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدوره . بل صدره ضيق حرج لضلاله ، وإن تنعم ظاهره ، ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء . فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى ، فهو في قلق وحيرة وشك . فلا يزال في ريبه يتردد . فهذا من ضنك المعيشة . انتهى .

وذلك لأن الاعتقاد بالدين الحق واليقين الصحيح لراحة الضمائر والأنفس ، فوق كل الأهواء واللذات والمآرب . فالضنك المعنى بها ، إذن هو الضنك الحيوى والقلق الدينى ، من اضطراب القلب وعدم سكون النفس إلى الاعتقاد الحق والإيمان بالدين القيم الذى هو دين الإسلام . فكل من لم يؤمن به فهو في ضيق صدر وهموم ومحابس ، لا يجد منها مخرج إلا به ولا يرتاب في ذلك إلا من كبر حسه وناقض وجدانه . فإن دين الإسلام هو دين الفطرة . دين اليسر . دين العقل . دين النور الذى تنشرح به الصدور وتطمئن به القلوب وتشفى به الأنفس من أدوائها ، وتهتدى به من ضلالها وحيرتها ، وتستغنى به من ظلماتها . ولذلك سمى هدًى ونوراً وشفاء ورحمةً . ألق نظرك على الأديان كلها ، وقابل بينها وبينه ، لتدرك ذلك .

هذه اليهودية ، يرى في اشتراعها من الآصار والأغلال والتكاليف الشاقة في المعيشة الحيوية ما لا يطاق . قيود في المأكل والمشرب . وحجر في المنكح والمبيت والمعاشرة . وضغط على الأنفس بتقسيمها إلى طاهرين يحضرون الاحتفالات ، ونجسين مبعدين لا يلمسون ولا يلمسون . دع عنك خرافات الاعتقادات والافتراء بالأهواء في التشريعات وتشعبها في الأهواء إلى شعب تتباين في العبادات .

وهذه النصرانية ، الذى أساسها تعديل الشرعة الموسوية قام رهبانها بعد رفع المسيح ،

ومضى عصر الحوارين . فأطلقوا لأنبياءهم كل قيد في اليهودية . وأمروهم بنبذ أحكام التوراة نكالية لليهود . وأخذوا يشرعون للناس ما لا ينطبق على أصل التوراة ولا بعثة عيسى . فإنه عليه السلام قال (ما جئت لأهدم التوراة - بل لأتممها) . فترى ما أحدث من طقوس الكنيسة وتعاليمها ، اعتقاداً وعبادة وسلطة وسيطرة جائرة على العقل والفكر ، وربط الأمور بأيدي الكهنة حلاً وإبراماً ، تبعاً لرغائب الأنفس والشهوات ، مما يقتضجر منه كل مسيحيّ ذاق جوهر الدين المسيحيّ حقاً . إذ جوهره مع ابتداعهم على طرفي نقيض ، فأنّى لا يضيق ذرعه ولا تضنك معيشته ! لذلك لما استقر سلطان الإسلام بالأندلس ، واحتك النصرانيون بالمسلمين في الحروب الصليبية ، واستمدوا من معارف الإسلام وعلومه ما قلدهم من لا تنكر ، أخذوا يقاومون الكنيسة في حظرها على المعارف والفنون ، ومعاداتها للعلوم . وجرى بإغراء الكهنة ، من الدماء المسفوكة ما أسودت به صحف التاريخ . ثم كان الفوز لدعاة الإصلاح . وتفرقوا أحزاباً . ولا يزالون يقتربون إلى الإسلام ، بنبذهم سخائف ماورثوه . ولذا تراهم في عيشة ضنك يسعون لأرق مما هم عليه ، علماً بأن الدخائل والبدع في دينهم ، أفسدت عليهم ما أفسدت . ولن يتسنى لهم الرقّ إلا بالرجوع إلى دين الفطرة . وهم يسعون إليه ، وإن كانوا لا يشعرون ، أو يشعرون ويتجاهلون . هذه رشحات من المعيشة الضنك لأمّتين عظيمتين ، وهما تنتميان إلى كتابين منزّلين .. فما ظنك بالمجوس والوثنيين وفرقهم التي لا تحصى . ولا يزال عقلاؤهم يطلبون التلصص منها ، لكثرة خرافاتها وضررها ، نفساً ومالاً وعرضاً . فأهلها في شقاء وعذاب لا يشاكله عذاب . ومن نجا من ويلاتها بالإسلام ، لا يعد ولا يحصى . وقس على هؤلاء ، الطائفة المسماة بالملاحدين . وهم الدهريون والطبيعيتون . فإنهم بلا ريب أضيق صدرأً وأضنك معيشةً وأشد اضطراباً وأعظم فرقةً فلا يمكن أن يوجد اثنا عشر على رأي واحد . بل يتصور كل منهم إلهه كما يهوى وكما تخيّل له رغائبه وشهواته . قال بعضهم : هؤلاء الذين يحصرون دينهم في أن يعرف الإنسان الله ، ويكون مستقيماً في أعماله ، إذا سئلوا :

ما هو الدين الطبيعي الذي تعترفون به ؟ فيجيبون إنما هو الذي يرشد إليه العقل عرياً عن الوحي . فيقال لهم : العقل ، من حيث هو ، ضعيف متغير قاصر . يرى اليوم صوباً ما يراه في الغد خطأً . ويحكم اليوم على أمر أنه حلال مباح ، ويرى غداً أنه حرام لا يجوز إتيانه . تحمله أغراضه على استحلال ما يلد له وتجعله مستنفرًا مما يصاد أهواءه ، فكيف يكون صاحبه مستقيماً في أعماله ؟ وما هي القاعدة المطردة الثابتة للاستقامة عند هؤلاء ؟ وكل يرى نفسه ويخيّل له أنه مستقيم !! فالصيني مثلاً يرى نفسه مستقيماً ولو باع أو قتل أولاده . والهندي يرى هذه الاستقامة في نفسه ، ولو أحرق المرأة على جثة رجلها . والوثني يرى نفسه مستقيماً ، ولو ارتكب الفحشاء تكملة للزهرة .

هذا ، وإن أكبر الفلاسفة ضلّوا في مواد ما يشرعون . ولم يهتدوا لجادة الاستقامة الحقة . فأنّى يمكن إمامة الناس أن يكون لكل منهم دين طبيعيّ يقبله كيف شاء ، ويجعله كشيء مرن ، يمدّه إلى ما طاب له ، ويقصره عن كل ما عافه . فيختلف هذا الدين باختلاف العقول والأهواء فيهم . وكيف نسمي شريعة ثابتة عامة ، ما كان وفقاً على إرادة كل فرد وأهوائه ؟ وإذا سلمنا ، مجازاة ، أنه يوجد من كان ميّلاً طبعاً إلى الاستقامة والعدل والعفة ، فيحمله طبعه على ذلك ، فماذا نقول فيمن كان بالطبع محبباً للانتقام والاعتداء والشهوات . لاسيما والعقل ضعيف والنفس أمارة بالسوء . فأنّى يكون العقل وحده وازعاً عن ارتكاب المعاصي والجرائم . فما قضى سبحانه بشريعته لمخلوقاته رحمة منه بهم ، إلا لضعفهم وميلهم إلى الشر . وضعف الإنسان وانحرافه يقضى بإلزامه شريعة يخضع لها . فهي ضرورية له ضرورة نظام الأجرام الفلكية لها . وملازمة له ملازمة النطق والإدراك والحرية ، ولزوم الامتداد والثقل والجذب والدفع للأجرام الجامدة . وأول بينة على ملازمة الشريعة طبع الإنسان ، ما يجده في نفسه ووجدانه من انفراسها فيه انفراساً نظرياً . حتى لا يمكنه أن يجرد نفسه . مثلاً ، كيف يمكن للإنسان ، ولو مهما تعامى في الشر ، أن يجرد نفسه عن تصور

أنه خاضع لشريعة تنهأ عن القتل واختلاس مال غيره والاعتداء عليه بأي نوع كان ؟ فالشريعة مكتوبة على قلوبنا في ألواح لحية . ومن بحث عن عموم سكان البسطة ، وجد إجماع القبائل والشعوب قاطبة على شرائع ، وإن اختلفت في بعض موادها . والحرية التي منحت للإنسان إنما قيدت محاسنها بالشرائع والخضوع لها . وإلا فهي دمار لنظام العالم ، وجأحة للأدب ، وآفة لما غرس البارئ في عقول الناس أجمعين ، من عهد آدم إلى يومنا هذا . وذلك لاستلزامها إفساد الطبع الإنساني ، والإجحاف بالشرائع الأدبية . لأن الإنسان متى علم أن ليس له إله يثيب على الخير ويعاقب على الشر ، أطلق لنفسه عنان الفساد ، واطرح العذار في مضمار الشهوات وإحراز الرغائب ، قضاء لما يحسبه من سعادته ، واعتقاد أن نفسه ليست خالدة . وليس لسعادته موضوع خارج عن هذه العاجلة . ولاستلزامها أيضاً هدم الاجتماع الإنساني والذهاب بشأفته . إذ لا ترعى بعد الله ذمة بين الملأ ، ولا حرمة للسنن والشرائع ، ولا برّاً بالملوك ، ولا عدل بالرعية ، ولا محبة ولا صدق ولا وفاء . ولا نحو ذلك مما هو ضروري بالذات لقيام الألفة البشرية ونظام العمران .

وبالجملة ، فلا يظن أحد أن العالم يدوم أويبقى فيه شيء من النظام أو الهيئة الاجتماعية ، إذا لم يكن الناس مقيدين بشريعة إلهية ، تصدّ الفاجر عن الفجور . فكما أن الهواء ضروري للحياة الطبيعية ، فكذا الشريعة ضرورية للحياة الأدبية . فلا حياة للموجودات الحية دون هواء ، فكذا لا انتظام ولا هيئة في العالم دون الشريعة . انتهى .

وقال إمام مدقق ، في بحث تصحيح الاعتقاد وضرورته لطمأنينة النفس وسعادتها ، ما مثاله : إنا نرى أمام أعيننا بعضاً من الناس قد رزقوا صحة عظيمة وثروة جسيمة وتهذبوا بأنواع العلوم والمعارف ، ولكنهم كثيرو الضجر شديدو الحيرة . لا يكادون يشعرون بالراحة ولا يلتذون بملذة . كأن لهم في لذة الماء ، وبإزاء كل فرح ترحاً ، يحسون بكآبة قد رانت على صدورهم . فلا يعلمون سببها ولا يعرفون موجبها . كآبة لا ترايلهم إلا بزوال عقولهم

عنهم ، بكأس من الرحيق . فلذلك تراهم شديدي السكاف به كثيرى التحرق لفقدانه ، لأنه دواؤهم الوحيد . ما سر هذا الأرق والضجر ، مع هذه الصحة الجسمية وتلك الثروة المالية ، وما الأمران اللذان عليهما ، كما يزعمون ، مدار السعادة الإنسانية ؟ ما هذه الحيرة الوجدانية والوحشة الضميرية ، مع تهذيبهم بأنواع العلم ، وهو كما يزعمون ، الشافي للغاس من نزغات الوسواس ؟

أما يدلنا هذا الضجر السرى على أن النفس تائقة لأمر ما ، إن غاب على الإنسان علمه ، فقد دله عليه أثره . وإن ذلك الأمر ليس هو صحة البدن ولا وفرة المال ولا كثرة البنين ، ولا سكنى القصور ، ولا أكل الصنوف ، ولا سماع العيذان ، ولا مغازلة الفيد . بل هو أمر آخر لا تعد هذه الملاذ بالنسبة له إلا هباء ، ولا الأكوان بجانبه إلا فناء . . . ما هو هذا الأمر السامى الذى لو حصلت عليه النفس اطمأنت وسكنت ، وهامت به وسكرت ، ورضيت به وقنعت . هو لا شك صحة المعتقد ، وإليك الدليل :

ليست النفس من طبيعة هذه الأجسام الصماء . ولا من طينة هذه المادة العمياء ، حتى تأنس إلى شئ من أشياء هذه الأرض الحقيرة ، أو تهتم بملاذها مهما كانت كبيرة . بل هى من طبيعة نورانية محضة . فلا تأنس إلا للنور يجلى عنها ظلمات الأشياء الأرضية الكثيفة ، لتشرف على حضرة القدس المنيفة ، وتطل على حظائرها الشريفة . النفس أجل من أن تقنع بالمشتبهيات الجسمانية ، وأكبر من أن ترضى بملاذها المموهة الفانية . فهما غالط الإنسان نفسه ، بجمع المال ورفاهة الحال ، ليرتاح سره ويسكن اضطرابه ، فإن النفس لا تقفأ تقيم عليه الحجة بعد الحجة ، ليمتدى إلى وضح الحجة . فإن تبصر فى أمره ، واكتفه حقيقة سره ، وأنال نفسه بغيثها من إبلاغها نورها المرجو لها ، سكن فؤاده وآب إليه رشاده . ولو كان جسمه بين القنا والقنابل . وحاله من الفقر فى أخس المنازل . فما هو السبيل إلى إبلاغ هذه النفس الهائمة أمنيتهما ، وإمتاعها بطلبتها ، من صحة العقيدة ؟ السبيل لذلك هو العقل

السليم . العقل في النوع الإنساني خصيصة من أجل خصائصه ، ومنحة من أفضل منح الله عليه ، لو استعمل فيما وضع له ، واعتنى بصحته واعتداله . بالعقل يسبر الإنسان غور هذا الوجود العظيم ، على ضخامة أجزائه وعظم أبعاده . ويستكنه سير الفواميس السائدة عليه ، فيستدل بها على وجود الخالق عز وجل ، وعلى تنزه أفعاله عن العبث ، وصنائه عن اللهو . كما يستدل به على علمه وتدييره ورحمته وحكمته ، استدلالاً محسوساً لا يقبل شبهة ولا يداخله ريب . بالعقل يدرس الإنسان أحوال الجمعيات البشرية . فيرى نواميس رقيها وهبوطها ، وأسباب رفعتها وضعفها . ويتبصر في أحوال الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى خلقه هادين مرشدين . فيستدل بالتدقيق فيما جاءوا به ، وفي الآثار التي تركوها ، على معنى النبوة وضرورتها للبشر . وحكمة الله تعالى في اختلاف المدارك والإحساسات ، وفي تباين الملل والديانات . بالعقل يميز الإنسان بين أحوال الماضي والحال . فيفرق تبعاً لذلك بين الديانات الخاصة وبين الديانات العامة . ويميز بتمصيد العلم والبداهة ، على الديانة التي يجب أن تكون خاتمة الأديان كلها ، وبقية بقاء النوع الإنساني ، وهي شريعة خاتم النبيين صلوات الله عليه وسلامه .

الرابعة - رأيت للإمام ابن القيم، رحمه الله، كلاماً على هذه الآية في كتابيه : (الجواب السكافي) و (مفتاح دار السعادة) فأحببت نقله هنا لفوائده وللعناية بهذه الآية، فإنها جديرة بذلك . قال في (الجواب السكافي) في فصل أبان فيه العقوبات المترتبة على المعاصي : ومنها المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ والعذاب في الآخرة . قال : وفسرت المعيشة الضنك بمذاب القبر . ولا ريب أنه من المعيشة الضنك . والآية تتناول ما هو أعم منه ، وإن كانت نكرة في سياق الإثبات ، فإن عمومها من حيث المعنى . فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره . فالعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه ، وإن تنعم في الدنيا بأوصاف النعم . ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب ، والأمانى الباطلة

والعذاب الحاضر مافيه ، وإنما تواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة ، إن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر . فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر . فإنه يفيق صاحبه ، ويصحو . وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا سكر في سكر الأموات . فالعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله ﷺ في الدنيا وفي البرزخ ويوم المعاد . ولا تقرّ العين ولا يهدأ القلب ولا تطمئن النفس إلا بإلهيها ومعبودها الذي هو حق ، وكل معبود سواه باطل ، فن قرت عينه بالله ، قرت به كل عين . ومن لم تقر عينه بالله ، تقطعت نفسه على الدنيا حسرات . والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن بالله وعمل صالحاً ، كما قال تعالى (١) (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح ، الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة ، والحسنى يوم القيامة . فلهم أطيب الحياتين وهم أحياء في الدارين . ونظير هذا قوله تعالى (٢) (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ، وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) ونظيرها قوله تعالى (٣) (وَأَن أَسْتَعْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُبَوِّأُ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَّعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة ، وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين ، فإن طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذته وابتهاجه وطماننته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته ، من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة ، هو النعيم على الحقيقة . ولانسبة لنعيم البدن إليه ، فقد كان بعض من ذاق هذه اللذة يقول : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه ، لجالدونا عليه بالسيوف . وقال آخر : إنه يمر بالقلب أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة في مثل هذا ، إنهم لفي عيش

(٢) [١٦ / النحل / ٣٠] .

(١) [١٦ / النحل / ٩٧] .

(٣) [١١ / هود / ٣] .

طَيِّب . وقال آخر : إن في الدنيا جنة ، هي في الدنيا كالجنة في الآخرة . من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

وقد^(١) أشار النبي ﷺ إلى هذه الجنة بقوله : (إذا مررتهم برياض الجنة فارتعوا . قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر . وقال^(٢) : ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة) ولا تظن أن قوله تعالى^(٣) (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) يختص بيوم المعاد فقط ، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة . وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة . وأى لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر ومعرفة الرب تعالى ومحبته والعمل على موافقته ؟ وهل عيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم ؟ وقد أثنى الله تعالى على خليله عليه السلام بسلامة قلبه فقال^(٤) (وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ وَبِقَلْبٍ سَلِيمٍ) وقال حاكياً عنه أنه قال^(٥) (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة . فسلم من كل آفة تبعده من الله ، وسلم من كل شبهة تعارض خبره ، ومن كل شهوة تعارض أمره . وسلم من كل إرادة تراحم مراده . وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله . فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا ، وفي جنة في البرزخ وفي جنة يوم المعاد . انتهى ملخصاً .

(١) أخرجه الترمذی فی : ٤٥ - كتاب الدعوات ، ٨٢ - باب حدثنا يوسف بن حماد البصري .

(٢) أخرجه البخاری فی : ٢٠ - كتاب الصلاة في مسجد مكة والمدينة ، ٥ - باب فضل ما بين القبر والمنبر ، حديث ٦٤٨ ، عن عبد الله بن زيد المازني .

(٣) [٨٢ / الانقطار / ١٤ و ١٣] . (٤) [٣٧ / الصافات / ٨٣ و ٨٤] .

(٥) [٢٦ / الشعراء / ٨٨ و ٨٩] .

وقال رحمه الله في (مفتاح دار السعادة) : فسر غير واحد من السلف قوله تعالى (فَإِنْ لَهُ وَمَعِيشَةً ضَنْكًا) بعذاب القبر . وجعلوا هذه الآية أحد الأدلة الدالة على عذاب القبر . ولهذا قال (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى) أى ترك في العذاب كما تركت العمل بآياتنا . فذكر عذاب البرزخ وعذاب دار البوار . ونظيره قوله تعالى في حق آل فرعون (١) (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا) فهذا في البرزخ (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) فهذا في القيامة الكبرى . ونظيره قوله تعالى (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ) فقول الملائكة (الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ) المراد به عذاب البرزخ الذى أوله يوم القبض والموت . ونظيره قوله تعالى (٢) (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) فهذه الإذاعة في البرزخ . وأولها حين الوفاة ، فإنه معطوف على قوله (يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) وهو من القول المحذوف لدلالة الكلام عليه كمنظأره . وكلاهما واقع وقت الوفاة .

وفي الصحيح (٣) ، عن البراء بن عازب في قوله (٤) (يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) قال : نزلت في عذاب القبر . والأحاديث في عذاب

(١) [٤٠ / غافر / ٤٦] . (٢) [٦ / الأنعام / ٩٣] .

(٣) [٨ / الأنفال / ٥٠] .

(٤) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١٤ - سورة إبراهيم ، ٢ - باب

يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ، حديث ٧٢٥ .

(٥) [١٤ / إبراهيم / ٢٧] .

القبر تكاد تبلغ حد التواتر . والمقصود أن الله سبحانه أخبر أن من أعرض عن ذكره وهو الهدى الذى من اتبعه لا يضل ولا يشقى ، بأن له معيشة ضنكاً ، وتكفل لمن حفظ عهده أن يحياه حياة طيبة ويجزيه أجره فى الآخرة فقال (١) تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَبِهْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فأخبر سبحانه عن فلاح من تمسك بعبده علماً وعملاً فى العاجلة بالحياة الطيبة ، وفى الآخرة بأحسن الجزاء . وهذا بمكس من له المعيشة الضنك فى الدنيا والبرزخ ، ونسيانه فى العذاب فى الآخرة . وقال سبحانه (٢) (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ وَشَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ وَاقٍ) * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ) فأخبر سبحانه أن ابتلاءه بقرينه من الشياطين وضلاله به ، إنما كان لسبب إعراضه وعشوه عن ذكره الذى أنزله على رسوله . فكان عقوبة هذا الإعراض ، أن قيض له شيطاناً يقارنه فيصده عن سبيل ربه وطريق فلاحه . وهو يحسب أنه مهتد . حتى إذا وافى ربه يوم القيامة من قرينه ، وعاین هلاكه وإفلاسه قال (٣) (يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيِشُ الْقَرَيْنِ) وكل من أعرض عن الاهتمام بالوحى الذى هو ذكر الله ، فلا بد أن يقول هذا يوم القيامة .

فإن قيل : فهل لهذا عذر فى ضلاله ، إذا كان يحسب أنه على هدى كما قال تعالى (٤) (وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ) ؟ قيل : لا عذر لهذا وأمثاله فى الضلال ، الذين منشأ ضلالهم الإعراض عن الوحى الذى جاء به الرسول . ولو ظن أنه مهتد ، فإنه مفرط بإعراضه عن اتباع داعى الهدى . فإذا ضل فإنما أتى من تفریطه وإعراضه . وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة ، وعجزه عن الوصول إليها ، فذاك له حكم آخر .

والوعيد فى القرآن إنما يتناول الأول . وأما الثانى فإن الله لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة

(١) [١٦ / النحل / ٩٧] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٣٦ و ٣٧] .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٣٨] . (٤) [٤٣ / الزخرف / ٣٧] .

الحجة عليه كما قال تعالى^(١) (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) وقال تعالى^(٢) (رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) وقال تعالى في أهل النار^(٣) (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ) وقال تعالى^(٤) (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرُنِي عَلَىٰ مَا قَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَاءٌ أَيْتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) وهذا كثير في القرآن .

الخامسة - قال ابن القيم : اختلف في قوله تعالى (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى (هل هو من عَمِيَ البصيرة أو من عَمِيَ البصر ؟ والذين قالوا هو من عَمِيَ البصيرة ، إنما حملهم على ذلك قوله تعالى^(٥) (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا) وقوله^(٦) (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) وقوله^(٧) (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ) وقوله^(٨) (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوْهَا بِعَيْنِ الْيَقِينِ) ونظائر هذا مما يثبت لهم الرؤية في الآخرة لقوله^(٩) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ) وقوله^(١٠) (يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ) وقوله^(١١) (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُّوَاعِدُوهَا) .

(١) [١٧ / الإسراء / ٩٥] .	(٢) [٤ / النساء / ١٦٥] .
(٣) [٤٣ / الزخرف / ٧٦] .	(٤) [٣٩ / الزمر / ٥٦-٥٩] .
(٥) [١٩ / مريم / ٣٨] .	(٦) [٥٠ / ق / ٢٢] .
(٧) [٢٥ / الفرقان / ٢٢] .	(٨) [١٠٢ / التكاثر / ٧٥٦] .
(٩) [٤٢ / الشورى / ٤٥] .	(١٠) [٥٢ / الطور / ١٣-١٥] .
(١١) [١٨ / الكهف / ٥٣] .	

والذين رجحوا أنه من عمى البصر ، قالوا : السياق يدل عليه لقوله (قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيْ أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيْرًا) وهو لم يكن بصيراً في كفره قط ، بل قد تبين له حينئذ أنه كان في الدنيا في عمى عن الحق . فكيف يقول (وقد كنت بصيراً) وكيف يحجب بقوله (كَذَلِكَ أَنْتَ لَكِ أُنْتِكَا ءَايَتُنَا فَنَسِيْتَهَا) ؟ بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر وأنه جوزى من جنس عمله . فإنه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله وعميت عنه بصيرته ، أعمى الله به بصره يوم القيامة ، وتركه في العذاب ، كما ترك الذكر في الدنيا ، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة . وعلى تركه ذكره ، تركه في العذاب . وقال تعالى ^(١) (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فِتْهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْ لِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ، وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَبُكْمًا وَصُمًّا) وقد قيل في هذه الآية أيضاً : إنهم عمى وبكم وصم عن الهدى . كما قيل في هذه الآية ^(٢) قوله (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى) قالوا : لأنهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون .

ومن نصر أنه العمى والبكم والصمم ، المضاد للبصر والسمع والنطق ، قال : هو عمى وصم وبكم مقيد لا مطلق . فهو عمى عن رؤية ما يسرهم وسماعه . وهذا قد روى عن ابن عباس قال : لا يرون شيئاً يسرهم . وقال آخرون : هذا الحشر حين تقوفاهم الملائكة ، يخرجون من الدنيا كذلك . فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك . ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد . وهذا مروى عن الحسن .

وقال آخرون : هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها ، سلبوا الأسماع والأبصار والنطق ، حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى ^(٣) (اخْسَوْاْ فِيْهَا وَلَا تُكَلِّمُوْا) حينئذ ينقطع الرجاء وتبكم عقولهم فَيُبْصَرُونَ بآجمعهم ، عمياً بكماً صماً ، لا يبصرون

(١) [١٧ / الإسراء / ٩٧] . (٢) [٢٠ / طه / ١٢٤] . (٣) [٢٣ / المؤمنون / ١٠٨]

ولا يسمعون ولا ينطقون . ولا يسمع فيها بعدها إلا الزفير والشهيق . وهذا منقول عن مقاتل .

والذين قالوا: المراد به العمى عن الحجة، إنما مرادهم أنهم لا حجة لهم، ولم يريدوا أن لهم حُجَّةً ، هم عُمى عنها، بل هم عُمى عن الهدى كما كانوا في الدنيا. فإن العبد يموت على ما عاش عليه . ويبعث على ما مات عليه . وبهذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر ، وأنه عمى البصر . وأن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عياناً ، ويقرّ بما كان يجحد في الدنيا . فليس هو أعمى عن الحق يومئذ .

وفصل الخطاب ؛ أن الحشر هو الضم والجمع . ويراد به تارة الحشر إلى موقف القيامة ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم ^(١) (إنكم محشورون إلى حفاة عراة) وكقوله تعالى ^(٢) (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) وكقوله تعالى ^(٣) (وَحَشَرَ نَفْعُهُمْ فَلَمْ تَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا) ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر . فحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنة . وحشر الكافرين جمعهم وضمهم إلى النار. لأنه قد أخبر عنهم أنهم قالوا ^(٤) (يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْكَدُونَ) ثم قال تعالى ^(٥) (أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ...) الآية وهذا الحشر الثاني . وعلى هذا فهم ما بين الحشر الأول من القبور إلى الموقف والحشر الثاني، يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون، وعند الحشر الثاني يحشرون على وجوههم عمياً وبكاً وصماً . ولكل موقف حال يليق به ، ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته . فالقرآن يصدق بعضه بعضاً ^(٦) (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) . انتهى .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٨ - باب قول الله تعالى : واتخذ الله

إبراهيم خليلاً ، حديث ١٥٨٥ عن ابن عباس . (٢) [٨١ / التكوير / ٥] .

(٣) [١٨ / الكهف / ٤٧] . (٤) [٣٧ / الصافات / ٢٠ و ٢١] .

(٥) [٣٧ / الصافات / ٢٢] . (٦) [٤ / النساء / ٨٢] .

السادسة - قوله تعالى (وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى) أى لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك ، تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها . كذلك اليوم نعماملك معاملة من ينساك^(١) (فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا) فإن الجزاء من جنس العمل . فالنسيان مجاز عن الترك .

قال ابن كثير : فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه ، والقيام بمقتضاه ، فليس داخلا في هذا الوعيد الخاص . وإن كان متوقداً عليه من جهة أخرى . فإنه قد وردت السنة بالنهاى الأكد والوعيد الشديد في ذلك .

روى الإمام أحمد عن سعد بن عبادة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال^(٢) (ما من رجل قرأ القرآن فنسيه ، إلا لقي الله يوم يلقاه ، وهو أجذم) ؛

السابعة - قوله تعالى (وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ...) الآية ، أى وهكذا نجزي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة . وعذاب الآخرة أشد وأبقى ، من ضحك العيش في الدنيا . لكونه دائماً . ثم أشار تعالى إلى تقرير ما تقدم من لحوق العذاب ، بقوله سبحانه : القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِينِهِمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى)

« أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ » أى لهؤلاء المكذبين « كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ » أى الأمم المكذبة للرسول « يَمْشُونَ فِي مَسْكِينِهِمْ » يريد قريشا ، أى يتقلبون في بلاد عاد ونمود ولوط ويعابنون آثار هلاكهم ، وأن ليس لهم باقية ولا عين ولا أثر « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ » أى العقول السليمة . كما قال تعالى^(٣) (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ

(١) [٧ / الأعراف / ٥١] . (٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٨٤ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) . (٣) [٢٢ / الحج / ٤٦] .

فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى)

« وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى » بيان لحكمة تأخير عذابهم مع إشعار قوله (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ . . .) الآية ، بإهلاكهم مثل هلاك (أولئك) . والكلمة السابقة ، قال القاشاني : هو القضاء السابق أن لا يستأصل هذه الأمة بالدمار والعذاب في الدنيا ، لكون نبيهم نبي الرحمة . وقوله سبحانه ^(١) (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) .

وقال الزمخشري : الكلمة السابقة هي العدة بتأخير جزائهم إلى الآخرة . يقول : لولا هذه العدة لكان مثل إهلاكنا عاداً وثمود لازماً لهؤلاء الكفرة . و (الزام) إما مصدر (لازم) كالخصام ، وصف به مبالغة . أو اسم آلة لأنها تبنى عليه كحزام وركاب ، واسم الآلة يوصف به مبالغة أيضاً ، كقولهم : مِسْعَرُ حَرْبٍ ، وَلِزَازُ خَصْمٍ بمعنى مُلِحٌّ على خصمه . من (لَزَّ) بمعنى ضيق عليه .

وجوز أبو البقاء فيه كونه جمع (لازم) . كقيام جمع قائم .

وقوله تعالى (وَأَجَلٌ مُّسَمًّى) عطف على (كلمة) أي ولولا أجل مسمى لأعمارهم أو لعذابهم ، وهو يوم القيامة أو يوم بدر ، لما تأخر عذابهم أصلاً .

قال أبو السعود : وفصله عما عطف عليه ، للإشعار باستقلال كل منهما ، بنفي لزوم العذاب ومراعاة فواصل الآية الكريمة .

(١) [٨ / الأنفال / ٣٣] .

وقد جوز عطفه على المستكن في (كان) العائد إلى الأخذ العاجل ، المفهوم من السياق ، تنزيلاً للفصل بالخبر منزلة التأكيد . لكان الأخذ العاجل ، وأجل مسمى لازمين لهم . كدأب عاد وثمود وأضرابهم . ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل . وقوله تعالى : القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ) « فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ » أى إذا كان تأخير عذابهم ليس بإهمال بل إهمال ، فاصبر على مايقولون من كلمات الكفر . فالقاء سببية . والمراد بالصبر عدم الاضطراب لما صدر منهم ، لا ترك القتال حتى تسكون الآية منسوخة . وفى التسييح المأمور به وجهان :

الأول - أنه التنزيه . والمعنى : ونزه ربك عن الشرك وسائر ما يضيفون إليه من النقائص ، حامدا له على ما ميزك بالهدى ، معترفاً بأنه المولى للنعم كلها . ومن صيغه المأثورة (سبحان الله وبحمده) . وعليه فسر تخصيص هذه الأوقات الإشارة إلى الدوام ، مع أن لبعض الأوقات مزية يفضل بها غيرها .

الثانى - أنه الصلاة وهو الأقرب لآية^(١) (وَأُسْمِعِينَوْا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) والآيات يفسر بعضها بعضاً . والمعنى : صلت وأنت حامد لربك على هدايته وتوفيقه ، قبل طلوع الشمس ، يعنى صلاة الفجر . وقبل غروبها ، يعنى صلاة الظهر والعصر ، لأنهما واقعتان فى النصف الأخير من النهار ، بين زوال الشمس وغروبها (وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ) أى من ساعاته ، يعنى المغرب والعشاء . وإنما قدم الوقت فيهما ، لاختصاصهما بعزid الفضل . وذلك

(١) [٢ / البقرة / ٤٥] .

لأن أفضل الذكر ما كان بالليل لاجتماع القلب وهدوء الرّجلِ والخلوّ بالرب تعالى . ولأن الليل وقت السكون والراحة ، فإذا صرف إلى العبادة كانت على النفس أشد وأشق ، وللبدن أتعب وأنصب ، فكانت أفضل عند الله وأقرب .

وقوله تعالى (وَأَطْرَافُ النَّهَارِ) تكرر لصلاة الفجر والمغرب ، إيداناً باختصاصهما بمزيد مزية . ومجيئه بلفظ الجمع لأمن الإلباس ، والمرجح مشاكلته لـ (ءَانَايَ الْيَلِ) أو أمر بصلاة الظهر . فإنه نهاية النصف الأول من النهار ، وبداية النصف الأخير . وجمعه باعتبار النصفين . أو لأن النهار جنس فيشمل كل نهار . أو أمر بالتطوع في أجزاء النهار . وقال الرازى : إنما أمر ، عقيب الصبر ، بالتسبيح ، لأن ذكر الله تعالى يفيد السلوة والراحة . إذ لا راحة للمؤمنين دون لقاء الله تعالى . قلت : وقد أشير إلى حكمة الأمر بالصبر والتسبيح بقوله تعالى (لَسَلَّكَ تَرَضًى) أى رجاء أن تنال ما به ترضى نفسك ، من رفع ذكرك . وتقهرك على عدوك وبلوغ أمنيته من ظهور توحيد ربك وهذا كقوله تعالى^(١) (عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا) وقوله تعالى^(٢) (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَضًى) .

ثم أشار تعالى إلى أن ما متع به الكفار من الزخارف ، إنما هو فتنة لهم فلا ينبغي الرغبة فيه ، وإن ما أوتيته أجل وأسمى ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ)

« وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ » أى أصنافاً من الكفرة

(١) [١٧ / الإسراء / ٧٩] . (٢) [٩٣ / الضحى / ٥] .

« زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى زينتها . منصوب على البدلية من (أَرْوَاجًا) أو بد (مَتَّعْنَا) على تضمينه معنى : أعطينا وخولنا « لِنَنْفَقَتَهُمْ فِيهِ » أى لنختبرهم فيما متعناهم به من ذلك ونبتليهم . فإن ذلك فإن وزائل وغرور وخدع تضمحل .

قال أبو السعود : (لِنَنْفَقَتَهُمْ) متعلق بد (مَتَّعْنَا) جىء به للتنفير عنه ببيان سوء عاقبته مآلاً ، إثر إظهار بهجته حالاً . أى لنعامهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم فيه . أو لنعذبهم فى الآخرة بسببه « وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى » أى ثوابه الأخرى خير فى نفسه مما متعوا به وأدوم ، كقوله تعالى^(١) (ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) أو المعنى ما أوتيت من النبوة والهدى ، خير مما فتنوا به وأبقى ، لأنه لا مناسبة بين الهدى الذى تتبعه السعادة فى الدارين ، وبين زهرة يتمتع بها مدة ثم تدبل وتنفى . وفى التعبير بد (الزهرة) إشارة لسرعة الاضمحلال ، فإن أجلها قريب . ومن لطائف الآية مقاله الزخشرى رحمه الله ، ونصه : مد النظر تطويله وأن لا يكاد يرد استحسناناً للمنظور إليه ، وإعجاباً به وتمنياً أن يكون له . كما فعل نظارة قارون حين قالوا^(٢) (يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) حتى واجههم أولو العلم والإيمان^(٣) بد (وَيَلْسَكُمُ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) .

وفيه : أن النظر غير المدود معفو عنه . وذلك مثل نظر من بادء الشئ بالنظر ثم غض الطرف . ولما كان النظر إلى الزخارف كالركوز فى الطباع ، وإن من أبصر منها شيئاً أحب أن يمد إليه نظره ويملاً منه عينيه ، قيل : ولا تمدن عينيك . أى لا تفعل ما أنت معتاد له وضار به . ولقد شدد العلماء من أهل التقوى فى وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة ، وعُدّد الفسقة فى اللباس والمراكب وغير ذلك ، لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة ،

(١) [٢٨ / القصص / ٨٠] . (٢) [٢٨ / القصص / ٧٩] .

(٣) [٢٨ / القصص / ٨٠] .

فالناظر إليها محصل لغرضهم ، وكالمغرى لهم على اتخاذها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا، لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا، نَحْنُ زُرُّكَ،
وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)

« وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ » يعنى (بأهله) أهل بيته أو التابعين له . أى مرهم بإقامتها لتجذب قلوبهم إلى خشية الله « وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا » أى على أدائها ، لترسخ بالصبر عليها ملكة الثبات على العبادة ، والخشوع والمراقبة ، التى ينتج عنها كل خير . ثم أشار تعالى إلى أن الأمر بها ، إنما هو لفلاح المأمور ومنفعته ، ولا يعود على الأمر بها نفع مآ ، لتعاليمه وتنزهه بقوله « لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرِزُّكَ » أى لا نسألك مالا . بل نكلفك عملا بيدك نؤتيك عليه أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً . ومعنى : نحن نرزقك ، أى نحن نعطيك المال ونكسبك ولا نسألك . قاله ابن جرير ^(١) .

وقال أبو مسلم : المعنى أنه تعالى إنما يريد منه ومنهم العبادة . ولا يريد منه أن يرزقه كما تريد السادة من العبيد الخراج . وهو كقوله تعالى ^(٢) : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا) وقال بعض المفسرين : معنى الآية . أقبل مع أهلك على الصلاة واستعينوا بها على خصاصتكم . ولا تهتموا بأمر الرزق والمعيشة ، فإن رزقك مكفى من عندنا ، ونحن رازقوك . وهذا المعنى لا تدل عليه الآية منطوقاً ولا مفهوماً . وفيه حض على القعود عن الكسب ، ومستند للكسالى القانعين بسكنى المساجد عن السعى المأمور به . وقد قال تعالى ^(٣) : (فِي وَصَفِ الْمُتَّقِينَ (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٦ من الجزء السادس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٥١ / الذاريات / ٥٧ و ٥٦] . (٣) [٢٤ / النور / ٣٧] .

تَجْرَةً وَلَا يَبْعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ (إشارة إلى جمعهم بين الفضيلتين . (رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ)^(١) .

وقوله تعالى « وَالْمَلَكَةُ لِلتَّقْوَى » أى والعاقبة الحسنة من عمل كل عامل ، لأهل التقوى والخشية من الله ، دون من لا يخاف له عقاباً ولا يرجو له ثواباً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٣] (وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ، أَوْ لَمْ يَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى)

« وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ » يعنون ما تعنتوا فى اقتراحه مما تقدم ، فى سورة بنى إسرائيل ، من قوله تعالى^(٢) (وَقَالُوا لَنُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَمُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ . . .) الآية .

وقوله تعالى « أَوْ لَمْ يَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى » أى : أو لم يأتهم بيان ما فى الكتب التى قبل هذا الكتاب ، من أنباء الأمم من قبلهم ، التى أهلكناها لما سألوا الآيات ، فكفروا بها لما أتتهم ، كيف عجلنا لهم العذاب ، وأنزلنا بهم بأسنا بكفرهم بها . يقول : فماذا يؤمنهم إن أتتهم الآية ، أن يكون حالهم حال أولئك . هذا ما قاله ابن جرير^(٣) .

وذهب غيره إلى أن المعنى : أو لم يأتهم آية هى أم الآيات وأعظمها ، وهى معجزة القرآن المبينة لما فى الكتب الأولى من التوراة والإنجيل والزبور . مع أن الآتى بها أتمى لم يرها ولم يتعلم ممن علمها . فنقب منها على الصحيح من أنبائها فصدقه ، وعلى الباطل المحرف ففندّه .

(١) [٢ / البقرة / ٢٠١] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٩٠ و ٩١] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٢٣٧ من الجزء السادس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وفيه إشعار بكفاية التنزيل في الإعجاز والبرهان كما قال تعالى^(١) في سورة العنكبوت (وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) ولذلك قال أحد حكماء الإسلام. إن الخارق للعادة الذي يعتمد عليه الإسلام في دعوته إلى التصديق برسالة النبي ﷺ هو الخارق الذي تواتر خبره ولم ينقطع أثره. وهو الدليل وحده. وماعداه مما ورد في الأخبار، سواء صح سندها أو اشتهر أو ضعف أو وهى، فليس مما يوجب القطع عند المسلمين. فإذا أورد في مقام الاستدلال، فهو على سبيل التقوية للعقد لمن حصل أصله، وفضل من التأكيد لمن سلمه من أهله. ذلك الخارق المتواتر المعول عليه في الاستدلال لتحصيل اليقين، هو القرآن وحده. والدليل على أنه معجزة خارقة للعادة، تدل على أن موحيه هو الله وحده وليس من اختراع البشر، هو أنه جاء على لسان أمي لم يتعلم الكتاب ولم يمارس العلوم، وقد نزل على وتيرة واحدة هاديا للضلال مقوماً للمعوج كافلاً بنظام عام لحياة من يهتدى به من الأمم، منقذاً لهم من خسران كانوا فيه. وهلاك كانوا أشرفوا عليه. وهو مع ذلك من بلاغة الأسلوب على ما لم يرتق إليه كلام سواه، حتى لقد دعي الفصحاء والبلغاء، أن يعارضوه بشيء من مثله، فمجزوا ولجأوا إلى المجالدة بالسيوف، وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين به، إلى أن ألجأوهم إلى الدفاع عن حقهم، وكان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل وظهور شمس الإسلام تمد عالمها بأضوائها، وتنشر أنوارها في جوائها. وهذا الخارق قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم. وطولبوا بأن يأتوا في نظرهم على آخر ما انتهى إليه قوتهم، فإما وجدوا طريقاً لإبطال إعجازه أو كونه لا يصلح دليلاً على المدعى، فعليهم أن يأتوا به، قال تعالى^(٢) (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ) وقال^(٣)

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٥١ و ٥٠]. (٢) [٢ / البقرة / ٢٣]. (٣) [٤ / النساء / ٨٢].

(أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرُءَانَ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) وقال غير ذلك ، مما هو مطالبة بمقاومة الحجة بالحجة . ولم يطالبهم بمجرد التسليم على رَغْمٍ من العقل .

معجزة القرآن جامع من القول والعلم . وكل منهما مما يتناوله العقل بالفهم . فهي معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضي فيها ، وأطلقت له حق النظر في أحنائها . ونشر ما انطوى في أثنائها . وله منها حظه الذي لا ينتقص . فهي معجزة أعجزت كل طوق أن يأتي بمثله . ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ما نشاء منها . أما معجزة موت حي بلا سبب معروف للموت ، أو حياة ميت أو إخراج شيطان من جسم ، أو شفاء علة من بدن ، فهي مما ينقطع عنده العقل ويحمد لديه الفهم . وإنما يأتي بها الله على يد رسوله لإسكات أقوام غلبهم الوهم ولم تضيء عقولهم بنور العلم . وهكذا يقيم الله بقدرته من الآيات للأمم على حسب الاستعدادات . وقال فاضل آخر : قضت مراحم الله جل شأنه أن يكون الأكوان في الطبيعة على ترتيب محكم ، ينطق بلسان الصمت للمتبصر ، ويظهر بلباس الوضوح للمتفكر ، ويجب إليه الانتقال منه إلى غيره بدون أن يشعر بملل ولا سآمة ، ولا يؤوب من استبصاره بندامة ، بدون هذا الاعتبار بالعقل ، لا يأتي للنفس أن تصح عقيدتها ، ولا يتأتى لها تبعاً لذلك أن تسكن من اضطرابها . هذا ، ولا ننكر أنه قدمضى على النوع الإنساني زمن كان فيه العقل في دور الطفولية . وكان يكفيه في الإيمان أن يندهش لأمر خارق للطبيعة ، يعطل من سير نواميسها وقتاً ما . وكان الله سبحانه وتعالى يرأف بعباده فيرسل إليهم رسلاً يتمتعهم بخصائص تعجز عن اكتناء سرها عقولهم . وتندهش لها ألبابهم ، فيستدلون بهذه المعجزات على صدق الرسول وضرورة اتباعه ، وأما الآن ، حيث بلغ العقل أشده ، والنوع الإنساني رُشده ، فلا يجد في معجزة ، ولا تنفع فيه غريسة . لأن الشكوك قد كثرت مع كثرة المواد العلمية . فإن حدث حادث من هذا القبيل رموا فاعله بالتدليس أولاً ، ثم إذا ظهر لهم براءته منه أخذوا يعلمون معجزته بكل أنواع التعليقات . هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، فإن طائفة الاسبيريت

الروحانيين في أوربا ، تعمل الآن من الأعمال المدهشة الخارقة لنواميس الطبيعة ، ما لو رآه الجاهلاء لظنوا به أنه من أكبر المعجزات ، مع أن القوم لا يدعون النبوة ، ولا يزعمون الرسالة . نعم ، لا ننكر أن أعمال هذه الطائفة ليست من نوع معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولكنه بدون شك ، يقلل من أهميتها في نظر الذين يقفون مع ظواهر الأشياء .

ومما يدل على أن هذه القرون الأخيرة لا تروج فيها مسائل المعجزات ، تكذيب علماء أوربا بكل المعجزات السابقة . وهو ، وإن كان تهورا منهم ، إلا أنهم مصيبون في قولهم إننا في زمان لا يجدى فيه للاعتقاد إلا النور العقلي والدليل العلمي . لهذه الأسباب جاءت الشريعة الإسلامية تدعو إلى السبيل الحق ، ببداثة العقل ، وقواعد العلم . صارفة النظر عن المعجزات وإظهار المدهشات . لعلم الله سبحانه وتعالى بأنه سيأتي زمان تؤثر فيه المقررات العلمية على القوة العقلية ، ما لا تؤثر عليها الخوارق للنواميس الطبيعية . انتهى . ثم أشار تعالى إلى منتهى في إرسال الرسول صلوات الله عليه ، والإعذار ببعثته ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٤] (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ

إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ)

[١٣٥] (قُلْ كُلُّ مَثَرٍ بَصٌّ فَنَرِبْصُوا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنِ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ

وَمَنِ اهْتَدَىٰ)

« وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ » أى من قبل إتيان البينة ، أو محمد عليه السلام « لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ » أى بالعذاب الدنيوي « وَنَخْزَىٰ » أى بالعذاب الآخروي . أى ولكننا لم نهلكهم قبل إتيانها .

فانقطع معذرتهم . فعند ذلك ، قالوا : بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء
« قُلْ » أى لأولئك الكفرة المتمردين « كُذِّبَتْ » أى منا ومنكم « مُتَرَبِّصٌ » أى منتظر
لما يؤول إليه أمرنا وأمركم « فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ » أى عن قرب « مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ
السَّوِيِّ » أى المستقيم « وَمَنْ أَهْتَدَى » أى من الزيغ والضلالة . أى هل هو النبي
وأتباعه ، أم هم وأتباعهم .

وقد حقق الله وعده . ونصر عبده . وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده . فله الحمد
فى الأولى والآخرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢١ - سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

سميت بذلك لاشتغالها على فضائل جلييلة ، لجماعة منهم عليهم السلام . وهي مكية .
واستثنى منها بعضهم آية^(١) (أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا)
وهي مائة واثنى عشرة آية . وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال : بنو إسرائيل
والكهف ومريم وطه والأنبياء ، هن من العتاق الأول ، وهن من تلادى .
قال ابن الأثير : أى من أول ما أخذته وتعلمته بمكة . والتالد : المال القديم الذى ولد
عندك ، وهو تقيض الطارف .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٤] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ)

« أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ » أى دنا لأهل مكة ما وعدوا به فى الكتاب من الحساب الأخرى وهو عذابهم « وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ » أى عما يراد بهم « مُّعْرِضُونَ » أى مكذبون به . وإنما كان مقترباً لأن كل آتٍ وإن طالت أوقات استقباله وترقبه ، قريب . وقد قال تعالى (١) (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ وَبَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا) وقال تعالى (٢) (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) ولا يخفى ما فى عموم (الناس) من الترهيب البليغ . وإن حق الناس أن يتنبهوا لدنو الساعة ، ليتلافوا تفريطهم بالتوبة والندم . كما أن فى تسمية يوم القيامة ، بيوم الحساب زيادة إيقاظ ، لأن الحساب هو الكاشف عن حال المرء ، فى العنوان ما يرهب منه ، ولو قيل بأن الحساب أعم من الدينوى والأخرى لم يبعد ، ويكون فيه إشارة إلى قرب محاسبة مشركى مكة بالانقسام منهم والانتصار عليهم ، كما أشير إليه فى آية (٣) (فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّكَ بِالْفَتْحِ) ووعد به النبى وصحبه فى آيات كثيرة . إلا أن شهرة الحساب فيما بعد البعث الأخرى ، محل المفسرين على قصر الآية عليه . والله أعلم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ تُحْدِثُ إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْمِزُونَ)

(١) [٧٠ / المارج / ٧٥٦] .

(٢) [٢٢ / الحج / ٤٧] .

(٣) [٥ / المائدة / ٥٢] .

« مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ » تقرير لهم على مكافحة الحكمة بنقيضها . وتسجيل عليهم بالجهل الفاضح . فإن من حق ما يذكر أكل تذكير ، وينبه على الغفلة أتم تنبيهه ، أن تخضع له القلوب وتستخذي له الأنفس .

قال الزمخشري : بعد أن وصفهم بالغفلة مع الإعراض ، قرر إعراضهم عن تنبيه النبىء وإيقاظ الموقظ ، بأن الله يجدد لهم الذكر وقتاً فوقتاً . ويحدث لهم الآية بعد الآية ، والسورة بعد السورة ، ليكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة ، لعلهم يتعظون . فما يزيدهم استماع الآى والسور وما فيها من فنون المواعظ والبصائر ، التى هى أحق الحق وأجدد الجد ، إلا لعباً وتلهياً واستسخاراً . و (الذكر) هو الطائفة النازلة من القرآن . انتهى .

تنبيه :

استدل بهذه الآية من ذهب إلى حدوث كلامه تعالى المسموع . وهم المعتزلة والكرامية والأشعرية . فأما المعتزلة فقالوا إنما كان القرآن حادثاً لكونه مؤلفاً من أصوات وحروف . فهو قائم بغيره وقالوا : معنى كونه متكلماً ، أنه موجد لتلك الحروف والأصوات فى الجسم . كاللوح المحفوظ أو كجبريل أو النبىء عليه الصلاة والسلام ، أو غيرهم كشجرة موسى .

وأما الكرامية ، فلما رأوا ما التزمه المعتزلة مخالفاً للعرف واللغة ، ذهبوا إلى أن كلامه صفة له مؤلفة من الحروف والأصوات الحادثة القائمة بذاته تعالى . فذهبوا إلى حدوث الدال والمدلول . وجوزوا كونه تعالى محلاً للحوادث .

والأشعرية قالوا : إن الكلام المتلو دال على الصفة القديمة النفسية ، التى هى الكلام عندهم حقيقة .

قالوا : فما نزل على الأنبياء من الحروف والأصوات ، وسمعوها وبلغوها إلى أئمتهم ، هو محدث موصوف بالتغير والتكثر والنزول . لا مدلولها التى هى تلك الصفة القديمة . والمسئلة شهيرة ما للعلماء فيها . والقصد أن الآية المذكورة رآها من ذكر ، حجة فيما ذهب إليه .

وقد عدّ الإمام ابن تيمية ، عليه الرحمة والرضوان ، هذا الاحتجاج من الأغلاط ، وعبارته في كتابه (مطابقة المنقول للمعقول) :

احتج من يقول بأن القرآن أو عبارة القرآن مخلوقة ، بهذه الآية ، مع أن دلالة الآية على نقيض قولهم ، أقوى منها على قولهم . فإنها تدل على أن بعض الذكر محدث ، وبعضه ليس بمحدث ، وهو ضد قولهم . والحديث في لغة العرب العام ليس هو الحديث في اصطلاح أهل الكلام . فإن العرب يسمون ما تجدد حادثاً ، وما تقدم على غيره قديماً . وإن كان بعد أن لم يكن . كقوله تعالى (١) (كَا لْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) وقوله تعالى (٢) عن إخوة يوسف (تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ) وقوله تعالى (٣) (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسِيحُونَهُ هَذَا آفَكٌ قَدِيمٌ) وقوله تعالى عن إبراهيم (٤) (أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ) انتهى .

وقال العارف ابن عربي في الباب التاسع والستين والثلاثمائة من (فتوحاته) في هذه الآية : المراد أنه محدث الإتيان ، لا محدث العين . فحدث علمه عندهم حين سمعوه . وهذا كما تقول حدث اليوم عندنا ضيف ، ومعلوم أنه كان موجوداً قبل أن يأتي . وكذلك القرآن جاء في مواد حادثه تعلق السمع بها . فلم يتعلق الفهم بما دلت عليه الكلمات . فله الحديث من وجه والقدم من وجه .

فإن قلت : فإذا كان الكلام لله والترجمة للمتكلم . فالجواب نعم . وهو كذلك بدليل قوله تعالى مقسماً (إِنَّهُوَ) يعني القرآن (٥) : (لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) فأضاف الكلام إلى الوسطة

- (١) [٣٦ / يس / ٣٩] . (٢) [١٢ / يوسف / ٩٥] .
 (٣) [٤٦ / الأحقاف / ١١] . (٤) [٢٦ / الشعراء / ٧٥ و ٧٦] .
 (٥) [٦٩ / الحاقة / ٤٠] .

والمترجم ، كما أضافه تعالى إلى نفسه بقوله ^(١) : (فَأَجْرُهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ) فإذا تلى علينا القرآن فقد سمعنا كلام الله تعالى . وموسى لما كلمه ربه سمع كلام الله . ولكن بين السامعين بعد المشرقين . فإن الذي يدركه من يسمع كلام الله بلا واسطة ، لا يساويه من يسمعه بالوسائط . انتهى .

وبالجملة فالذهب المأثور عن أهل السنة والجماعة أئمة الحديث والسلف ، كما قاله ابن تيمية في (منهاج السنة) أن الله تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء بكلام يقوم به . وهو متكلم بصوت يسمع . وأن نوع الكلام قديم ، وإن لم يجعل نفس الصوت المعين قديماً . وبعبارة أخرى : أنه تعالى لم يزل متصفاً بالكلام . يقول بمشيئته وقدرته شيئاً فشيئاً . فلكلامه حادث الآحاد ، قديم النوع .

ثم قال رحمه الله : فإن قيل لنا : فقد قلتم بقيام الحوادث بالرب . قلنا نعم . وهذا قولنا الذي دل عليه الشرع^٢ والعقل ومن لم يقل إن البارئ يتكلم ويريد ويحب ويبغض ويرضى ويأتى ويحى - فقد ناقض كتاب الله . ومن قال : إنه لم يزل ينادى موسى في الأزل فقد خالف كلام الله مع مكابرة العقل . لأن الله تعالى يقول ^(٣) (فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ) وقال ^(٤) (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ) فأتى بالحروف الدالة على الاستقبال ثم قال رحمه الله : قالوا - يعنى أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعى وأحمد وغيرها - وبالجملة فكل ما يحتج به المعتزلة والشيعة مما يدل على أن كلامه متعلق بمشيئته وقدرته ، وأنه يتكلم إذا شاء وأنه يتكلم شيئاً بعد شيء ، فنحن نقول به . وما يقول به من يقول : إن كلام الله قائم بذاته ، وأنه صفة له ، والصفة لا تقوم إلا بالموصوف ، فنحن نقول به . وقد أخذنا بما في قول كل من الطائفتين من الصواب ، وعدلنا عما يردّه الشرع والعقل من قول كل منهما . فإذا قالوا لنا : فهذا يلزم منه أن تكون الحوادث قامت به ، قلنا : ومن

(١) [٩ / التوبة / ٦] . (٢) [٢٧ / النمل / ٨] . (٣) [٣٦ / يس / ٨٢] .

أنكر هذا قبلكم من الساف والأئمة ؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل . وهو قول لازم لجميع الطوائف : ومن أنكره فلم يعرف لوازمه وملزوماته . وانظر (الحوادث) مجمل فقد يراد به الأعراض والنقائص ، والله منزّه عن ذلك . ولكن يقوم به ما شاءه ويقدر عليه من كلامه وأفعاله ونحو ذلك ، مما دل عليه الكتاب والسنة .

ثم قال : والقول بدوام كونه متكلماً ودوام كونه فاعلاً بمشيئته ، منقول عن السلف وأئمة المسلمين من أهل البيت وغيرهم . كابن المبارك وأحمد بن حنبل والبخاري وعثمان بن سعيد الدارمي وغيرهم .

ثم قال فنحن قلنا بما يوافق العقل والنقل من كمال قدرته ومشيئته : وإنه قادر على الفعل بنفسه كيف شاء . وقلنا إنه لم يزل موصوفاً بصفات الكمال متكلماً ذاتاً . فلا نقول إن كلامه مخلوق منفصل عنه ، فإن حقيقة هذا القول أنه لا يتكلم . ولا نقول إنه شيء واحد ، أمر ونهى وخبر . فإن هذا مكابرة للعقل . ولا نقول إنه أصوات منقطعة متضادة أزلية ، فإن الأصوات لا تبقى زمانين . وأيضاً فلو قلنا بهذا القول والذي قبله ، لزم أن يكون تكليم الله للملائكة ولموسى وخلقه يوم القيامة ، ليس إلا مجرد خلق الإدراك لهم ، لما كان أزلياً لم يزل ومعلوم أن النصوص دلت على ضد ذلك . ولا نقول إنه صار متكلماً بعد أن لم يكن متكلماً . فإنه وصف له بالكمال بعد النقص . وإنه صار محلاً للحوادث التي كمل بها بعد نقصه . ثم حدوث ذلك الكمال لا بد له من سبب . والقول في الثاني كالقول في الأول . ففيه تجدد جلاله ودوام أفعاله . انتهى ملخصاً .

ثم بين تعالى ما كانوا يتناجون به من ضلالهم ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ، وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ)

«لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ، وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ» أى أسروا هذا الحديث ليصدوا عن سبيل الله . و (الذين) بدل من واو (أسروا) أو مبتدأ خبره (أسروا) أو منصوب على الذم «أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ» أى تنقادون له وتتبعونه . وقوله «وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ» حال مؤكدة للإنكار والاستبعاد . قال الزمخشري رحمه الله : اعتقدوا أن رسول الله لا يكون إلا مَلَكًا، وأن كل من ادعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة هو ساحر ، ومعجزته سحره . فلذلك قالوا على سبيل الإنكار : أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعابنون أنه سحر .

قال أبو السعود: وزلّ عنهم أن إرسال البشر إلى عامة البشر ، هو الذى تقتضيه الحكمة التشريعية . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

«قَالَ رَبِّى» حكاية لقول رسول الله ﷺ لهم . وقرئ (قُلْ) على الأمر له صلوات الله عليه «يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ السَّمِيعُ» أى لما أسروه «الْعَلِيمُ» أى به فيجازيهم . ثم بين تعالى خوضهم في فنون الاضطراب وعدم اقتصارهم على ما تقدم من دعوى السحر ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ)

« بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ » أى أخلاطيراها فى النوم « بَلِ افْتَرَاهُ » أى اختلقه « بَلْ هُوَ شَاعِرٌ » أى ما أتى به شعر يخيّل للناس معانى للاحقيقة لها . وهكذا شأن البطل المحجوج ، لايزال يتردد بين باطل وأبطل ، ويتذبذب بين فاسد وأفسد « فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ » أى مثل الآية التى أرسل بها الأولون. أى حتى نُؤْمِنَ له . ثم أشار تعالى إلى كذبهم فى دعوى الإيمان بحجىء الآية ، كما يشير إليه طلبهم لها ، بقوله سبحانه وتعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ)

« مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ » أى لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوه من الآيات. أفهؤلاء يؤمنون لو أجيئوا إلى ما سألوا، وأعطوا ما اقترحوا ، مع كونهم أعتى منهم وأطغى . وفيه تنبيه على أن عدم الإيمان بالمقترح للإبقاء عليهم . إذ لو أتى به ولم يؤمنوا ، استوجبوا عذاب الاستئصال ، كمن قبلهم . وقدمنا أن رقى النوع البشرى فى العهد النبوى ، اقتضى أن تكون الآية عقلية ، لا كونية. فتذكر ثم أوضح جواب شبهتهم فى منافية البشرية للرسالة ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ ، فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

« وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ اِلَيْهِمْ » أى لا ملائكة . وقرئ بالياء وفتح الحاء « فَسَلُّوا اَهْلَ الدِّكْرِ » أى العلماء بالتوراة والإنجيل « إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » أى أن الرسل بشر ، فيعلموكم إن المرسلين لم يكونوا ملائكة . وفى الآية دليل على جواز الاستظهار بأقوال أهل الكتاب ومروياتهم ، لحج الخصم وإفناعه .

تنبيه :

قال الرازى : فأما ما تعلق كثير من الفقهاء بهذه الآية ، فى أن للعالى أن يرجع إلى فتيا العلماء ، وفى أن للمجتهد أن يأخذ بقول مجتهد آخر - فبعيد . لأن هذه الآية خطاب مشافهة . وهى واردة فى هذه الواقعة المخصوصة . ومتعلقة باليهود والنصارى على التعيين . انتهى .

ثم بين تعالى كون الرسل كسائر الناس ، فى أحكام الطبيعة البشرية ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ)

« وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ » أى جسداً مستغنياً عن الطام ، بل محتاجاً إلى ذلك لجبر مافات بالتحليل كما قال تعالى (١) « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُوا فِي الْأَسْوَاقِ » وفى هذا التعريف الزباني عن حال المرسل ، أكبر رادع لأولئك المزوين عن الناس المتصيدين به قلوب الرعاع والعامّة والحق ومن لا يزن عند ربه جناح بموضة . إذ يرون تناول الطعام فى المحافل وتكثير سواد الناس فى الجامع والخروج للأسواق لقضاء الحاجات ، من أعظم الهوادم لصروح الاعتقاد فيهم . فتراهم يأتقون من شراء حوائجهم بأيديهم ، وهو السنة . ومن المشى بالأسواق ، وهو المأذون فيه . ومن إجابة الدعوة ، وهى واجبة ، لأوهام فى أنفسهم شيدوها . ومحافضة على السمعة حموا جانبها .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢٠] .

فتباً لهم من قوم مبتدعين ، يعبدون قلوب الخلق ولا يعبدون الله . ويريدون حالة فوق ما عليه رسل الله . وما ذلك إلا الله . فما أجرأهم على منازعة الجبار ! وما أصبرهم على النار ! وقوله تعالى :

« وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ » أى فى الدنيا ، بل كانوا يعيشون ثم يموتون كما قال تعالى (١)
(وَمَا جَعَلْنَا لِلْبَشَرِ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ) وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله عز وجل .
تنزل عليهم الملائكة بما يحكمه فى خلقه مما يأمر به وينهى عنه . وكونهم بشراً من تمام
النعمة الإلهية . وذلك ليتمكن الرسل إليهم من الأخذ عنهم والانتفاع بهم . إذ الجنس
أميل إلى الجنس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ)
« ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ » أى فى غلبتهم على أعدائهم (٢) (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا
وَرُسُلِي) « فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ » أى من أتباعهم ومن قضت الحكمة بإبقائه
« وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ » أى المجاوزين الحدود فى الكفر . ثم نبه تعالى على شرف القرآن ،
محرضاً لهم على معرفة قدره ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)
« لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ » أى شرفكم وحديثكم الذى تذكرون به
فوق شرف الأشراف « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى هذه النعمة وتلقونها بالقبول كما قال تعالى (٣)
(وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ) وقيل : معنى (ذِكْرُكُمْ) موعظةكم
(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٤] . (٢) [٥٨ / المجادلة / ١٢] . (٣) [٤٣ / الزخرف / ٤٤] .

فالذكر بمعنى التذكير مضاف للمفعول . قال أبو السعود : وهو الأنسب بسباق الفظم الكريم وسياقه . فإن قوله تعالى (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) إنكار توبيخي ، فيه بعث لهم على التدبر في أمر الكتاب ، والتأمل فيما في تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر ، التي من جملتها القوارع السابقة واللاحقة . ثم أشار تعالى إلى نوع تفصيل لإجمال هلاك المسرفين المتقدم له ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ)

[١٢] (فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأُسْنَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ)

[١٣] (لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ)

« وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأُسْنَانَا » أي عذابنا النازل بهم « إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ » أي يهربون مسرعين . ثم قيل لهم استهزاءً بلسان الحال أو المقال « لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ » أي من التمتع والتلذذ و (في) ظرفية أو سببية « وَمَسْكِنِكُمْ » أي التي كثر فيها إسرافكم « لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ » أي تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير في المهمات والنوازل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

[١٥] (فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ)

[١٦] (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبِينَ)

« قَالُوا » أى لما أيقنوا بنزول العذاب « يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ » أى تلك الكلمة وهى (يا ويلنا) دعوتهم فلا تختص بوقت الدهشة ، بل تدوم عليهم ما أمكنهم النطق « حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا » أى كنبات محصود « خَلِيدِينَ » أى هالكين بإخاد نار أرواحهم « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَمِينَ » أى بل للإنعام عليهم . وما أنعمنا عليهم بذلك إلا ليقوموا بشكرها وينصرفوا إلى ما خلقوا له . قال الزمخشري عليه الرحمة : أى وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق ، مشحونة بضروب البدائع والعجائب ، كما تسوى الجبارة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم ، للهو واللعب . وإنما سويناها للفوائد الدينية ، والحكم الربانية ، لتكون مطارح افتكار واعتبار واستدلال ونظر لعبادنا ، مع ما يتعلق لهم بها من المنافع التى لاتعد والمرافق التى لا تحصى . وقال أبو السعود : فى هذه الآية إشارة إجمالية إلى أن تكوين العالم وإبداع بنى آدم ، مؤسس على قواعد الحكم البالغة ، المستتبعة للغايات الجليلة . وتنبيه على أن ما حكى من العذاب الهائل والعقاب النازل بأهل القرى ، من مقتضيات تلك الحكم ، ومتفرعاتها . عن حسب اقتضاء أعمالهم إياه . وإن للمخاطبين المقتدين بآثارهم ذنوباً مثل ذنوبهم . أى ما خلقناها وما بينهما على هذا النمط البديع والأسلوب المنيع ، خالية عن الحكم والمصالح . وإنما عبر عن ذلك باللعب واللهو ، حيث قيل (لَعِينِينَ) لبيان كمال تنزهه تعالى عن الخلق الخالى عن الحكمة . بتصويره بصورة ما لا يرتاب أحد فى استحالة صدوره عنه تعالى . بل إنما خلقناها وما بينهما لتكون مبدءاً لوجود الإنسان وسبباً لمعاشه . ودليلاً يقوده إلى تحصيل معرفتنا التى هى الغاية القصوى ، بواسطة طاعتنا وعبادتنا . كما ينطق به قوله تعالى ^(١) (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) وقوله تعالى ^(٢) (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .

وقوله تعالى :

(١) [١١ / هود / ٧] . (٢) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوَ لَا تَتَّخِذَ نُهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ)

« لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوَ لَا تَتَّخِذَ نُهُ مِنْ لَدُنَّا » استثناء مقرر لما قبله من انتفاء اللعب واللهو . أى لو أردنا أن نتخذ ما يتلهم به ويلعب لا نتخذناه من عندنا . كديدن الجبارة في رفع العروش وتحسينها ، وتسوية الفروش وتزيينها . لكن يستحيل إرادتنا له لمنافاته الحكمة . فيستحيل اتخاذنا له قطعاً . وقوله تعالى « إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ » جوابه محذوف دل عليه ما قبله . أى لا نتخذناه . وقيل : إِنْ (إِنْ) نافية . أى ما كنا فاعلين . أى لا نتخذ اللهو ، لعدم إرادتنا إياه . فيكون بياناً لانتفاء التالى ، لانتفاء المقدم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ، وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ)

« بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ » إضراب عن اتخاذ اللهو بل عن إرادته . وتنزيه منه لذاته العلية كأنه قال : سبحانه أن نتخذ اللهو واللعب أو نريده ، بل من شأننا أن ندحض الباطل بالحق « فَيَدْمَغُهُ » أى يمحقه بالكلية كما فعلنا بأهل القرى المحكية « فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » أى هالك بالكلية . وقد استعير لإرسال الحق على الباطل (القذف) الذى هو الرمى الشديد بالجرم الصلب كالصخرة . ولحقه للباطل (الدمغ) الذى هو كسر الشيء الرخو الأجوف . وهو الدماغ بحيث يشق غشائه المؤدى إلى زهوق الروح ، استعارة تصريحية تبعية . ويصح أن يكون تمثيلاً لغلبة الحق على الباطل حتى يذهبه ، بزمى جرم صلب على رأس دماغها رخو ليشقه ، وذكر « فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » لترشيح المجاز . لأن من رمى قدمغ تزهق روحه . فهو من لوازمه . قال أبو السعود : وفى (إذا) الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة فى الذهاب والبطلان ، ما لا يخفى . فكأنه زاهق من الأصل

وفي الآية إيماء إلى علو الحق وتسفل الباطل . وأن جانب الأول باقٍ والثاني فانٍ « وَلَكُمْ أُولَئِلْهُ مِمَّا تَصِفُونَ » أى مما تصفونه به من اتخاذ الولد ونحوه ، مما تنزه عظمته عنه . ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ، ودأبهم فى طاعته ليلاً ونهاراً ، وبراءتهم من البُتُوَّة المفترة عليهم ، إثر إخباره عن ملكه للخلق كافة ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ)

« وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى ملكاً وتديراً « وَمَنْ عِنْدَهُ » وهم الملائكة « لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ » أى لا يعيون ولا يتعبون منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ)

« يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ » أى من تنزيهه وعبادته ، ثم أشار تعالى إلى تقرير وحدانيته فى ألوهيته ونفى الأنداد ، إثر تقريره أمر الرسالة - فإن ما سلف من أول السورة كان فى تحقيق شأن النبوة بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (أَمْ أُتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنْ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ)

« أَمْ أُتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنْ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ » أى يبعثون الموتى ويخرجونهم من العدم إلى الوجود .

أى بل اتخذوا آلهة من الأرض هم مع حقارتهم وجاديتهم ينشرون الموتى . كلا فإن

ما اتخذوها آلهة بمعزل من ذلك . فكيف جعلوها لله ندا ، وعبدوها معه ؟
قال الزمخشري رحمه الله : فإن قلت : كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر ، وما كانوا يدعون ذلك لأهلهم ؟ كيف ، وهم أبعد شيء عن هذه الدعوى ؟ وذلك أنهم كانوا مع إقرارهم لله عز وجل بأنه خالق السموات والأرض^(١) (وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) وبأنه القادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولى ، منكرين للبعث . ويقولون : من يحيي العظام وهي رميم^(٢) ؟ وكان عندهم من قبيل المحال الخارج عن قدرة القادر كثنائي القديم . فكيف يدعونه للجهد الذي لا يوصف بالقدرة رأساً ؟ .
قلت : الأمر كما ذكرت . ولكنهم بادعائهم لها الإلهية ، يلزمهم أن يدعوا لها الإنشاء . لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور . والإنشاء من جملة المقدورات . انتهى .
قال في (الانتصاف) : فيكون المنكر عليهم صريح الدعوى ولازمها . وهو أبلغ في الإنكار .

ثم قال الزمخشري : وفيه باب من التهم بهم والتوبيخ والتجهيل وإشعار بأن ما استبعدوه من الله لا يصح استبعاده ، لأن الإلهية لما صحت صح معها الاقتدار على الإبداء والإعادة . انتهى .

لطيفة:

سر قوله تعالى (مِنَ الْأَرْضِ) هو التحقير ، أي تحقير الأصنام بأنها أرضية سفلية . وجوز إرادة التخصيص . أي الآلهة التي من جنس الأرض . لأنها إما أن تنحت من بعض الحجارة أو تعمل من بعض جواهر الأرض . وإنما خصص الإنكار بها ، لأن ما هو أرضي مصنوع بأيديهم كيف يدعى ألوهيته ؟ ثم بين تعالى بطلان تعدد الآلهة بإقامة البرهان على انتفاءه ، بل على استحالة ، بقوله سبحانه :

(١) [٣١ / لقمان / ٢٥] . (٢) [٣٦ / يس / ٧٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَٰهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا، فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)

«لَوْ كَانَ فِيهِمَا» أى يتصرف فى السموات والأرض «آلَٰهَةٌ إِلَّا اللَّهُ» أى غيره

«لَفَسَدَتَا» أى لبطلتا بما فيهما جميعاً، واختل نظامهما المشاهد، كما قال تعالى فى سورة (المؤمنون) (١)

(وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) قال

أبو السعود : وحيث انتفى التالى ، علم انتفاء المقدم قطعاً . بيان الملازمة ؛ أن الإلهية مستلزمة

للقدرة على الاستبداد بالتصرف فيهما على الإطلاق تغييراً وتبديلاً ، وإيجاداً وإعداماً وإحياء

وإماتة . فبقاؤها على ماها عليه إما بتأثير كل منها ، وهو محال لاستحالة وقوع العلول المعين

بعلل متعددة . وإما بتأثير واحد منها ، فالبواقي بمعزل من الإلهية قطعاً . واعلم أن جعل

التالى فسادها بعد وجودها ، لما أنه اعتبر فى المقدم تعداد الآلهة فيهما . وإلا فالبرهان يقضى

باستحالة التعدد على الإطلاق . فإنه لو تعدد الإله ، فإن توافق الكل فى المراد ، تطاردت

عليه القدر ، وإن تخالفت تعاوقت . فلا يوجد موجود أصلاً . وحيث انتفى التالى تعين انتفاء

المقدم . انتهى .

وتفصيله كما فى (المقاصد) أنه لو وجد إلهان بصفات الألوهية ، فإذا أراد أحدهما أمراً

كحركة جسم مثلاً ، فإما أن يتمكن الآخر من إرادة ضده أو لا . وكلاهما محال . أما الأول فلا أنه

لو فرض تعلق إرادته بذلك الضد ، فإما أن يقع مرادهما وهو محال ، لاستلزامه اجتماع الضدين .

أو لا يقع مراد واحد منهما ، وهو محال لاستلزامه عجز الإلهين الموصوفين بكمال القدرة على ما هو

المفروض ، ولأستلزامه ارتفاع الضدين المفروض امتناع خلوّ المحل عنهما ، كحركة جسم

وسكونه فى زمان معين . أو يقع مراد أحدهما دون الآخر وهو محال . لاستلزامه الترجيح

بلا مرجح ، وعجز من فرض قادراً حيث لم يقع مراده . وهذا البرهان يسمى برهان التمانع .

وإليه الإشارة بقوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَٰهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) فإن أريد بالفساد عدم

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٩١] .

التكون ، فتقريره أنه لو تعدد الإله لم تتكون السماء والأرض . لأن تكونهما إما بمجموع القدرتين أو بكل منهما أو بأحدهما . والسكل باطل . أما الأول فلأن من شأن الإله كمال القدرة . وأما الآخرون فلما مرّ . وإن أريد بالفساد الخروج عماها عليه من النظام ، فتقريره أنه لو تعدد الإله لكان بينهما التنازع والتغالب . وتميز صنع كلٍّ عن صنع الآخر ، بحكم اللزوم العادى . فلم يحصل بين أجزاء العالم هذا الالتئام ، الذى باعتباره صار السكل بمنزلة شخص واحد . ويختل الانتظام الذى به بقاء الأنواع . وترتب الآثار . انتهى .

هذا وقد قيل : إن المطلب هنا برهانى ، والمشار إليه فى الآية إقناعى . ولا يفيد العلم اليقضى فلا يصح الاستدلال بها على هذا المطلب ، ومن فصل ذلك التفتازانى فى (شرح العقائد النسفية) قادحاً لما أشار إليه نفسه فى (شرح المقاصد) من كون الآية برهاناً ، كما ذكرناه عنه . وملخص كلامه أن مجرد التعدد لا يستلزم الفساد بالفعل ، لجواز الاتفاق على هذا النظام ، أى بالاشتراك أو بتفويض أحدهما إلى الآخر فلا يستلزم التعدد التمانع بالفعل بل بالإمكان . والإمكان لا يستلزم الوقوع ، فيجوز أن لا يقع بينهما ذلك التمانع بل يتفقان على إيجادها . ورد عليه بأن إمكان التمانع يستلزم التمانع بالفعل فى كل مصنوع بطريق إرادة الإيجاد بالاستقلال . وكلما لزم التمانع لم يوجد مصنوع أصلاً . فإنه لو وجد على تقدير التمانع المذكور اللازم للتعدد فيما بمجموع القدرتين ، فيلزم عجزهما . أو بكل منهما فيلزم التوارد . أو بأحدهما فيلزم الرجحان من غير مرجح ، لاستواء نسبة كل ممكن إلى قدرة كل من الإلهين والسكل محال ضرورة ، وحاصل الاستدلال أنه لو تعدد الآلهة لم يتكون مصنوع . لأن التعدد مستلزم لإمكان التخالف المستلزم للتوارد أو العجز . فظهر أن الآية حجة قطعية لكون الملازمة فيها قطعية . وحقق بعضهم قطعية الملازمة بالمادة القاضية التى لم يوجد أخرمها قط فى ملكين مقتدرين فى مدينة واحدة ، أن يطلب كلُّ الانفراد بالملك والعلو على الآخر وقهره ، فكيف بالإلهين والإله يوصف بأقصى غايات التكبر . فكيف لا يطلب الانفراد بالملك كما أخبر سبحانه بقوله (وَلَعَلَّآ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) ؟ وهذا إذا تؤمل لاتكاد النفس تخطر نقيضه بالبال ، فضلاً عن إخطار فرضه ، مع الجزم بأن الواقع هو الآخر .

فعلى هذا التقدير ، فالملازمة علم قطعى . هذا ملخص ما جاء فى رد مقالة السعد فى الحواشى . وقد شنع عليه فى مقاله المتقدمة غير واحد . وبالف معاصره عبد اللطيف الكرماني فى الانتقاد .

قال العلامة المرجاني : وقد سبقه فى هذا أبو المعين النسفي فى كتابه (التبصرة) وتابعه صاحب (الكشف) حيث شنع على أبى هاشم الجبائي تشنيعاً بليغاً . حتى نسبته إلى الكفر بقده فى دلالة الآية قطعاً على هذا المدعى . ولا يخفى أن الأفهام لاتقف عند حد . ولا تزال تباين وتتخالف ما اختلفت الصور والألوان ، ولا تكفير ولا تضليل ، ما دام المرء على سواء السبيل .

وقد أوضح بيان هذه الملازمة العلامة مفتى مصر فى رساله (التوحيد) إيضاحاً ما عليه من مزيد ، وعبارته : ومما يجب له تعالى صفة الوحدة ذاتاً ووصفاً ووجوداً وفعلًا . أما الوحدة الذاتية فقد أثبتناها فيما تقدم بنفى التركيب فى ذاته خارجاً وعقلاً . وأما الوحدة فى الصفة ، أى أنه لا يساويه فى صفاته الثابتة له موجود ، فلما بينا من أن الصفة تابعة لمرتبة الوجود ، وليس فى الموجودات ما يساوى واجب الوجود فى مرتبة الوجود . فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات . وأما الوحدة فى الوجود وفى الفعل ، ونعنى بها التفرد بوجوب الوجود وما يتبعه من إيجاد الممكنات ، فهى ثابتة . لأنه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة . وإلا لم يتحصل معنى التعدد . وكلما اختلفت التعمينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة ، لأن الصفة إنما تعين وتنال بتحققها الخاص بها ، بتعين ما يثبت له بالبداهة . فيختلف العلم والإرادة باختلاف الذوات الواجبة . إذ يكون لكل واحدة منها علم وإرادة يباينان علم الأخرى وإرادتها ويكون لكل واحدة علم وإرادة يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها . هذا التخالف ذاتي ، لأن علم الواجب وإرادته لازمان لذاته من ذاته لا لأمر خارج . فلا سبيل إلى التغير والتبدل فيهما كما سبق . وقد قدمنا أن فعل الواجب إنما يصدر عنه على حسب علمه وحكم إرادته ، فيكون فعل كل صادرًا على حكم يخالف

الآخر مخالفة ذاتية . فلو تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وإراداتهم . وهو خلاف يستحيل معه الوفاق . وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات ، له السلطة على الإيجاد في عامة المكفآت . فكل له التصرف في كل منها على حسب علمه وإرادته . ولا مرجح لنفاذ إحدى القدرتين دون الأخرى . فتتضارب أفعالهم حسب التضارب في علومهم وإرادتهم ، فيفسد نظام الكون ، بل يستحيل أن يكون له نظام ، بل يستحيل وجود ممكن من المكفآت . لأن كل ممكن لا بد أن يتعلق به الإيجاد على حسب العلوم والإرادات المختلفة . فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات متعددة وهو محال (لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) لكن الفساد ممنوع بالبداهة . فهو جل شأنه واحد في ذاته وصفاته لا شريك له في وجوده ولا في أفعاله . انتهى .

وأشار حجة الإسلام الغزالي في كتاب (الاقتصاد في الاعتقاد) في بحث الوحدة، إلى أن هذه الآية لا يبين منها في برهان التوحيد، وأنه لا مزيد على بيان القرآن. قال الكلبي: الفساد المذكور في هذه الآية إما بمعنى خروج السماء والأرض عن هذا النظام المشاهد من بقاء الأنواع وترتيب الآثار كما هو الظاهر . وإما بمعنى عدم تكوينهما في الأصل كما قالوا . ثم إن كل من يخاطب بها يعرف أن منشأ الفساد هو تعدد الإله . فهي بعبارتها تنفي آلهة متعددة غير الواجب تعالى ، وبدالاتها تنفي تعدد الآلهة . انتهى .

وقوله تعالى « فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ » أى من وجود شرك له فيهما . والفاء لترتب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدة بالدليل المتقدم . أى فسبحوه سبحانه اللائق به ، ونزهوه عما يفترون . وفيه تعجب ممن يشرك مع المعبود الأعظم البارئ لأعظم المكونات وهو العرش ، غيره ممن لا يقدر على شيء البتة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)

« لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ » أى هو الحاكم الذى لا معقب لحكمه ، ولا يعترض عليه أحد لعظمته

وجلاله وكبريائه وعلوه وحكمته وعدله ولطفه « وَهُمْ يُسْأَلُونَ » الضمير للمعباد . أى يسئلون عما يفعلون كقوله ^(١) (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) . قال الزمخشري : إذا كانت عادة الملوك والجبارة أن لا يسألهم من في مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم ، تهيئاً وإجلالاً ، مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم ، كان ملك الملوك ورب الأرباب خالقهم ورازقهم ، أولى بأن لا يسئل عن أفعاله ، مع ما علم واستقرى العقول من أن ما يفعله كله مفعول بحكمة ، ولا يجوز عليه خطأ ، ثم قال (وَهُمْ يُسْأَلُونَ) أى هم مملوكون مستعبدون خطاءون . فأخلقهم بأن يقال لهم : لم فعلتم؟ في كل شيء فعلوه . انتهى .

قال ابن كثير : وهذه الآية كقوله تعالى ^(٢) (وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ) .

تنبيه

قال الإمام الغزالي في (المصنوع به على غير أهله) : وأما معنى قول الله تعالى (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) وقوله تعالى ^(٣) : (لِمَ خَشَرْتَ بَنِيَّ أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا) فالسؤال قد يطلق ويراد به الإلزام . يقال : ناظر فلان فلاناً وتوجه عليه سؤاله . وقد يطلق ويراد به الاستخبار ، كما يسأل التلميذ أستاذه . والله تعالى لا يتوجه عليه السؤال بمعنى الإلزام . وهو المعنى بقوله (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ) إذ لا يقال (لِمَ) قول إلزام . فأما أن لا يستخير ولا يستفهم ، فليس كذلك . وهو المراد بقوله (لِمَ خَشَرْتَ بَنِيَّ أَعْمَى) . وقوله تعالى : القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ، هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ)

(١) [١٥ / الحجر / ٩٣ و ٩٤] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٨٨] .

(٣) [٢٠ / طه / ١٢٥] .

« أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ عَالِهَةٍ كَرِهَ اسْتِعْظَامًا لِكْفَرِهِمْ ، وإظهاراً لجهلهم ، وانتقالاً إلى إظهار بطلان اتخاذها آلهة ، مع خلوها عن خصائص الإلهية . وتبكيتهم بإقامة البرهان على دعواهم . ولذا قال تعالى « قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ » أى دليلكم على ما تفترون . أما من جهة العقل والنقل ، فإنه لا صحة لقول لا برهان له ولا دليل عليه .

قال أبو السعود : وما فى إضافة البرهان إلى ضميرهم من الإشعار بأن لهم برهاناً ، ضرب من التهمك بهم . وقوله تعالى « هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعَى وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِى » إنارة لبرهانه ، وإشارة إلى أنه مما نطقت به الكتب الإلهية قاطبة ، وشهدت به ألسنة الرسل المتقدمة كافة . وزيادة تهيج لهم على إقامة البرهان لإظهار كمال عجزهم . أى هذا الوحي الوارد فى شأن التوحيد ، المتضمن للبرهان القاطع العقلى ، ذكر أمتى أى عظمتهم ، وذكر الأمم السالفة قد أقنته فأقيموا أنتم أيضاً برهانكم . انتهى .

ثم أشار تعالى أنه لا ينجع فيهم الحاجة بتحقيق الحق وإبطال الباطل بقوله سبحانه : « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ » أى عن النظر الموصل إلى الهدى . ثم بين تعالى أن التوحيد دعوى كل نبي ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيْهِ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيْهِ إِلَيْهِ » وقرئ (يُوحَى) بالياء وفتح الحاء « أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » . كما قال (١) (وَسُئِلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ) وقال (٢) (وَلَقَدْ بَعَثْنَا

(١) [٤٣ / الزخرف / ٤٥] . (٢) [١٦ / النحل / ٣٦] .

فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ (فَكُل نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . وَالْفِطْرَةُ شَاهِدَةٌ بِذَلِكَ أَيْضًا ، وَالْمُشْرِكُونَ لَا بُرْهَانَ لَهُمْ وَحُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ . ثُمَّ بَيْنَ تَعَالَى بِطُلَانِ مَا يَفْتَرِيهِ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُهُ ، تَعَالَى عَلَوًّا كَبِيرًا ، بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ :

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى :

[٢٦] (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ)

[٢٧] (لَا يَسْبِقُونَهُ) بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ

« وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ » أَيْ مَقْرَبُونَ « لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ » أَيْ يَتَّبِعُونَ قَوْلَهُ : فَلَا يَقُولُونَ شَيْئًا حَتَّى يَقُولَهُ تَعَالَى أَوْ بِأَمْرِهِمْ بِهِ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْعَبِيدِ الْمُؤَدِّينَ « وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ » فَلَا يَعْصُونَهُ فِي أَمْرٍ . إِشَارَةٌ إِلَى مِرَاعَاتِهِمْ فِي أَدَبِ الْعِبَادِيَّةِ فِي الْأَفْعَالِ أَيْضًا ، كَالْأَقْوَالِ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى :

[٢٨] (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ)

« يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ » أَيْ مِمَّا قَدَمُوا وَأَخَّرُوا . فَهُوَ الْحَاطِطُ بِهِمْ عِلْمًا ^(١) (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ) فَكَيْفَ يَخْرُجُونَ عَنْ عِبَادِيَّتِهِ ؟ « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى » أَيْ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ ، مَهَابَةٌ مِنْهُ تَعَالَى .

قَالَ الْمُهَاجِمِيُّ : كَيْفَ يَخْرُجُونَ عَنْ عِبَادِيَّتِهِ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى ادْنَى وَجْهِهِ مَعَارَضَتِهِ . لِأَنَّهُمْ لَا يَشْفَعُونَ

إلا لمن ارتضى . إذ الشفاعة لغير المرتضى نوع معارضة معه . وكيف يعارضونه « وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ » أى قهره « مُشْفِقُونَ » أى خائفون .

قال ابن كثير : وقوله ^(١) (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى) كقوله ^(٢) (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) وقوله ^(٣) (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) فى آيات كثيرة فى معنى ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَمَنْ يَقْلُ مِنْهُمْ إِلَّا إِيَّيَّ إِلَهُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ، كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

« وَمَنْ يَقْلُ مِنْهُمْ إِلَّا إِيَّيَّ إِلَهُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ » الضمير فى (منهم) للملائكة . لتقدم ذكركم واقتضاء السياق ، وكونه أبلغ فى الرد والتهديد .

قال الزمخشري رحمه الله : وبعد أن وصف كرامتهم عليه وقرب منزلتهم عنده ، وأثنى عليهم ، وأضاف إليهم تلك الأفعال السنية والأعمال المرضية ، فاجأ بالوعيد الشديد . وأنذر بعذاب جهنم من أشرك منهم . إن كان ذلك على سبيل الفرض والتمثيل ، مع إحاطة علمه بأنه لا يكون كما قال ^(٤) (وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) قصد بذلك تفضيع أمر الشرك ، وتعظيم شأن التوحيد . انتهى .

وفى قوله (كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) إشعار بظلم من يقول تلك العظيمة . كيف لا ؟ وقد استهان برتبة الإلهية وجاوز بها مقامها الأسنى .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٨] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٥٥] . (٣) [٣٤ / سبأ / ٢٣] .

(٤) [٦ / الأنعام / ٨٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا،

وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ، أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)

« أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ » .

هذا شروع في آياته الكونية ، الدالة على وحدته في ألوهيته، التي عصى عنها المشركون، فلم يروها رؤية اعتبار وتدبر . ومعنى قوله « كَانَتَا رَتْقًا » أى لا تخطروا لتنبت (فَفَتَقْنَاهُمَا) أى بالمطر والنبات. فالفتق والرتق استعارة. ونظيره قوله تعالى^(١) (وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّدْعِ) و (الرجع) لغة هو الماء و (الصدع) هو النبات لأنه يصدع الأرض أى يشققها . وقوله تعالى^(٢) (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ) أى كيف انقردنا في إحداها وتهيئته ليقم بنيتها^(٣) (أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا) أى من المزن بعد أن لم يكن^(٤) (ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا) أى ثم بعد أن كانت الأرض رتقاً متماسكة الأجزاء ، شققناها شقاً مرئياً مشهوداً ، كما تراه في الأرض بعد الري . أو شقاً بالنبات .

وقال أبو مسلم الأصفهاني : يجوز أن يراد بالفتق الإيجاد والإظهار كقوله تعالى^(٥) (فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) وكقوله^(٦) (قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ) فأخبر عن الإيجاد بلفظ (الفتق) وعن الحال قبل الإيجاد بلفظ (الرتق) .

قال الرازي : وتحقيقه أن العدم نفي محض . فليس فيه ذوات مميزة وأعيان متباينة. بل

(١) [٨٦ / الطارق / ١١ و ١٢] . (٢) [٨٠ / عبس / ٢٤] .

(٣) [٨٠ / عبس / ٢٥] . (٤) [٨٠ / عبس / ٢٦] .

(٥) [٦ / الأنعام / ١٤] . (٦) [٢١ / الأنبياء / ٥٦] .

كأنه أمر واحد متصل متشابه . فإذا وجدت الحقائق ، فعند الوجود والتكوين يتميز بعضها عن بعض ، وينفصل بعضها عن بعض . فهذا الطريق حسن . جعل (الرتق) مجازاً عن العدم و (الفتق) عن الوجود . انتهى .

وقال بعض علماء الفلك : معنى قوله تعالى (كَانَتْ رَتْقًا) أى شيئاً واحداً . ومعنى (فَفَتَقْنَاهُمَا) فصلنا بعضهما عن بعض .

قال : فتدل الآية على أن الأرض خلقت كباق الكواكب السيارة من كل وجه . أى أنها إحدى هذه السيارات . وهي مثلها في المادة وكيفية الخلق وكونها تسير حول الشمس وتستمد النور والحرارة منها . وكونها مسكونة بحيوانات كالسكواكب الأخرى . وكونها كروية الشكل . فالسيارات أو السموات هي متماثلة من جميع الوجوه ، وكلها مخلوقة من مادة واحدة ، وهي مادة الشمس . وعلى طريقة واحدة . اه كلامه .

وقد يرجح الوجه الأول في تفسير الآية لقوله تعالى بعده (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) فإن ذلك مما يبين أن لسابقه تعلقاً بالماء . وعلى هذا فالرؤية في قوله تعالى (أَوَلَمْ يَرَ) بصرية . وعلى قول أبي مسلم وما بعده ، إعلانية . على حد قوله تعالى لتبني صلوات الله عليه (١) (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ) مع أنه لم يشاهد الحادثة ، بل ولد بعدها . وإنما يتقنها بالأخبار الصادقة . وكذلك ما هنا من الفتق والرتق ، بمعنييه الأخيرين ، مما أخبر به الحق تعالى على لسان من قامت الحججة على صدقه وعصمته . فكان مما يسهل عليهم تصديقه فعلمه .

ومعنى قوله تعالى (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء ، لا يحيا دونه . فيدخل فيه النبات والشجر . لأنه من الماء صار نامياً . وصار فيه الرطوبة والخضرة والنور والثمر . وإسناد الحياة إلى ظهور النبات معروف في آيات شتى . كقوله تعالى (٢) (وَيُخَيِّبُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) وخص بعضهم الشيء بالحيوان ، لآية (٣)

(١) [١٠٥ / الفيل / ١] . (٢) [٣٠ / الروم / ١٩] . (٣) [٢٤ / النور / ٤٥]

(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ) ولا ضرورة إليه . بل العموم أدل على القدرة، وأعظم في العبرة، وأبلغ في الخطاب ، والطف في المعنى .
وقوله تعالى (أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) إنكار لعدم إيمانهم بالله تعالى وحده ، مع ظهور ما يوجب حتما من الآيات الظاهرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

« وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ » أى جيالاً ثوابت « أَن تَمِيدَ بِهِمْ » أى لئلا تتحرك وتضطرب بهم . فلولا الجبال لسكانت الأرض دائماً الاضطراب مما فى جوفها من المواد الداعة الجيشان .

وقوله تعالى « وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ » الضمير فى (فيها) للأرض . وتكرير الفعل لاختلاف المعولين ، ولتوفية مقام الامتنان حقه . أو للرواسى لأنها المحتاجة إلى الطرق . وعلى الثانى اقتصر ابن كثير . قال : فقد يشاهد جبل هائل بين بلدين ، وإذا فيه فجوة يسلك الناس فيها ، رحمة منه تعالى (وَسُبُلًا) بدل من (فِجَاجًا) أشير به إلى أنه مع السعة نافذ مسلوك، وأنه خلق ووسع لأجل السابلة . ومعنى (يهتدون) أى إلى مصالحهم .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ، وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ)

« وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا » أى على الأرض كالقبة عليها « مَّحْفُوظًا » أى عالياً محروساً أن

ينال أو محفوظاً من التغير بالمؤثرات، مهما تطاول الزمان. كقوله تعالى^(١) (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا) « وَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ » . أى عما وضع الله فيها من الأدلة والعبر ، بالشمس والقمر وسائر النيرات، ومساييرها وطلوعها وغروبها، على الحساب القويم، والترتيب العجيب ، الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة. وأى جهل أعظم من جهل من أعرض عنها ولم يذهب به وهمه إلى تدبرها والاعتبار بها والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها عن عدم ، ودبرها ونصبها هذه النصبه ، وأودعها ما أودعها مما لا يعرف كنهه إلا هو ، عزّت قدرته ولطف علمه ؟ ؟

وقرى^(٢) (عن آيتها) على التوحيد ، اكتفاء بالواحدة فى الدلالة على الجنس ، أى هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية كالاستضاءة بقمرها والاهتداء بكواكبها، وحياة الأرض والحيوان بأمطارها . وهم عن كونها آية بينة على الخالق ، معرضون . أفاده الزمخشري .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ » أى ليسكنوا فيه « وَالنَّهَارَ » ليتحركوا المعاشهم وينشطوا لأعمالهم « وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ » أى ضياء وحسباناً « كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » أى كل واحد منهما يجرى فى الفلك ، كالسباح فى الماء . و (الفلك) فى اللغة كل شئ دائر .

قال بعض علماء الفلك : تشير الآية إلى حركة هذه الكواكب كآية^(٣) (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ * الْجَوَارِ الْكُنُوسِ) وهما تدلان على أن حركة الكواكب ذاتية . لا كما كان يقول القدماء من أن الكواكب مركوزة فى أفلاكها التى تدور بها ، وبدورانها تتحرك الكواكب . اهـ . وقوله تعالى :

(١) [٧٨ / النبأ / ١٢] . (٢) [٨١ / التكويد / ١٥ و ١٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ، أَلَّا يَمُوتَ فَهُمْ يُبْعَدُونَ)

«وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ، أَلَّا يَمُوتَ فَهُمْ يُبْعَدُونَ» نزلت حين قالوا (نتربص به رب المنون) فكانوا يقدرون أنه سيموت ، فيشمتون بموته ، لما يأملون ذهاب الدعوة النبوية ، وتبدد نظامها ، بفقد واسطة عقدها . فنفى الله تعالى عنه الشكاة بهذه الآية ، بما قضى أنه لا يخلد في الدنيا بشراً ، لكونه مخالفاً للحكمة التكوينية . وأعلم بحفظ تنزيله وحراسته من المؤثرات ما بقيت الدنيا بقوله^(١) (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُوَلَّحِفْظُونَ) .

قال ابن كثير : فقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر عليه السلام مات ، وليس بجي إلى الآن . لأنه بشر سواء كان ولياً ، أو نبياً أو رسولاً . انتهى .

وتقدم بسط ذلك في سورة الكهف فتذكر . وفي معنى الآية قول عروة الصحابي^(٢) رضي الله عنه :

إذا ما الدهرُ جرَّ على أناسٍ كَلَّا كَلَهُ أَتَاخَ بآخِرِنَا
فقل للشَّامِتِينَ بنا : أفيقُوا سيلقى الشَّامِتُونَ كما لَقِينَا

وقول الشافعي :

تَمَنَّى أَنَاسٌ أَنْ أَمُوتَ ، وَإِنْ أُمْتُ فَتِلْكَ سَبِيلُ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدٍ
فقل للَّذِي يَبْغِي خِلافَ الَّذِي مَضَى : نَهَيْتُ لَأُخْرَى مِثْلَهَا ، وَكَأَنَّ قَدِ

(١) [٢٥ / الحجر / ٩] . (٢) قال صاحب (رغبة الآمل ، من كتاب الكامل) :

قائلهما هو فروة بن مسيك المرادي انظر ج ٤ ص ١٠ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ» أى نختبركم بما يجب فيه الصبر من المصائب، وما يجب فيه الشكر من النعم «فِتْنَةً» أى اختباراً. وهو مصدر مؤكد (لنبلوكم) من غير لفظه «وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ» أى فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر. قال الزمخشري : وإنما سمي ذلك ابتلاء ، وهو علم بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم، لأنه فى صورة الاختبار . أى فهو استعارة تمثيلية . قال القاضى : وفى الآية إيماء بأن المقصود من هذه الحياة الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب تقريراً لما سبق . وقدم الشر لأنه اللائق بالمنكر عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ)

«وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ» عنى بهذه الآية مستهزئو قريش، كأبى جهل وأضرابه ممن كان يسخر من رسالته صلوات الله عليه ، ويتغيط لسب آلهم وتسفيه أحلامهم . كما قال تعالى ^(١) (وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ، وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا) وإضافة ذكر (للمرحمن) من إضافة المصدر لمفعوله أى بتوحيده . أو للفاعل ، أى بإرشاده الخلق ببعث الرسل وإنزال الكتب رحمة عليهم . أو بالقرآن . هم كفرون، أى فهم أحق أن يهزأ بهم . وتكرير الضمير للتأكيد والتخصيص . وقوله تعالى :

(١) [٢٥ / الفرقان / ٤١ و ٤٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ، سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ)

« خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ » كقوله تعالى^(١) (وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق منه . كقولك (خلق زيد من السكر) تنزيلاً لما طبع عليه من الأخلاق ، منزلة ما طبع هو منه من الأركان ، إيداناً بغاية لزومه له ، وعدم انفكاكه عنه . فالآية استعارة مكنية ، بتشبيه العجل لكونه مطبوعاً عليه ، بمادته . ويجوز أن تكون تصريحية . والمراد بالإنسان الجنس . ومن (عجلاته) مبادرته إلى الكفر واستعجال الوعيد « سَأُورِيكُمْ آيَاتِي » أى نفها في الدنيا كوقعة بدر . وفي الآخرة عذاب النار « فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ » أى بالإتيان بها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ » أى الموعد من العذاب الأخروي ، بطريق الاستهزاء والإنكار ، لالتعمين وقته « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فى إتيانه . قال الزمخشري : كانوا يستعجلون عذاب الله وآياته المأجئة إلى العلم والإقرار . فأراد نهيبهم عن الاستعجال وزجرهم . فقدم أولاً ذم الإنسان على إفراط العجلة وأنه مطبوع عليها . ثم نهاهم وزجرهم كأنه قال : ليس يبدع منكم أن تستعجلوا . فإنكم محبوبون على ذلك وهو طبعكم وسجيةكم . ثم بين هول ما يستعجلونه وفظاعة ما فيه ، وأن عجالتهم لجهلهم بمقبته ، بقوله تعالى :

(١) [١٧ / الإمراء / ١١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ)

[٤٠] (بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ)

« لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ »

أى لا يدفعونها عن أشرف أعضائهم وأقواها . فتقديم الوجه لشرفه ، ولكون الدفع عنه أهم من غيره أيضاً « وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ » أى يدفع أحد عنهم . وجواب (لو) محذوف أى : لما استعجلوا . وقيل (لو) للتمنى . لا جواب لها « بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ » أى فجأة فتحيرهم . لأنهم إن أرادوا الصبر عليها لم يقدروا عليه . وإن أرادوا ردها « فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا » أى بسبب من الأسباب « وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ » أى يمهلون ليستريحوا طرفة عين لتمام مدة الإنظار قبله . ثم أشار إلى تسليته عليه الصلاة والسلام عن استهزائهم ، فى ضمن وعيد لهم ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

« وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ » أى نزل « بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » أى عذابه أو جزاؤه ، على وضع السبب موضع السبب ، إيذاناً بكمال الملاينة بينهما ، أو عين استهزائهم ، إن أريد بذلك العذاب الأخروي ، بناء على تجسم الأعمال .

فإن الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصورة عرضية ، تبرز في النشأة الأخرى بصورة جوهرية ، مناسبة لها في الحسن والقبح . أفاده أبو السعود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (قُلْ مَنْ يَكْلُوْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ، بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ)

[٤٣] (أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا ، لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ)

« قُلْ مَنْ يَكْلُوْكُمْ » أى يحفظكم « بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ » أى من بأسه أن يفجأكم . وتقديم (الليل) لما أن الدواهي فيه أكثر وقوعاً وأشد وقعاً . وفى لفظ (الرحمن) تنبيه على أنه لا حفظ لهم إلا برحمته ، وتلقين للجواب . وقيل إنه إيماء إلى شدته . كغضب الحليم . وتقديم لهم حيث عذبهم من غلبت رحمته . ودلالة على شدة خبثهم . قال المهايئى : ولا يمنع من ذلك عموم رحمته . إذ بتعذيبكم يعتبر أهل عصركم ومن بعدهم . فيكون لإصلاح أمورهم الموجب لرحمته عليهم ، ولا يفترون في ذلك بعموم رحمته حتى يرجى منعهم عن ذلك « بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ » أى لا يخطر ببالهم ، فضلاً أن يخافوا بأسه ، ويعدوا ما هم عليه من الأمن والدعة حفظاً وكلاءة ، حتى يُسألوا عن السكالي « أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ » أى لهؤلاء المستعجل ربهم بالعذاب آلهة تمنعهم ، إن نحن أحللتنا بهم عذابنا وأنزلنا بهم بأسنا ، من دوننا . ومعناه : أم لهم آلهة من دُوننا تمنعهم منا . ثم وصف جل ثناؤه تلك الآلهة بالضعف والمهانة وما هي به من صفتها . ومعناه : كيف تستطيع آلهتهم التي يدعونها من دوننا أن تمنعهم منا ، وهي لا تستطيع نصر أنفسها ولا هي بمصحوبة منا بالفصر والتأييد . أفاده

ابن جرير^(١) . ف (فيصحبون) بمعنى يجارون يقال (صحبتك الله) أى أجازك وسلمك ، كما فى (الأساس) . قال^(٢) ابن جرير : أى لا يصحبون بالجواري لأن العرب محكى عنها (أنا لك جار من فلان وصاحب) بمعنى أجيرك وأمنعك . وهم إذا لم يصحبوا بالجواري ولم يكن لهم مانع من عذاب الله ، مع سخطه عليهم ، فلم يصحبوا بخير ولم ينصروا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ، أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ)

« بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ » إضراب عما توهموا ، ببيان أن الداعى إلى غيرهم وعنادهم هو ما متعوا به فى الحياة الدنيا ونعموا به هم ومن قبلهم حتى طال عليهم الأمد . لأننا نمتعهم واعظة من عذاب ولا زاجرة من عقاب حتى حسبوا أنهم على شئ وأنهم لا يغلبون « أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » أى نقص أرض الكفر فنخر بها من نواحيها بقهرنا أهلها وغلبتنا لهم وإجلالهم عنها وقتلهم بالسيوف ، فيعتبروا بذلك ويتعظوا به ويحذروا منا أن نزل من بأسنا بهم نحو الذى قد نزلنا بمن فعلنا ذلك به من أهل الأطراف . أفاده^(٣) ابن جرير . وهذا كقوله تعالى^(٤) (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) وقوله تعالى « أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ »

(١) انظر الصفحة رقم ٣٠ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣١ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٣١ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) [٤٦ / الأحقاف / ٢٧] .

أى : أفهؤلاء المشركون المستعجلون بالعذاب، الغالبون لنا، وقدرأوا قهرنا من أحللتنا بساحته
بأسنا فى أطراف الأرض ؟

وفى التعريف تعريض بأنه تعالى هو الغالب المعروف بالقهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ، وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ)
« قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ » أى تنزيل الله الذى يوحىه إلى من عنده وأخوفكم
به بأسه ، لا بالإتيان بما تستعجلون ، لأن ذلك ليس إلى ، على ما فيه من الحكمة فى هذه البعثة
التي بنيت على البراهين العقلية ، لا الخارقات الحسية كما قدمنا . ثم أشار إلى كمال جهلهم
وعنادهم ، بأن هذا الإنذار لا يجديهم ، بقوله تعالى « وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ »
أى فهم لا يصغون بسمع قلوبهم إلى تذكر ما فى وحى الله من المواعظ والذكرى ، فيتذكرون بها
ويعتبرون فينزعجون إذا تلى عليهم ، بل يعرضون عن الاعتبار به والتفكير فيه ، فعل الأصم
الذى لا يسمع ما يقال له فيعمل به . وتقييد تصامهم بقوله (إِذَا مَا يُنذَرُونَ) مع أنهم
لا يسمعون نذارة ولا بشارة ، إما لأن المقام مقام إنذار ، أو لأن من لا يسمع إذا خوف ، كيف
يسمع فى غيره ، فهو أبلغ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)
« وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ » أى
ولئن أصابهم أذى شئ من عقوبته تعالى ، لأذعنوا وذلوا وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم فى
التصام والإعراض وعبادة تلك الآلهة وتركهم عبادة من خلقهم .

لطيفة :

في صدر الآية مبالغات. ذكر المس. وما في النفحة من معنى القلة. فإن أصل النفح هبوب رائحة الشيء. والبناء الدال على المرة. والتفكير. وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

« وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » بيان لما سيقع عند إتيان ما أنذروه . أى نقيم الموازين العادلة الحقيقية التى توزن بها صحائف الأعمال . وقيل : وضع الموازين تمثيل لإرصاء الحساب السوى والجزاء على حسب الأعمال بالعدل والنصفة، من غير أن يظلم بمِثقال ذرة . وإنما وصفت الموازين بالقسط وهو مفرد ، لأنه مصدر وصف به للبالغة . كأنها فى نفسها قسط . أو على حذف المضاف أى ذوات القسط . وقيل إنه مفعول له . واللام فى (ليوم القيامة) للتعليل أو بمعنى (فى) أى لجزاء يوم القيامة أو لأهله أو فيه « فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا » أى من حقوقها . أى شيئاً ما من الظلم . بل يوفى كل ذى حق حقه « وَإِنْ كَانَ » العمل أو الظلم « مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا » أى أحضرنا ذلك العمل المعبر عنه بمِثقال حبة الخردل . للوزن . وأنت لإضافته إلى الحبة « وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ » أى وحسب من شهد ذلك الموقف بنا حاسبين . لأنه لا أحد أعلم بأعمالهم ، وما سلف فى الدنيا من صالح أو سيئ ، منا . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ)

[٤٩] (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ)

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ » شروع في قصص الأنبياء ، تسليمة له صلوات الله عليه وعليهم ، فيما يناله من أذى قومه ، وتقوية لفؤاده على أداء الرسالة ، والصبر على كل عارض دونها . قال أبو السعود : نوع تفصيل لما أجمل في قوله تعالى ^(١) (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ) إلى قوله (الْمُسْرِفِينَ) وإشارة إلى كيفية إنجائهم وإهلاك أعدائهم . وتصديره بالتوكيد القسَمي لإظهار كمال الاعتناء بضمونه . والمراد بـ (الفرقان) التوراة وكذا بـ (الضياء) (الذكر) . أى وبالله لقد آتيناهما وحياً ساطعاً وكتاباً جامعاً بين كونه فارقاً بين الحق والباطل . وضياء يستضاء به في ظلمات الجهل وذكراً يعظ به الناس . وتخصيص (المتقين) بالذكر لأنهم المستضيئون بأنواره . انتهى . « الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ » أى يخافون عذابه ، وهو غير مشاهد لهم . وفيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثرون في الإنذار ، ما لم يشاهدوا ما أنذروه « وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ » أى وجلون أن تأتى الساعة التى تقوم فيها القيامة فيردوا على ربهم ، قد فرطوا في الواجب عليهم لله ، فيعاقبهم بما لا قبل لهم به .

[٥٠] (وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ، أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ)

« وَهَذَا » أى القرآن الكريم « ذِكْرٌ » أى يتذكر به من يتذكر « مُّبَارَكٌ » أى كثير الخير والنفع « أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ » أى مع ظهور كون إنزاله كإتياء

التوراة . وفي الاستفهام الإنكارى توبيخ لهم بأنه لا ينبغي لهم إنكاره وهم عارفون بمزايا إعجازه . وتقديم (لَهُ) للفاصلة أو للحصر . لأنهم معترفون بغيره مما في أيدي أهل الكتاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ)

« وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ » أى هدايته للحق وهو التوحيد الخالص « مِن قَبْلُ » أى من قبل موسى وهرون « وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ » أى علمنا أنه أهل لما آتيناه . أو علمنا أنه جامع لمكارم الأخلاق التى آتيناه إياها ، فأهلناه لملتنا وأخلصناه لاصطفائنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ)

« إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ » أى ما هذه الصور الخفية التى عكفتم على عبادتها . استفهام تحقير لها وتوبيخ على العكوف على عبادتها ، بأنها تماثيل صور بلا روح ، مصنوعة لا تضر ولا تنفع ، فكيف تعبد ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبِيدِينَ)

[٥٤] (قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبِيدِينَ » أى فقلدناهم وتأسينا بهم . « قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » أى لا يخفى على عاقل لعدم استناد الفريقين إلى دليل ، بل إلى هوى متبّع وشيطان مطاع . وفى الإتيان بـ (فى) الظرفية دلالة على تمسكهم فى ضلالهم ، وأنه ضلال قديم موروث . فهو أبلغ من (ضالين) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ)

[٥٦] (قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ)

« قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ » أى بالجد فى دعوى الرسالة ونسبتنا إلى الضلال « أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ » قال الزمخشري رحمه الله : الضمير فى (فَطَرَهُنَّ) للسموات والأرض أو للتأثيل . وكونه للتأثيل أدخل فى تضليلهم وأثبت للاحتجاج عليهم . أى لدلائله صراحة على كونها مخلوقة غير صالحة للألوهية ، بخلاف الأول ، وجوابه عليه السلام إما إضراب عما بنوا عليه مقالهم فى اعتقاد كونها أرباباً لهم ، كما يفسح عنه قولهم ^(١) (نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّ لَهَا عَافِيَةً) كأنه قيل ليس الأمر كذلك بل (رَبُّكُمْ...) الآية . أو إضراب عن كونه لآعباء بإقامة البرهان على ما ادعاه . وقوله (مِّنَ الشَّاهِدِينَ) أى المبرهنين عليه بالحجة ، لا لقولكم العاقل منها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَتَاللَّهِ لَا يَكِيدَنَّا أَصْنَامُكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ)

« وَتَاللَّهِ لَا يَكِيدَنَّا أَصْنَامُكُمْ » لأحتمل أن يفضيحتها بإظهار عجزها « بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ » أى عنها بفراغكم من عبادتها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ)

(١) [٢٦ / الشعراء / ٧١] .

« فَجَعَلَهُمْ جُدًا » أى قطعاً مكسرة، بعد أن ولوا عنها، ليعلموا أنها لا تتحمل إلى هذا الحد . فهو عجزهم في الدفع عن أنفسهم . فتوقع عابدهم الدفع عن نفسه غاية السفه « إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ » أى فيسألونه: لم فعل بآلهتهم؟ فإذا ظهر عجزه عن النطق، فن دونه أعجز منه في ذلك . فضلاً عن الدفع للذى أظهر عجزهم فيه . فرجعوا فأتوا بيت الأصنام فوجدوها جذاذاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ)

« قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا » أى هذا الفعل الفظيع « بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ » أى لجراته على إهانتها وهى الجديرة عندهم بالمعظيم . أو لإفراطه فى التجذيز والحطم ، وتماديه فى الاستهانة بها . أو بتعريض نفسه للهلكة . والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتشنيع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ وَ- إِبْرَاهِيمُ)

[٦١] (قَالُوا فَأَتَوْا بِهِ عَلَىٰ آعِينَ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ)

« قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ وَ- إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأَتَوْا بِهِ عَلَىٰ آعِينَ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ » أى يحضرون عقوبته .

قال ابن كثير : وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام ، أن يبين فى هذا الحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم فى عبادة هذه الأصنام التى لا تدفع عن نفسها ضراً ولا تملك لها نصراً . فكيف يطلب منها شيء من ذلك ؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِلِهْتِنَا يَا بَرَاهِيمُ)

[٦٣] (قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ)

«قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِلِهْتِنَا يَا بَرَاهِيمُ» * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا» يعنى الذى تركه لم يكسره . فإن ترددتم أنه فعلى أو فعله «فَسْأَلُوهُمْ» أى يجيبوكم «إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ» أى والأظهر عجزهم الكلى المانع من القول بالهيتها . والقول فيه ، أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه ، لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم . وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه عن إلزامهم الحجة ، وتبكيهم . ولقائل أن يقول : غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مرتبة . وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد ، لما رأى من زيادة تعظيمهم له . فأسند الفعل إليه لأنه هو الذى متسبب لاستهانتها بها وحطمه لها والفعل كما يسند إلى مباشره ، يسند إلى الحامل عليه . فيكون تمثيلاً أراد به عليه السلام تنبيههم على غضب الله تعالى عليهم ، لإشراكهم بعبادته الأصنام . ويحكى أنه قال : فعله كبيرهم هذا ، غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها . فكأنه قيل : فعله ذلك الكبير على مقتضى مذهبكم ، والقضية ممكنة . وأظهر هذه الأوجه هو الأول . وعليه اقتصر الإمام ابن حزم فى كتابه (الفصل) فى الرد على من جوز على الأنبياء المعاصى ، وعبارته : وأما قوله عليه السلام (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) فإنما هو تقريب لهم وتوبيخ كما قال تعالى^(١) (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) وهو فى الحقيقة مهان ذليل مهين معذب فى النار . فكلا القولين توبيخ لمن قباله ، على ظنهم أن الأصنام تفعل الخير والشر . وعلى ظن المعذب فى نفسه فى الدنيا أنه عزيز كريم . ولم يقل إبراهيم هذا على

أنه محقق لأن كبيرهم فعله. إذ الكذب، إنما هو الإخبار عن الشيء بخلاف ماهو عليه، قصداً إلى تحقيق ذلك . وجلى أن مراده عليه السلام ، على كلٍّ ، إنما هو توجيههم نحو التأمل في أحوال أصنامهم كما ينبي عنه قوله (فَسَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) أى إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا . قال أبو السعود : وإنما لم يقل عليه السلام (إن كانوا يسمعون أو يعقلون) مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضاً ، لما أن نتيجة السؤال هو الجواب ، وأن عدم نطقهم أظهر ، وتبكيتهم بذلك أدخل . وقد حصل ذلك أولاً حسبما نطق به قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (فَارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ)

« فَارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ » أى فراجعوا عقولهم . ومراجعة العقل مجاز عن التفكير والتدبر، والمراد بالنفس النفس الناطقة، والرجوع إليها عبارة عما ذكر «فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ» أى بهذا السؤال أو بعبادة من لا ينطق ولا يضر ولا ينفع، لا من كسرها ، فلم تنسبوه إلى الظلم بقولكم (إِنَّهُ وَلِمَنِ الظَّالِمِينَ) ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ)

« ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ » أى حياء من نقصهم ، وخضوعاً وانفعالاً من إبراهيم ، قائلين « لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ » أى ليس من شأنهم الفطخ ، فكيف تأمرنا بسؤالهم ؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ)

[٦٧] (أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

«قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» أى قبح صنيعكم في عبادة ما لا يضر ولا ينفع .

تنبيه :

ذكر في الكشف في قوله تعالى (ثُمَّ نَكْسُوْا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ) أربعة أوجه . وحاصلها كما في العناية - أن التنكيس قلب الشيء بجعل أعلاه أسفله . فإما أن يستعار للرجوع عن الفكرة المستقيمة في تطليم أنفسهم ، إلى الفكرة الفاسدة في تجويز عبادتها ، مع عجزها فضلاً عن كونها في معرض الألوهية . فقوله (لَقَدْ عَلِمْتُمْ) معناه لم يخف علينا وعليك أنها كذلك وأنا اتخذناها آلهة مع العلم به . والدليل عليه قوله (أَتَعْبُدُونَ) الخ ، أو أن التنكيس الرجوع عن الجدال الباطل إلى الحق في قولهم (لَقَدْ عَلِمْتُمْ) لأنه نفى لقدرتها واعتراف بأنها لا تصلح للألوهية ، وسمى (نكسا) وإن كان حقاً ، لأنه ما أفادهم مع الإصرار . ولكنه نكس بالنسبة لما كانوا عليه من الباطل . أو النكس مبالغة في إطراقهم خجلاً وقولهم (لَقَدْ عَلِمْتُمْ) لخيرتهم أتوا بما هو حجة عليهم . أو النكس مبالغة في الحيرة وانقطاع الحجة . و (أف) صوت إذا صوت به علم أن صاحبه متضجر . وفيه لغات كثيرة كافي كتب اللغة . قال الزمخشري : أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل ، فتأفف بهم . ولما عجزوا عن الحاجة أخذوا في المضارة ، شأن المبطل إذا قرعت شبهته بالحجة لم يكن أحد أبغض إليه من الحق . ولم يبق له مفرع إلا مناصبته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

« قَالُوا حَرِّقُوهُ » أى لأنه استحق أشد العقاب عندهم ، والنار أهول ما يعاقب به
« وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ » أى بالانتقام لها « إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ » أى به شيئاً من السياسة ،
فلا يليق به غيرها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (قُلْنَا يَبْنَازُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ)

« قُلْنَا » أى تعجزاً لهم ولأصنامهم ، وعناية بمن أرسلناه ، وتصديقاً له فى إنجاء من
آمن به « يَبْنَازُ كُونِي بَرْدًا » أى باردة على إبراهيم ، مع كونك محرقة للحطب « وَسَلَامًا
عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ » أى ولا تنتهى فى البرد إلى حيث يهلكه ، بل كوني غير ضارة . وجوز
كون سلاماً منصوباً بفعله . والأمر مجاز عن التسخير ، كما فى قوله ^(١) (كُونُوا قِرَدَةً)
ففيه استعارة بالكناية بتشبيهها بأمور مطيع ، وتخيلها الأمر والنداء ، ولذا قال أبو مسلم :
المعنى أنه سبحانه وتعالى جعل النار برداً وسلاماً ، لا أن هناك كلاماً ، كقوله ^(٢) (أَنْ يَقُولَ
لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ » أى فيكونه . فإن النار جاد ولا يجوز خطابه . وهو ظاهر .

تنبيه :

قال الرازى : لهم فى كيفية برودة النار ثلاثة أقوال : أحدها - أن الله تعالى أزال عنها
ما فيها من الحر والاحتراق ، وأبقى ما فيها من الإضاءة والإشراق . والله على كل شىء قدير .
وثانيها - أن الله تعالى خلق فى جسم إبراهيم كيفية مانعة من وصول أذى النار إليه .
كما يفعل بخزنة جهنم فى الآخرة . وكما أنه ركب بنية النعامة بحيث لا يضرها ابتلاع الحديد
الحماة ، وبدن السمندل بحيث لا يضره المكث فى النار .

(١) [٢ / البقرة / ٦٥] . (٢) [٣٦ / يس / ٨٢] .

وثالثها - أنه سبحانه خلق بينه وبين النار حائلاً يمنع من وصول أثر النار إليه .
قال المحققون : والأول أولى لأن ظاهر قوله (يَنَارُ كُونِي بَرْدًا) أن نفس النار
صارت باردة حتى سلم إبراهيم من تأثيرها ، لا أن النار بقيت كما كانت .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ)

[٧١] (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ)

« وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ » أى أرادوا أن يكيدوه بالإضرار ،
فما كانوا إلا مغلوبين مقهورين . قال الزمخشري : غالبوه بالجدال فغلبه الله ولقنه بالمسكت .
وفزعوا إلى القوة والجبروت فنصره وقواه « وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا » أى لأنه هاجر معه « إِلَى
الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ » وهى أرض الشام . بورك فيها بكثرة الأنبياء
وإزالة الشرائع التى هى طريق السعادتين . وبكثرة النعم والخصب والثمار وطيب عيش الغنى
والفقير . وقد نزل إبراهيم عليه السلام بفلسطين ، ولوط عليه السلام بسدوم . ثم بين بركته
تعالى على إبراهيم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ، وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ)

« وَوَهَبْنَا لَهُوَ إِسْحَاقَ » أى بدعوته^(١) (رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ) « وَيَعْقُوبَ
نَافِلَةً » أى زيادةً وفضلاً من غير سؤال . ثم أشار إلى أن منشأ البركة فيهما الصلاح
بقوله : « وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ » بالاستقامة والتمكين فى الهداية .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٠٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ)

« وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً » أى قدوة يقتدى بهم فى أمور الدين ، إجابة لدعائه عليه السلام بقوله ^(١) (وَمِنْ ذُرِّيَّتِي) « يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا » أى يهدون الناس إلى الحق بأمرنا لهم بذلك وإذنا . قال الزمخشري : فيه أن من صلح ليكون قدوة فى دين الله ، فالهداية محتومة عليه ، وأمور هو بها ، من جهة الله . ليس له أن يحلّ بها ويتثاقل عنها . وأول ذلك أن يهتدى بنفسه ، لأن الانتفاع بهداه أعم ، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدى أميل « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ » أى أن تفعل الخيرات ، مما يختص بالقلوب أو الجوارح « وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ » أى بالتوحيد الخالص والعمل الصالح .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَلَوْ طَاءَ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ)

[٧٥] (وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ، إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)

« وَلَوْ طَاءَ آتَيْنَاهُ حُكْمًا » أى حكمة . وهو ما يجب فعله « وَعِلْمًا » أى بما ينبغى علمه للأنبياء . وقد بعثه الله تعالى إلى سدوم فكذبه أهلها وخالفوه فأهلكهم الله ودمر عليهم ما قص خبرهم فى غير ما موضع فى كتابه العزيز ، وقد أشار إلى ذلك فى ضمن بيان عنايته به وكرامته له بقوله « وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ » أى من عذابها « الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ »

يعنى اللوطة ، وكانت أشنع أفعالهم . وبها استحقوا الإهلاك . ولذا ذهب بعض الفقهاء إلى رمى اللوطى منكساً من مكال عال ، وطرح الحجارة عليه ، كما فعل بهم « إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا » أى فى أهلها « إِنَّهُ وَمِنَ الصَّالِحِينَ » أى العاملين بالعلم ، الثابتين على الاستقامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَ حَا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)

« وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ » أى دعاربه فى إهلاك قومه لما كذبوه بقوله^(١) (أَرَأَيْتُمْ مَ غُلُوبٌ فَأَنْقَضُوا)^(٢) (رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) « فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَفَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ » وهو الطوفان ، أو من الشدة والتكذيب والأذى . فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل فلم يؤمن به منهم إلا القليل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ)

« وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ » أى نصرناه نصراً مستقبلاً للانتصار والانتقام من قومه « الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ » أى فلم يبق منهم أحد كما دعا نبيهم .

(٢) [٧١ / نوح / ٢٦] .

(١) [٥٤ / القمر / ١٠] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ)

« وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ » أى الزرع « إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ » أى رعته ليلًا « وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ » أى لحكم الحاكمين والمتحاكمين إليهما ، عالمين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ، وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ)

« فَفَهَّمْنَاهَا » أى الفتوى أو الحُكومة ، المفهومين من السياق « سُلَيْمَانَ » أى فكان القضاء فيها قضاءه ، لأقضاء أبيه . روى ^(١) عن ابن عباس أن غنما أفسدت زرعاً بالليل ، ف قضى داود بالغنم لأصحاب الحرث ، فقال سليمان : بل تؤخذ الغنم فتدفع إلى أصحاب الزرع فيكون لهم أولادها وألبانها ومنافعها . ويذكر أصحاب الغنم لأهل الزرع مثل زرعهم فيعمروه ويصلحوه ، فإذا بلغ الزرع الذى كان عليه ، ليلة نفشت فيه الغنم ، أخذها أصحاب الحرث وردوا الغنم إلى أصحابها . وكذا روى عن ابن مسعود موقوفاً لامرفوعاً . والله أعلم بالحقيقة . وقوله تعالى « وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا » أى وكل واحد منهما آتينا حكمة وعلماً كثيراً ، لاسليمان وحده . ففيه دفع ما عسى يومه تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهم ، من عدم كون حكم داود عليه السلام حكماً شرعياً .

(١) انظر ابن كثير . الصفحة رقم ١٨٦ من الجزء الثالث .

تنبيهات :

الأول - استدلال الآية على أن خطأ المجتهد مغفور له، وعكس بعضهم، فاستدل بالآية على أن

كل مجتهد مصيب .

قال : لأنها تدل بظاهرها على أنه لا حكم لله في هذه المسألة قبل الاجتهاد . وأن الحق ليس بواحد . فكذا غيرها إذ لا قائل بالفصل . إذ لو كان له فيها حكم تعين . وهذا مذهب المعتزلة ، كما بين في الأصول . ورد بأن مفهوم قوله (فَهَمَّ نَهَا سُلَيْمَانَ) لتخصيصه بالفهم دون داود عليه السلام ، يدل على أنه المصيب للحق عند الله . ولولاه لما كان لتخصيصه بالفهم معنى . والمستدلون يقولون : إن الله لما لم يخطئه ، دل على أن كلاهما مصيب . وتخصيصه بالفهم لا يدل على خطأ داود عليه السلام ، لجواز كون كل مصيباً . ولكن هذا أرفق وذاك أوفق ، بالتحريض على التحفظ من ضرر الغير . فلذلك استدلال بهذه الآية كل . فكلما لم يعلم حكم الله فيها ، لم يعلم تعين دلالتها . كذا في (العناية) .

وجاء في (فتح البيان) مأمثاله : لاشك أنها تدل على رفع الإثم عن المخطئ ، وأما كون كل واحد منهما مصيباً فلا تدل عليه هذه الآية ولا غيرها ، بل صرح الحديث المتفق عليه في الصحيحين^(١) وغيرها أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر . فسماء النبي ﷺ مخطئاً . فكيف يقال إنه مصيب لحكم الله موافق له ؟ فإن حكم الله سبحانه واحد لا يختلف باختلاف المجتهدين . وإلا لزم توقف حكمه عز وجل على اجتهادات المجتهدين ، واللازم باطل فاللزوم مثله . وأيضاً يستلزم أن تكون العين التي اختلف فيها اجتهاد المجتهدين ، بالحل والحرم ، حلالاً وحراماً في حكم الله سبحانه . وهذا اللازم باطل بالإجماع ، فاللزوم مثله . وأيضاً يلزم أن حكم الله سبحانه لا يزال يتجدد عند وجود كل مجتهد ، له اجتهاد في تلك

(١) أخرجه البخاري في : ٩٦ - كتاب الاعتصام - ٢١ - باب أجراء الحاكم إذا اجتهد

فأصاب أو أخطأ . الحديث رقم ٢٥٩٣ ، عن عمرو بن العاص .

وأخرجه مسلم في : ٣٠ - كتاب الأقضية ، حديث رقم ١٥ (طبعنا) .

الحادثة ، ولا ينقطع ما يريد الله سبحانه وتعالى فيها إلا بانتطاع المجتهدين . واللازم باطل فاللزوم مثله . والحاصل أن المجتهدين لا يقدرّون على إصابة الحق في كل حادثة . لكن لا يصرون على الخطأ . كما رجع داود هنا إلى حكم سليمان ، لما ظهر له أنه الصواب . قال الحسن : لولا هذه الآية ، لرأيت الأحكام قد هلكوا . ولكن الله حمد هذا بصوابه ، وأثنى على هذا باجتهاده .

الثاني - دلت هذه الآية على جواز الاجتهاد للأنبياء عليهم السلام . وهو مذهب الجمهور . ومنعه بعضهم . ولا مستند له . لأن قضاء داود لو كان يوحى لما أوتر قضاء ابنه سليمان عليه . ومما يدل على وقوعه دلالة ظاهرة قوله تعالى (١) (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ) فعاتبه على ما وقع منه . ولو كان ذلك بالوحى لم يعاتبه . ومنه ما صح عنه صلوات الله عليه من قوله (٢) (لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدى) ومثل ذلك لا يكون فيما عمله بالوحى ، ونظائر ذلك كثيرة في الكتاب والسنة . وأيضا ، فلا استنباط أرفع درجات العلماء . فوجب أن يكون للرسول فيه مدخل . وإلا لكان كل واحد من آحاد المجتهدين أفضل منه في هذا الباب .

قال الرازى : إذا غلب على ظن نبي أن الحكم في الأصل معلل بمعنى ، ثم علم أو ظن قيام ذلك المعنى في صورة أخرى ، فلا بد وأن يغلب على ظنه أن حكم الله تعالى في هذه الصورة مثل ما في الأصل . وعنده مقدمة يقينية ، وهى أن مخالفة حكم الله تعالى سبب لاستحقاق العقاب . فيتولد من هاتين المقدمتين ظن استحقاق العقاب لمخالفة هذا الحكم المظنون . وعند هذا ، إما أن يقدم على الفعل والترك معا ، وهو محال ، لاستحالة الجمع بين النقيضين . أو يتركهما وهو محال ، لاستحالة الخلو عن النقيضين . أو يرجح المرجوح على الراجح وهو

(١) [٩ / التوبة / ٤٣] . (٢) أخرجه البخارى في : ٢٥ - كتاب الحج ،

٨١ - باب تقضى الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت ، حديث ٨٢٦ ، عن جابر بن عبد الله وأخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ١٤١ (طبعتنا) .

باطل ببدية العقل ، أو يرجح الراجح على المرجوح ، وذلك هو العمل بالقياس - وهذه النكتة هي التي عليها التعويل في العمل بالقياس . وهي قائمة أيضا في حق الأنبياء عليهم السلام . انتهى .

الثالث - قال السيوطي في (الإكليل) : استدلل بها على جواز الاجتهاد في الأحكام ووقوعه للأنبياء . وقد ذكرناه قبل . وأن المجتهد قد يخطئ ، وأنه مأجور مع الخطأ غير آثم ، لأنه تعالى أخبر بأن إدراك الحق مع سليمان ، ثم أثني عليهما . وقد تقدم أولا . واستدل بها من قال برجوع الحاكم بعد قضائه من اجتهاد إلى أرجح منه . وفيها تضمنين أرباب المواشي ما أفسدت بالليل دون النهار . لأن النفس لا يكون إلا بالليل ، كما أخرجه ابن أبي حاتم عن شريح والزهرى وقتادة . ومن عم الضمان فسر به الرعى مطلقا . وذهب قوم منهم الحسن إلى أن صاحب الزرع تدفع إليه الماشية ، ينتفع بدارها وصوفها حتى يعود الزرع كما كان . كما حكم به سليمان في هذه الواقعة . إذ لم يرد في شرعنا ناسخ مقطوع به عندهم . انتهى .

الرابع : روى ^(١) ابن جرير عن عامر قال : جاء رجلان إلى شريح فقال أحدهما : إن شياء هذا قطعت غزلا لي . فقال شريح : نهارا أم ليلا ؟ فإن كان نهارا فقد برئ صاحب الشياء . وإن كان ليلا فقد ضمن ، ثم قرأ هذه الآية .

قال ابن كثير : وهذا الذي قاله شريح شبيه بما رواه ^(٢) الإمام أحمد وأبو داود ^(٣) وابن ماجه ^(٤) من حديث الليث بن سعد عن الزهرى عن حرام بن محيصة ، أن ناقة البراء بن عازب

(١) انظر الصفحة رقم ٥٢ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٤٣٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه أبو داود في : ٢٢ - كتاب البيوع ، ٩٠ - باب المواشي تفسد زرع قوم ،

حديث رقم ٣٥٧٠ . (٤) أخرجه ابن ماجه في : ١٣ - كتاب الأحكام ، ١٣ - باب

الحكم فيما أفسدت المواشي ، حديث رقم ٢٣٣٢ (طبعتنا) .

دخلت حائطا . فأفسدت فيه . ففضى رسول الله ﷺ على أهل الحوائط ، حفظها بالنهار . وما أفسدت المواشى بالليل ضامن على أهلها . وقد عُلِّل هذا الحديث . وروى ابن أبي حاتم أن إياس بن معاوية ، لما استقضى أتاها الحسن ، فبكى . فقال : ما يبكيك ؟ قال : يا أبا سعيد ! بلغنى أن القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار . ورجل مال به الهوى فهو في النار . ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة . فقال الحسن البصرى : إن فيما قصّ الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء ، حكما يردّ قول هؤلاء الناس عن قولهم . قال الله تعالى (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ . . .) الآية . فأثنى الله على سليمان ، ولم يذم داود . ثم قال (يعنى الحسن) : إن الله اتخذ على الحكماء ثلاثة : لا يشتروا به ثمنا قليلا . ولا يتبعوا فيه الهوى . ولا يخشوا فيه أحدا . ثم تلا^(١) (يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) وقال^(٢) (فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَآخُشُونِ) وقال^(٣) (وَلَا تَشْتَرُوا بِئَايَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا) . ثم قال ابن كثير : وقد ثبت في صحيح^(٤) البخارى عن عمرو بن العاص أنه قال . قال رسول الله ﷺ (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران . وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر) فهذا الحديث يردّ نصّا ما توهمه إياس من أن القاضى إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار . وفى السنن^(٥) : (القضاة ثلاثة : قاض فى الجنة وقاضيان فى النار . رجل علم الحق

(١) [٣٨ / ص / ٢٦] . (٢) [٥ / للمائدة / ٤٤] .

(٣) [٢ / البقرة / ٤١] . (٤) انظر الحاشية رقم (١) بالصفحة رقم ٤٢٩٠ .

(٥) أخرجه أبو داود فى : ٢٣ - كتاب الأقضية ، ٢ - باب فى القاضى يخطئ ، حديث رقم ٣٥٧٣ ، عن بُرَيْدَةَ .

وأخرجه ابن ماجه فى : ١٣ - كتاب الأحكام ، ٣ - باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق ، حديث رقم ٢٣١٥ (طبعتنا) .

وقضى به فهو في الجنة. ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار).

ثم بين سبحانه ماخص كلام من داود وسليمان من كراماته، إثر بيان كرامته العامة لهما، بقوله «وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ» أي سخرنا الجبال والطير يقدرن الله معه، بصوت يتمثل له أو يُخَلَقُ فيها. قال ابن كثير: وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه (الزبور) وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه. وترد عليه الجبال تأويباً، ولهذا المأمور^(١) النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب جداً، فوقف واستمع لقراءته وقال: لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود. قال: يا رسول الله! لو علمت أنك تسمع لحبته لك تحبيرا.

وقال أبو عثمان الهندي: مسمعت صوت صنج ولا ربط ولا مزمار مثل صوت أبي موسى رضى الله عنه. انتهى.

وتقديم الجبال على الطير، لأن تسبيحها أعجب وأدل على القدرة، وأدخل في الإعجاز. لأنها جاد. والتذليل بقوله (وَكُنَّا فَاعِلِينَ) إشارة إلى أنه ليس بيدع في جانب القدرة الإلهية، وإن كان عند المخاطبين عجيبياً. وهذه الآية كقوله تعالى في سورة (ص)^(٢) (وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ وَأَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَمِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً، كُلٌّ لَهُ وَأَوَّابٌ).

(١) أخرجه البخاري في: ٦٦ - كتاب فضائل القرآن، ٣١ - باب حسن الصوت

بالقراءة، حديث رقم ٢٠٩٧.

وأخرجه مسلم في: ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم ٢٣٦ (طبعنا)

(٢) [٣٨ / ص / ١٧ - ١٩].

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ، فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ)

« وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ » أى عمل الدروع اللبوسة . قيل كانت الدروع قبله صفاًح ، فخلقها وسردها . أى جعلها حلقاً وأدخل بعضها فى بعض كما قال تعالى ^(١) (وَالنَّاسُ لَهُ الْخَدِيدُ * أَنْ أَعْمَلَ سَلِيغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ) أى لا توسع الحلقة فتتعلق المسار . ولا تغلظ المسار فتتكد الحلقة . ولهذا قال « لِتُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ » أى لتحفظكم من جراحات قتالكم « فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ » أى لنعم الله عليكم ، لما ألهم عبده داود فعلّمه ذلك رحمة بكم فيما يحفظ عليكم فى المصاع حياتكم . وفى إيراد الأمر بالشكر على صورة الاستفهام ، مبالغة فى التقريع والتوبيخ ، لما فيه من الإيحاء إلى التقصير فى الشكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ)

« وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً » أى سخرناها له « تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا » وهى بيت المقدس « وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ » أى ماتقتضيه الحكمة البالغة فيه . وهذا كقوله تعالى ^(٢) (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ) . قال الزمخشريّ رحمه الله : فإن قلت : وصفت هذه الريح بالعصف تارة وبالرخاوة أخرى ، فما التوفيق بينهما ؟ قلت : كانت فى نفسها رحية طيبة كالنسيم . فإذا مرت بكرسيه أبعدت به فى مدة يسيرة على ما قال ^(٣) (عُدُوْهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ) فكان جمعها بين الأمرين ،

(١) [٣٤ / سبأ / ١١ و ١٠] . (٢) [٣٨ / ص / ٣٦] . (٣) [٣٤ / سبأ / ١٢] .

أن تكون رخاء في نفسها ، وعاصفة في عملها ، مع طاعتها لسليمان ، وهبوبها على حسب ما يريد ويحكم ، آية إلى آية ، ومعجزة إلى معجزة .

قال في (الانصاف) : وهذا كما ورد وصف عصا موسى تارة بأنها جانّ وتارة بأنها ثعبان . والجانّ الرقيق من الحيات والثعبان العظيم الجاني منها . ووجه ذلك أنها جمعت الوصفين فكانت في خفتها وفي سرعة حركتها كالجانّ ، وكانت في عظم خلقها كالثعبان ، ففي كل واحد من الريح والعصا ، على هذا التقرير ، معجزتان . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ، وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ)

«وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ» أى فى البحر لاستخراج نفائسه ، تكميلاً لخزائنه وتزييناً لقومه «وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ» أى غير ذلك كبناء المدن والقصور واختراع الصنائع العجيبة كما قال تعالى ^(١) (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجَعَانٍ) «وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ» أى مؤيدين ومعينين .

تنبيه :

الشياطين المذكورون ، إما مرده الإنس وأشدائهم ، وإما مرده الجن لظاهر اللفظ . وعليه قال الجبائي : كيف يتهم لهم هذه الأعمال وأجسامهم رقيقة لا يقدرّون على عمل الثقيل؟ وإنما يمكنهم الوسوسة . وأجاب بأنه تعالى كثّف أجسامهم خاصة وقواهم ، وزاد في عظمهم ، ليكون ذلك معجزاً لسليمان عليه السلام . والله أعلم .

(١) [٣٤ / سبأ / ١٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

[٨٤] (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ۖ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ

مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ)

« وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ۖ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ » .

أى اذ كر أيوب وما أصابه من البلاء ودعاه ربه في كشف ما نزل به ، واستجابته تعالى دعاءه وما امتن به عليه في رفع البلاء . وما ضاعف له بعد صبره من النعماء ، لتعلم أن النصر مع الصبر ، وأن عاقبة العسر اليسر . وأن لك الأسوة بمثل هذا الغيِّ الصبور ، فيما ينزل أحياناً بك من ضرٍّ . وأن البلاء لم ينج منه الأنبياء . بل هم أشد الناس ابتلاءً . كما في الحديث ^(١) (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل) .

وإن من أسباب الفرج دعاءه تعالى والابتهال إليه والتضرع له ، وذكره بأسمائه الحسنى وصفاته العليا . وإن البلاء لا يدل على الهوان والشقاء . فإن السعادة والشقاء في هذا العالم لا يترتبان على صالح الأعمال وسيئها . لأن الدنيا ليست دار جزاء . وإن عاقبة الصدق في الصبر ، هي توفية الأجر ومضاعفة البر . وقد روى أن أيوب عليه السلام ، لما امتحن بما تقدمه أرزاقه وهلك به جميع آل بيته ، وبما لبث يعاني من قروح جسده آلاماً ، وصبر وشكر ، رحمه مولاه فعادت له صحة بدنه وأوتى أضعاف ما فقد . ورزق عدة أولاد ، وعاش عمراً طويلاً أبصر أولاد أولاده إلى الجليل الرابع . ولذا قال تعالى (وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ) أى تذكرة لغيره

(١) أخرجه الترمذى في : ٣٤ - كتاب الزهد ، ٥٧ - باب ما جاء في الصبر على البلاء ،

عن سعد .

من العابدين ليصبروا كما صبر، حتى يثابروا كما أثيب في الدنيا والآخرة. وبالجملة فالسر هو تثبيت قلوب المؤمنين وحملهم على الصبر في المجاهدة في سبيل الحق . وقد روى المفسرون ههنا في بلاء أيوب روايات مختلفة، بأسانيد واهيات، لا يقام لها عند أئمة الأثر وزن. ولا تُمار من الثقة أدنى نظر. نعم يوجد في التوراة سفر لأيوب فيه من شرح ضره، بفقد كل مقتنياته ومواسيه وآل بيته، وبنزول مرض شديد به، عدم معه الراحة ولذة الحياة، غرائب. إلا أنها مما لا يوثق بها جميعها. لما داخلها من المزيج، وتوسع بها في الدخيل، حتى اختلط الحابل بالنابل. وإن كان يؤخذ من مجموعها بلاء فادح وضر مدهش. ولو علم الله خيراً في أكثر مما أجمله في تنزيله الحكيم، لتفضل علينا بتفصيله. ولذا يوقف عند إجماله فيما أجمل، وتفصيله فيما فصل.

تبيينه.

قال بعضهم: أكثر المحققين على أن أيوب كان بعد زمن إبراهيم عليهما السلام. وأنه كان غنياً من أرباب العقار والماشية. وكان أميراً في قومه. وأن أملاكه ومنزله في أرض خصيبة رائحة التربة كثيرة المياه المتسلسلة في الجنوب الشرقي من البحر الميت. ومن جبل سعيير بين بلاد أدوم وصحراء العربية. والله أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ، كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ)

[٨٦] (وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ، إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ)

« وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ، كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ » أى على القيام بأمر الله، وعلى شدائد النوب، وعلى احتمال الأذى في نصرة دينه تعالى، ففيهم أعظم أسوة «وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا» أى في النبوة أو في نعمة الآخرة «إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ» أى الكاملين في الصلاح.

قال ابن كثير : أما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام . وقد تقدم ذكره في سورة مريم . وكذا إدريس عليه السلام . وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي .

وقال آخرون : إنما كان رجلاً صالحاً ، وكان ملكاً عادلاً وحكماً مقسطاً ، وتوقف ابن جرير في ذلك ، فالله أعلم .

وذهب بعض المحققين إلى أن ذا الكفل هو حزقيل عليه السلام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ

أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

[٨٨] (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

« وََذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ » أى اذكر ذا النون يعنى صاحب الحوت ، وهو يونس عليه السلام ، وصبره على ما أصابه ، ثم إنابته ونجاته ، ليتثبت في نبئه فؤادك ويقوى على الصبر على مايقوله الطغاة جنانك . وهذه القصة مذكورة ههنا وفي سورة (الصافات) وفي سورة (ن) . وذلك أن يونس بن متى عليه السلام ، أمره الله أن ينطلق إلى أهل نينوى - من أرض الموصل ، كرسى سلطنة الأشوريين ليدعوهم إلى الإيمان به تعالى وحده ، وإلى إقامة القسط ونشر العدل وحسن السيرة . وكانوا على الضد من ذلك ، تعاظم كفرهم وتزايد شرهم . فخشى أن لا يتم له الأمر معهم ، فأبق من بيت المقدس إلى يافا . ونزل في سفينة سائرة إلى ترشيش ليقم فيها . فأرسل الله ريحاً شديدة على البحر ، أشرقت السفينة معه على الفرق . فتخفف الركاب من أمتعتهم

فلم يقد ، فوقع في أنفسهم أن في السفينة شخصاً سيهلكون بسببه ، فاقترعوا لينظروا من هو ، فخرجت القرعة على يونس ، فقدفوه في البحر وسكن جيشانه وتموجه . وهياً الله حوتاً ليونس فابتلعه ، فمكث في جوف الحوت ثلاثة أيام . ثم دعا ربه فاستجاب له ، وألقاه الحوت على الساحل . ثم أوحى الله إلى يونس ثانية بالمسير إلى نينوى ، ودعوتها إلى الله تعالى ، فوصلها ونادى فيهم بالتوحيد والتوبة . وتوعدهم إن لم يؤمنوا أن تنقلب بهم نينوى ، فلما تحققوا ذلك آمنوا . فرفع الله عنهم العذاب ، قال تعالى ^(١) (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَتْهُمْ إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ)

تنبيهات :

الأول - يونس عليه السلام يسمى في التوراة (يونان) وهو عبراني . ويقال إنه من جت حافر وهي قرية في سبط زبولون ، في شمال الأرض المقدسة . وإنه نبي قبل المسيح بنحو ثمانمائة سنة . والله أعلم .

الثاني - أكثر المفسرين (كالحاكم الرازي) على أن يونس ذهب مغاضباً لربه . وأنه ظن بإبائه إلى الفلك ، وتركه المسير إلى نينوى أولاً ، أن يترك ولا يقاص . قال بعض المحققين : إنما خالف يونس أولاً الأمر الإلهي وترخص فيه ، مخافة أن يظن أنه نبي كاذب إذا تاب أهل نينوى وعفا الله عن جرمهم . وإيثار صيغة المبالغة في (مغاضباً) للمبالغة . لأن أصله يكون بين اثنين ، يجهد كل منهما في غلبة الآخر . فيقتضي بذل المقدور والتناهي . فاستعمل في لازمه للمبالغة ، دون قصد (مفاعلة) وقد استدلل بظاهر هذه الآية وأمثالها ، من ذهب إلى جواز صدور الخطأ من الأنبياء ، إلا الكذب في التبليغ ، فإنه لا يجوز عليهم الخطأ فيه ، لأنه حجة الله على عباده . وإلا ما يجري مجرى بيان الوحي ، فإنه لا يجوز عليهم الخطأ في حال بيان المشروع . وهو قول السكرامية في المرجئة (كما في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد)

وقول الباقلاني من الأشعرية: (على ما حكاه ابن حزم في الملل) . وأما الجمهور المانعون من ذلك ، فلهم في هذه الآية وأشباهاها تأويلات . ونحن نؤثر ما قاله ابن حزم في هذا المقام ، لأنه أطلق لساناً . قال رحمه الله (بعد أن حكى مذهب الكرامية المذكور) : وذهب أهل السنة والمعتزلة والنجارية والخوارج والشيعة إلى أنه لا يجوز البتة أن يقع من نبي معصية بعمد ، لاصغيرة ولا كبيرة .

ثم قال : وهذا القول الذي ندين الله تعالى به . ولا يحل لأحد أن يدين بسواه . ونقول : إنه يقع من الأنبياء السهو عن غير قصد . ويقع منهم أيضاً قصد الشيء يريدون به وجه الله تعالى ، والتقرب به منه . فيوافق خلاف مراد الله تعالى . إلا أنه تعالى لا يقرهم على شيء من هذين الوجهين أصلاً ، بل يذهبهم على ذلك ولا بد ، إثر وقوعه منهم . وربما يبغض المكروه في الدنيا ، كالذي أصاب آدم ويونس والأنبياء عليهم السلام ، بخلافنا في هذا . فإننا غير مؤخذين بما سهونا فيه ، ولا بما قصدناه وجه الله عز وجل ، فلم يصادف مراده تعالى . بل نحن مأجورون على هذا الوجه أجراً واحداً .

ثم قال (في الكلام على يونس عليه السلام) : وأما إخبار الله تعالى أن يونس ذهب مغاضباً ، فلم بغاضب ربه قط ، ولا قال الله تعالى إنه غاضب ربه . فمن زاد هذه الزيادة كان قائلًا على الله الكذب ، وزائداً في القرآن ما ليس فيه . هذا لا يحل ولا يجوز أن يظن بمن له أدنى مسكة من عقل ، أنه يغاضب ربه تعالى . فكيف أن يفعل ذلك نبي من الأنبياء ؟ فعلما يقيفاً أنه إنما غاضب قومه ، ولم يوافق ذلك مراد الله عز وجل ، فعوقب بذلك . وإن كان يونس عليه السلام لم يقصد بذلك إلا رضا الله عز وجل . وأما قوله تعالى (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) فليس على ما ظنوه من الظن السخيف الذي لا يجوز أن يظن بضعيفة من النساء أو بضعيف من الرجال . إلا أن يكون قد بلغ الغاية من الجهل . فكيف بنبي مفضل على الناس في العلم ؟ ومن الحال المتيقن أن يكون نبي يظن أن الله تعالى الذي أرسله بدينه لا يقدر عليه . وهو يرى أن آدمياً مثله يقدر عليه . ولا شك في أن من نسب هذا للنبي ﷺ الفاضل ، فإنه يشتد غضبه لو نسب ذلك إليه أو إلى ابنه . فكيف إلى يونس بن متى الذي يقول فيه

رسول الله ﷺ^(١) (لا تفضلوني على يونس بن متى) ؟ فقد بطل ظنهم بلاشك، وصح أن معنى قوله (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) أى لن نضيق عليه كما قال تعالى^(٢) (وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَدَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ) أى ضيق عليه . فظن يونس عليه السلام أن الله تعالى لا يضيق عليه فى مغاضبته لقومه ، إذ ظن أنه محسن فى فعله ذلك : وإنما نهى الله عز وجل ، محمداً ﷺ عن أن يكون كصاحب^(٣) الحوت، فنعم، نهى الله عز وجل عن مغاضبة قومه، وأمره بالصبر على أذاهم وبالمطاوله لهم . وأما قوله تعالى : أنه استحق الذم والملامة، لولا النعمة التى تداركه بها، للبت معاقباً فى بطن الحوت ، فهذا نفس ما قلناه من أن الأنبياء عليهم السلام يؤخذون فى الدنيا على ما فعلوه ، مما يظنونهم خيراً وقربة إلى الله عز وجل ، إذا لم يوافق مراد ربهم . وعلى هذا الوجه أقر على نفسه بأنه كان من الظالمين . والظلم وضع الشيء فى غير موضعه . فلما وضع النبي صلى الله عليه وسلم المغاضبة فى غير موضعها ، اعترف فى ذلك بالظلم . لاعلى أنه قصده وهو يدري أنه ظلم . انتهى كلام ابن حزم .

وأقول : إن الذى يفتح باب الإشكالات هو التعمق فى الألفاظ . والتنطع فى شرحها وتوليد معانى ولوازم لها، والتوسع فى وجوها توسعاً يمت رونق التركيب ونصاعة بلاغته . ومعلوم أن التنزيل الكريم فاق سائر أساليب الكلام المعهودة بأسلوبه البديع . ولذا كانت آية تأخذ بجماع القلوب رقة وانسجاماً . وبلاغة وانتظاماً . فلا ترى فى كله إلا المختارات لطفاً ، ولا فى جملة إلا الفخيمات تركيباً ، ولا فى إشاراته إلا الأقوى رمزا ، ولا فى كنيائاته إلا الأعلى مغزى . ومن ذلك سنته فى الملام والوعيد من إفراغ القول فى أبلغ قالب شديد ، مما يؤخذ منه شدة الخطب ، وقوة العتب وذلك لمزة الجنب الإلهى والمقام الربانى . فالعربى البليغ طبعاً ، الذائق جبلة ، إذا تلى عليه بمجل نبأ يونس عليه السلام فى هذه الآية ، يدهش لما ترى

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٣٥ - باب قول الله تعالى وإن يونس

لن المرسلين ، حديث رقم ١٦٠٠ ، عن ابن عباس ، ونصه : ما ينبغي لعبد أن يقول : إني خير من يونس بن متى . (٢) [٨٩ / الفجر / ١٦] . (٣) [٦٨ / القام / ٤٨] .

إليه من قوة العتب والملام، وأنه يبأبأه غاضب مولاه ، غضباً لا يماثل الغضب على العصاة . فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين . وأنه ظن أن يُنسى فلا يؤاخذ . وفتلت فلا يحصر . فأتاه ما لم يكن على بال . ووقع في شرك قدرة المتعال ، ثم تداركته النعمة ، ولحقته الرحمة . هذا يحمل ما يفهم من الآية منطوقاً ومفهوماً . فافهم ما ذكرته لك . فإنه يبلغك من التحقيق أملك .

الثالث : عدّ بعض الملاحدة ابتلاع الحوت يونس مُحالاً . فكتب بعض المحققين مجيباً بأن هذا إنكار لقدرة الله فاطر السموات والأرض . الذى له فى خلقه غرائب . ومنها الحيتان المتنوعة الهائلة الجثث ، التى لم يزل يصطاد منها فى هذا العصر ، وفى بطونها أجساد الناس بملابسهم . وكتب آخر : لم يتعرض لتعيين نوع الحوت الذى ابتلع يونس . ولعله فيما قال قوم من المحققين ، من النوع المعروف عند بعضهم (بالزفا) وهو من كبار الحيتان يكون فى بحر الروم ، واسع الحلقوم ، حتى أنه ليمتلع الرجل برمته ، دون أن يشدخه أو يجرحه . حتى يبقى فى الإمكان أن يخرج منه وهو حيّ : ومع ذلك فلم يكن بغير معجزة بقاءه ثلاثة أيام فى جوف هذا الحوت ، ولبت ما لكا رشده متمكناً من التسبيح والدعاء . انتهى .

الرابع : الجمع فى قوله (فِى الظُّلُمَاتِ) إما على حقيقته ، وهى ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل . وقد روى ذلك عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما . أو هو مجاز ، يجعل الظلمة لشدها وتكاثفها فى بطن الحوت كأنها ظلمات . والمراد منها أحد المذكورات ، أو بطن الحوت . وقدمه الزخشرى ونظره بآية^(١) (ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ) .

الخامس : قوله تعالى (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ) أى دعاؤه (وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ) يعنى بأن قذفه الحوت إلى الساحل ، قيل لم يقل (فنجيناه) كما قال فى قصة أيوب عليه السلام^(٢) (فَكَشَفْنَا) لأنه دعا بالخلاص من الضر . فالكشف المذكور يترتب على استجابته .

(١) [٢ / البقرة / ١٧] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٨٤] .

ويونس عليه السلام لم يدع ، فلم يوجد وجه الترتيب في استجابته . وردّ بأن (الفاء) في قصة أيوب تفسيرية . والعطف هنا أيضا تفسيري . والتفنن طريقة مسلوكة في علم البلاغة . ثم لا نسلم أن يونس لم يدع بالخلاص . ولو لم يكن دعاء لم تتحقق الاستجابة . واستظهر الشهاب في سر الإتيان بالفاء ثمة ، والواو هنا غير التفنن المذكور . أن يقال : إن الأول دعاء بكشف الضر وتلطف في السؤال . فلما أجمل في الاستجابة ، وكان السؤال بطريق الإيماء ، ناسب أن يؤتى بالفاء التفصيلية . وأما هنا ، فإنه لما هاجر من غير أمر ، على خلاف معتاد الأنبياء عليهم السلام ، كان ذلك ذنباً . كما أشار إليه بقوله (مِنَ الظَّالِمِينَ) فما أوماً إليه هو الدعاء بعدم مؤاخذته بما صدر منه من سيئات الأبرار . فلاستجابة عبارة عن قبول توبته وعدم مؤاخذته : وليس ما بعدد تفسيراً له ، بل زيادة إحسان على مطلوبه . ولذا عطف بالواو . انتهى .

السادس : قوله (وَكَذَلِكَ يُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) أى إذا كانوا في غموم ، وأخلصوا في أدعيتهم منيبين ، لا سيما بهذا الدعاء : وقد روى في الترغيب آثار : منها عند أحمد والترمذى (دعوة^(١) ذى النون ، لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط ، إلا استجاب له) . وقوله تعالى : القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ)

« وَزَكَرِيَّا » أى واذا ذكر خبره « إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا » أى حين طلب أن يهبه ربه ولداً يكون من بعده نبياً ، ولا يتركه فرداً وحيداً بلا وارث ، وقد تقدمت القصة مبسوطه في أول سورة مريم وفي سورة آل عمران أيضا . وقوله « وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ »

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ١٧٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ١٤٦٢ (طبعة المعارف) .

وأخرجه الترمذى في : ٤٥ - كتاب الدعوات ، ٨١ - باب حدثنا محمد بن يحيى .

ثناء مناسب للمسئلة . قال الغزالي في (شرح الأسماء الحسنى) : الوارث هو الذي ترجع إليه الأملاك بعد فناء الملاك . وذلك هو الله سبحانه ، إذ هو الباقي بعد فناء خلقه ، وإليه مرجع كل شيء ومصيره . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ وَيُحْيِي وَأَصْلَحْنَا لَهُ وَزَوَّجْنَاهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْأَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ) « فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ » أي دعاءه « وَوَهَبْنَا لَهُ وَيُحْيِي وَأَصْلَحْنَا لَهُ وَزَوَّجْنَاهُ » أي أصلحناها للولادة بعد عقرها ، معجزة وكرامة له . وقوله تعالى « إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْأَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ » تعليل لما فصل من فنون إحسانه تعالى ، المتعلقة بالأنبياء المذكورين ، أي كانوا يبادرون في كل باب من الخير . وإيثار (في) على (إلى) للإشارة إلى ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير . لأن (إلى) تدل على الخروج عن الشيء والتوجه إليه « وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا » أي ذوى رغب ورهب ، أو راغبين في الثواب راجين للإجابة « وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ » أي محبتين متضرعين . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ)

« وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا » أي اذ كرنا التي أحصنته إحصاناً كلياً ، عن الحلال والحرام جميعاً . كما قالت ^(١) (وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ) والتعبير عنها بالموصل ، لتفخيم شأنها ، وتنزيها عما زعموه في حقها ، بادئ بدء « فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا » أي نفخنا

(١) [٣ / آل عمران / ٤٧] و [١٩ / مريم / ٢٠] .

الروح في عيسى فيها . أى أحييناه في جوفها . فنزل نفخ الروح في عيسى ، لكونه في جوف مريم ، منزلة نفخ الروح فيها . ونفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه . وقيل : المعنى فعلنا النفخ فيها من جهة روحنا جبريل عليه السلام ، أى أمرناه فنفخ . أو فنفعنا فيها بعض روحنا ، أى بعض الأرواح المخلوقة لنا . وذلك البعض هو روح عيسى ، لأنها وصلت في الهواء الذى نفخه في رحمها « وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا » أى نبأها « آيَةً لِلْعَالَمِينَ » أى فى كمال قدرته واختصاصه من شاء بما شاء . وقد كان من آيتيهما إتيان الرزق لمريم فى غير أوانه . وتشمير النخل اليابس . وإجراء العين ، ونطق ابنها فى المهد . وإحياء الموتى . وإبراء الأكف والأبرص .

قال الزمخشري : فإن قلت : هلا قيل (ءَايَتَيْنِ) كما قال ^(١) (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ) ؟ قلت : لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة . وهى ولادتها إياه من غير فحل . انتهى . وقيل : المعنى وَجَعَلْنَاهَا آيَةً وابنها آية . فخذت الأولى لدلالة الثانية عليها . ولما أنهى ما ذكر تعالى من شأن جماعة من الأنبياء صلوات الله عليهم ، أشار إلى أن عقائدهم وأصول دينهم واحدة ، بقوله سبحانه وتعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)

« إِنَّ هَذِهِ » أى علة التوحيد والاستسلام لمعبود واحد لا شريك له « أُمَّتُكُمْ » أى ملتكم التى يجب أن تحافظوا على حدودها وتراعوا حقوقها . والخطاب للناس كافة « أُمَّةً وَاحِدَةً » أى غير مختلفة . بل هى ملة واحدة . أى أن جميع الأنبياء ورسل الله على ملة واحدة ودين واحد . كما قال تعالى ^(٢) (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) « وَأَنَا رَبُّكُمْ » أى لا إله لكم غيرى « فَاعْبُدُونِ » أى ولا تشرکوا بى شيئاً .

(١) [١٧ / الإسراء / ١٢] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٩] .

تنبيه :

قلنا : إن الأمة هنا بمعنى الملة ، وهو الدين المجتمع عليه ، كما في قوله ^(١) (إِنَّا وَجَدْنَا
ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ) أى على دين يجتمع عليه . والأمة بهذا المعنى هو ما رجحه كثير
من المفسرين في هذه الآية ، وفي آية ^(٢) (يَأْتِيَهَا الرُّسُلُ كُلُّوًا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا
صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ *) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ)
وتطلق (الأمة) بمعنى الجماعة ، كما هي في قوله تعالى ^(٣) (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ
وَبِهِ يَعْدِلُونَ) أى جماعة . وكما في قوله ^(٤) (وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ
وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) ولا تكون بمعنى الجماعة مطلقا ، وإنما هي
بمعنى الجماعة الذين تربطهم رابطة اجتماع ، يعتبرون بها واحدا ، وتسوغ أن يطلق عليهم
اسم واحد كاسم الأمة . وتطلق الأمة بمعنى السفين كما في قوله تعالى ^(٥) (وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ
الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ) وفي قوله (وَأَدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) وبمعنى الإمام الذى يقتدى به ،
كما في قوله ^(٦) (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ) وبمعنى إحدى الأمم المعروفة كما في قوله ^(٧)
(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) وهذا المعنى الأخير لا يخرج عن معنى الجماعة ، على
ما ذكرنا . وإنما خصصه العرف تخصيصاً . كذا حققه العلامة محمد عبده رحمه الله في تفسير
آية ^(٩) (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً) .

(١) [٤٣ / الزخرف / ٢٣] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٥١ و ٥٢] .

(٣) [٧ / الأعراف / ١٨١] . (٤) [٣ / آل عمران / ١٠٤] .

(٥) [١١ / هود / ٨] . (٦) [١٢ / يوسف / ٤٥] .

(٧) [١٦ / النحل / ١٢٠] . (٨) [٣ / آل عمران / ١١٠] .

(٩) [٢ / البقرة / ٢١٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ، كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ)

« وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ، كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ » أى تفرق الناس في دينهم الذى أمرهم الله به ، ودعاهم إليه ، فصاروا فيه أحزاباً ومللاً .

قال ازخشرى رحمه الله : والأصل (وتقطعتم) إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات . كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه ، إلى آخرين ، ويقبح عندهم فعلهم ، ويقول لهم : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله ؟ والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً ، كما يتورع الجماعة الشئ ويقسمونه . فيطير لهذا نصيب ولذاك نصيب ، تمثيلاً لاختلافهم فيه ، وصيورتهم فرقاً وأحزاباً شتى . ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة ، إليه يرجعون . فهو محاسبهم ومجازيهم ، المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ)

« فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ » أى فمن عمل من هؤلاء ، الذين تفرقوا في دينهم ، بما أمر الله به من العمل الصالح ، وأطاعه في أمره ونهيه ، وهو مقر بوحداية الله ، مصدق وعده ووعيده ، متبرىء من الأنداد والآلهة ، فلا كفران لسعيه ، بل يشكر الله عمله هذا ، ويثيبه ثواب أهل طاعته . وقوله تعالى (وَإِنَّا لَهُ) أى لسعيه المشكور (كَاتِبُونَ) أى مثبتوه في صحيفة أعماله ، ولا نضيعه .

تنبيه :

الكفران مصدر من (كفر فلان النعمة كفراً وكفراناً) وأوثر (لا كفران) على (لا إنكفر) للمبالغة . لأن نفي الجنس مستلزم له وأبلغ في التنزيه بعمومه . وعبر عن العمل

بالسعى لإظهار الاعتقاد به . والآية كقوله تعالى (١) (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا) .

ثم أشار إلى مقابل هؤلاء ، وهم من أعرض عن ذكره تعالى ، بلحق الوعيد لهم ، لما جرت به سنته تعالى ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَحَرَّمَ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)

« وَحَرَّمَ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ » أى وحرام على أهل قرية فسقوا عن أمر ربهم ، فأهلكهم بذنوبهم ، أن يرجعوا إلى أهلهم ، كقوله (٢) تعالى (الَّذِينَ يَرَوْنَ كَذِبَ أَهْلِكِنَا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ) وقوله (٣) (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ) وزيادة (لا) هنا لتأكيد معنى النفي من (حرام) وهذا من أساليب التنزيل البديعة البالغة النهاية في الدقة . وسر الإخبار بعدم الرجوع مع وضوحه ، هو الصدع بما يزعمهم ويؤسفهم ويلوعهم من الهلاك المؤبد ، وفوات أمنيته الكبرى ، وهى حياتهم الدنيا . وجعل أبو مسلم هذه الآية من تقمة ما قبلها ، و (لا) فيها على بابها . وهى مع (حرام) من قبيل نفي النفي . فيدل على الإثبات . والمعنى : وحرام على القرية المهلكة ، عدم رجوعها إلى الآخرة . بل واجب رجوعها للجزاء . فيكون الغرض إبطال قول من ينكر البعث . وتحقيق ما تقدم أنه لا كفران لسعى أحد . وأنه سبحانه سيحييه ، وبعمله يجزيه . واللفظ الكريم يحتمله ويتضح فيه . إلا أن الأول لرعاية النظائر من الآى أولى . وأما ما ذكر سواها ، فلا يدل عليه السياق ولا النظر . وفيه ما يحل بالبلاغة من التعقيد وفوات سلاسة التعبير .

ثم أشار إلى تحقق نصر الرسل وغلبتهم ، وكثرة أتباعهم حتى يحيطوا بأعدائهم من كل جانب ، وينزلوا بهم ماتشخص لهم أبصارهم ، ويورثهم طول الندامة ، بقوله تعالى :

(١) [١٧ / الإسراء / ١٩] . (٢) [٣٦ / يس / ٣١] . (٣) [٣٦ / يس / ٥٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُتْلٍ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ)
 « حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ » علم لكل أمة كثيرة العدد مختلطة من
 أجناس شتى « وَهُمْ مِّن كُتْلٍ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ » أى من كل نشز من الأرض يسرعون ،
 متجفدين لقهر أعدائهم ، تحت راية نبيهم أو أميره أو خليفته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُؤْيَلْنَا
 قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ)

« وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ » أى طلعت طلائع النصر والقهر ، ودحر الباطل والكفر
 « فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى لهول ما حل بساحتهم والدهشة منه ،
 قائلين « يُؤْيَلْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا » أى لم نعلم أنه حق « بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ »
 أى لأنفسنا ، بالإخلال بالنظر والإباء والعناد . ثم أشار إلى شأنهم فى الآخرة بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ)
 [٩٩] (لَوْ كَانَ هَؤُلَاءَ إِلَهًا مَّا وَرَدُوهَا ، وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ)
 [١٠٠] (لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ)

« إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ » أى من الأوثان والأصنام « حَصَبُ جَهَنَّمَ »
 أى ما يرى به إليها « أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلَاءَ إِلَهًا مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ
 فِيهَا خَالِدُونَ » أى فلا منجى لهم منها .

قال الزمخشري : فإن قلت : لم قرنوا بالهتهم ؟ قلت : لأنهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غم وحسرة . حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم والنظر إلى وجه العدو باب من العذاب . ولأنهم قدروا أنهم يستشفعون بهم في الآخرة ، ويستنفعون بشفاعتهم . فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا ، لم يكن شيء أبغض إليهم منهم « لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ » أى ترديد نفس تنتفخ منه الضلوع « وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ » أى من الهول وشدة العذاب . ثم بين تعالى حال المؤمنين إثر حال الكافرين ، حسبما جرت به سنة التنزيل ، من شفع الوعد بالوعيد ، وإيراد الترغيب مع الترهيب ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١٠١] (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ)
 [١٠٢] (لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ، وَهُمْ فِي مَا أُشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ)
 [١٠٣] (لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمْ
 الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ » أى الخصلة الحسنى ، وهى السعادة أو التوفيق
 « أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » لأنهم فى غرفات الجنان آمنون . إذ وقاهم ربهم عذاب السعير
 « لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا » أى صوتاً يحس به منها ، لبعدهم عنها وعما يفزعهم « وَهُمْ فِي مَا
 أُشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ » أى للحشر كما قال تعالى (وَيَوْمَ
 يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) « وَتَتَلَقَّيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ »
 أى تستقبلهم مهنئين لهم قائلين « هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » أى فى الدنيا ،
 وتبشرون بنيل المثوبة الحسنى فيه . وقوله تعالى :

(١) [٢٧ / النمل / ٨٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ
نُعِيدُهُ ، وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)

[١٠٥] (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

[١٠٦] (إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ)

[١٠٧] (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)

« يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ » أى اذكروه . أو ظرف لـ (لا يحزنهم) أو لـ (تتلقاهم) .
والطى ضد النشر . وقوله « كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ » أى كما يطوى السجل وهو الكتاب .
واللام فى (للكتب) لام التبيين . ولذلك قرئ (الكتاب) بالإنفراد . أو بمعنى (من)
وفيه قرب من الأول ، أو (الكتب) بمعنى المكتوب . أى كطى الصحيفة على مكتوبها .
فاللام بمعنى (على) وهو ما اختاره ابن جرير^(١) .

تنبية :

ما نقل عن ابن عباس أن السجل اسم رجل كان يكتب للنبي صلوات الله عليه ،
كما رواه أبو داود والنسائي وغيرهما ، فآثر منكر لا يصح .
قال ابن كثير^(٢) : وقد صرح بوضعه جماعة من الحفاظ ، وإن كان فى سنن أبي داود .
منهم شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي .
وكذلك تقدم فى رده الإمام ابن جرير^(٣) وقال : لا يعرف فى الصحابة أحدا اسمه السجل .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٠٠ من الجزء الثالث .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وَكُتَّابُ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، معروفون ، وليس فيهم أحد اسمه السجل .
وصدق رحمه الله في ذلك . وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث .
وأما من ذكره في أسماء الصحابة ، فإنما اعتمد على هذا الحديث . والصحيح عن ابن عباس
أن السجل هي الصحيفة . انتهى .

وهذه الآية كآية^(١) (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) وطى السماء كناية عن
انسداد نجومها ، ومحو رسومها ، بفساد تركيبها واختلال نظامها . فلا يبق أمر ما فيها من
الكواكب على ما نراه اليوم . فيخرب العالم بأسره « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَوَعْدًا
عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » أى منجزين إياه . ثم أشار إلى تحقيق مصداقه ، بإعزاز المنى عنه ،
وإبرائه ملك جاحده ، بقوله تعالى « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ
يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » أى العاملون بطاعته . المنتهون إلى أمره ونهيهِ . دون العاملين
منهم بمعصيته ، المؤثرين طاعة الشيطان على طاعته . و(الزبور) علم على كتاب داود عليه السلام ،
ويقال : المراد به كل كتاب منزل . والذكر - قالوا - التوراة أو أم الكتاب . يعنى اللوح الذى
كتب فيه كل شئ قبل الخلق ، والله أعلم . وقوله تعالى « إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَالِدِينَ »
إشارة إلى المذكور فى هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة . أو إلى العبرة
فى إرث الأرض الصالحين ودحر المجرمين . و (البلاغ) الكفاية . وقوله (لِقَوْمٍ عَالِدِينَ)
أى يعبدون الله ، بما شرعه وأحبه ورضيه . ويؤثرون طاعته على طاعة الشياطين
وشهوات النفس « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » أى وما أرسلناك بهذه الحنيفية
والدين الفطرى ، إلا حال كونك رحمة للخلق ، فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين . وفى
جعله نفس الرحمة مبالغة جليلة . وجوز كون (رحمة) مفعولاً له . أى للرحمة ، فهو نبي الرحمة .

تنبيه :

قال الرازي : إنه عليه السلام كان رحمة في الدين وفي الدنيا . أما في الدين فلأنه بعث والناس في جاهلية وضلالة وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم ، لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم . فبعث الله تعالى محمداً ﷺ حين لم يكن لطلاب الحق سبيل إلى الفوز والثواب . فدعاهم إلى الحق وبين لهم سبيل الثواب ، وشرع لهم الأحكام وميز الحلال من الحرام . ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق ، فلا يركن إلى التقاليد ولا إلى العناد والاستكبار ، وكان التوفيق قريباً له . قال الله تعالى (١) (قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً) إلى قوله تعالى (وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) وأما في الدنيا فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الدل والقتال والحروب ، ونصروا ببركة دينه . انتهى .

وقد أشرت إلى وجه الرحمة في بعثته صلوات الله عليه ، في (الشذرة) التي جمعتها في سيرته الزكية ، في بيان افتقار الناس جميعاً إلى رسالته ، فقلت : كل من لحظ بعين الحكمة والاعتبار ، ونفذ بصيرته إلى مكفون الأسرار ، علم حاجة البشر كافة إلى رسالة خاتم النبيين ، وأكبر منة الله به على العالمين ، فقد بعث صلوات الله عليه وسلامه على حين فترة من الرسل ، وإخافة للسبل ، وانتشار من الأهواء ، وتفرق من الملل ، ما بين مشبهه الله بخلقه ، وملحد في اسمه ، ومشير إلى غيره ، كفر بواح ، وشرك صراح ، وفساد عام ، وانتهاك للأموال والأرواح واغتصاب للحقوق ، وشن للغارات ، وواد للبنات وأكل للدماء والميتات ، وقطع للأرحام ، وإعلان بالسفاح ، وتحريف للكتب المنزلة ، واعتقاد لأضاليل المتكهنه ، وتأليه للأخبار والرهبان ، وسيطرة من جبابرة الجور وزعماء الفتن وقادة الغرور ، ظلمات بعضها فوق بعض ، وطامات طبقت أكناف الأرض ، استمرت الأمم على هذه الحال ، الأجيال الطوال ، حتى دعا داعي الفلاح ، وأذن الله تعالى بالإصلاح . فأحدث بعد ذلك أمراً ، وجعل بعد عسريسراً . فإن الفوائد إذا تنافت انتهت ، وإذا تواتت تولت . وذلك أن الله تعالى أرسل إلى البشر رسولاً ليعتقهم من أسر الأوثان ،

ويخرجهم من ظلمة الكفر وعى التقليد إلى نور الإيمان ، وينقذهم من النار والعار ، ويرفع عنهم الآصار ، ويطهرهم من مساوئ الأخلاق والأعمال ، ويرشدهم إلى صراط الحق .
قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) وقال تعالى (١) (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (قُلْ إِنَّمَا يُوحِيَّ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ)

[١٠٩] (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ، وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تَوَعَّدُونَ)

[١١٠] (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ)

[١١١] (وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةً لَّكُمْ وَمَتَّعٌ إِلَىٰ حِينٍ)

[١١٢] (قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ، وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ)

«قُلْ إِنَّمَا يُوحِيَّ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ» أى ما يوحى إلى ، إلا استشارته تعالى

بالوحدانية فى الألوهية . ومعنى القصر على ذلك ، أنه الأصل الأصيل ، وما عداه راجع إليه

وغير منظور إليه فى جنبه . فهو قصر دعائى « فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ » أى مفقادون لما يوحى

من التوحيد ، مستسلمون له « فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى عن التوحيد « فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ »

أى أعلمتكم وهديتكم على كلمة سواء بيننا وبينكم ، نؤمن بها ونجنى ثمرات سعادتها فى

الدارين . أو المعنى دللتكم على صراط مستقيم ، وبلغتكم الأمر به . فإن آمنتم به فقد سعدتم ،

وإلا فإن وعد الجاحدين آتاكم ، وليس بمصروف عنكم . وإن كنت لا أدرى متى يكون ذلك ،

لأن الله تعالى لم يعلمنى علمه ، ولم يطلعنى عليه كما قال « وَإِنْ أَدْرَىٰ » أى وما أدرى « أَقْرَبٌ

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٤] .

أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ « أَى مِنْ الْفَتْحِ عَلَيْكُمْ ، وَإِبْرَاطِ أَرْضِكُمْ غَيْرَكُمْ ، وَلُحُوقِ الذِّلِّ وَالصَّفَارِ بِعَصِيَانِكُمْ » إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ « أَى فَمَسِيحُزِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ » وَإِنْ أَذْرَى لَعَلَّهُ وَفْتَنَةٌ لَّكُمْ « أَى وَمَا أَذْرَى لَعَلَّ تَأْخِيرَ جَزَائِكُمْ اسْتِدْرَاجَ لَكُمْ ، وَزِيَادَةَ فِي افْتِنَانِكُمْ . أَوْ ابْتِلَاءَ لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ . ذ (الْفِتْنَةُ) إِمَّا مَجَازٌ عَنِ اسْتِدْرَاجِ بِذِكْرِ السَّبَبِ وَإِرَادَةِ الْمَسَبِّ ، أَوْ هُوَ بِمَعْنَاهِ الْأَصْلِيِّ . فَهُوَ اسْتِعَارَةٌ مَصْرُوحَةٌ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى « وَمَتَّعْ إِلَىٰ حِينٍ » أَى تَمَتِّعْ لَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّقَدَّرٍ . وَالتَّمَتُّعُ بِمَعْنَى الْإِبْقَاءِ وَالتَّأْخِيرِ « قُلْ » وَقُرِئَ (قُلْ) « رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ » أَى أَفْصِلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ . وَذَلِكَ بِنَصْرِ مَنْ آمَنَ بِمَا أَنْزَلَتْ ، عَلَىٰ مَنْ كَفَرَ بِهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى (١) « رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ » « وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ » أَى مِنَ الْكُذْبِ وَالْإِفْرَاءِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ . بِنَصْرِ أَوْلِيَائِهِ ، وَقَهْرِ أَعْدَائِهِ . وَقَدْ أَجَابَ سُبْحَانَهُ دَعْوَتَهُ ، وَأَظْهَرَ كَلِمَتَهُ ، فَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَوَّلَى وَالْآخِرَةِ ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مُّجِيدٌ .

قال الرازى : قال القاضى : إِنَّمَا خَتَمَ اللَّهُ هَذِهِ السُّورَةَ بِقَوْلِهِ (قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ) لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ قَدْ بَلَغَ فِي الْبَيَانِ لَهُمُ الْغَايَةَ . وَبَلَغُوا النِّهَايَةَ فِي أَذْيَتِهِ وَتَكْذِيبِهِ . فَكَانَ قِصَارَى أَمْرِهِ تَعَالَى بِذَلِكَ تَسْلِيَةً لَهُ وَتَعْرِيفًا أَنَّ الْمَقْصُودَ مَصْلَحَتَهُمْ . فَإِذَا أَبَوْا إِلَّا التَّمَادَى فِي كُفْرِهِمْ ، فَعَلِمْتَ بِالْإِنْقِطَاعِ إِلَى رَبِّكَ ، لِيَحْكُمَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ . إِمَّا بِتَعْجِيلِ الْعِقَابِ بِالْجِهَادِ أَوْ بِغَيْرِهِ . وَإِمَّا بِتَأْخِيرِ ذَلِكَ . فَإِنَّ أَمْرَهُمْ ، وَإِنْ تَأَخَّرَ فَمَا هُوَ كَائِنْ قَرِيبٍ . وَمَا رَوَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ فِي حُرُوبِهِ ، كَالدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى أَمْرُهُ أَنْ يَقُولَ هَذَا الْقَوْلَ ، كَالِاسْتِعْجَالِ لِلْأَمْرِ بِمُجَاهَدَتِهِمْ . وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ .

تم الجزء الحادى عشر ، ويليه ، إن شاء الله الجزء الثانى عشر ، وفيه تفسير سور : ٢٢ - سورة الحج ، و ٢٣ - سورة المؤمنون و ٢٤ - سورة الفور و ٢٥ - سورة الفرقان

(١) [٧ / الأعراف / ٨٩] .